بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقدِّمة

الحَمدُ لله الذي علم بالقلم الانسان، ومَنَحه لِساناً مُبيناً به يَتواصَلُ ويَتفاهَم ما بقي الزمان. والصلاة والسلام على أفصَح العَرَبِ والعَجَم، وإمام البلاغة والبيان.

## أمّا بَعد

فأَصْلُ هذا الكتاب مُحاضراتٌ كنتُ ألقيتُها -في أَزمِنَة مختلفة- على طَلَبة شُعبة الدراساتِ الإسلاميةِ بكلية الآداب التّابعة لجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، في علوم اللّسان ومَهارات التّعْبيرِ والتّواصُل. وقد رَغِبَ إليّ كَثيرٌ من طَلَبتي وبعضُ زملائي الأساتذة الكرام -منذ أَمَدٍ بَعيد- أن أجمعَ شَتاتَها في مُؤلف يَعمُّ به النَّفعُ ويَسهُلِ إليه الرجوعُ، فكنتُ أُقدّم رِجلاً وأؤخر أُخْرى، حتى أَذِنَ الله بأن تُنْشرَ بَعد طيّ وتظهرَ بعد خَفاءٍ.

وأنا اليومَ أَشْرُف بتقْديم بعض هذه المحاضرات لطَلَبتنا الأعِزاء، ولِقُراء العَربية عامّة، بعد أن أَعَدْتُ النَّظرَ فيها مُهَذِّباً ومُعَدّلاً، وعَزَّزْتُها بجُمْلة وافِرَةٍ مِن النّصوص والنُقُول، مِن مَصادرَ قديمةٍ وأخرى مُعاصِرةٍ -في اللغة وفقهها خاصة- وفي ألوان مَعرفية شتّى لها ارتباط بهذا الموضوع، كمُؤلفات الأدب والبلاغة والنّقد ودواوين الشعر، وكتب السُّنة المُشرَّفة وشُروحها، وكُتُب علوم القرآن والتّفسير.

ولا أدعي فيما قدّمتُ عِلماً جديداً أو نظراً فريداً -وأنّى لي ذلك- ولكنْ قُصارى الجُهد أني ألّفتُ بين عَناصر هذه المباحِث المتشَعّبة، ورُمْتُ حُسنَ الإعدادِ والتّنسيق، واختيارَ ما يُناسب من الشّواهدِ والنّصوص، مع الإحالة -غالباً-

والتوثيق. وتوخَّيتُ الإيجازَ في العَرض والشرح تارة، والإطنابَ تارة أخرى، حَسب ما كان يقتَضيه المَقامُ. كما ترجمتُ لكثير من الأعلام الوارِدة في الكتاب، مُعتمداً في جلّ الأحيان على قاموس "الأعلام" لخَير الدين الزّركلي (ت/ 1396هـ)، وقسم التراجم من "الموسوعة الشاملة" العربية، و"موسوعة ويكَيبيديا" بقسمَيْها العربي والأجنبي.

ولم أَدّخِر وُسْعاً لكتابَة أسماء الأعلامِ الغربية باللاتينية، مع بيان سنوات وفاتهم –إن أمكن– وفعلتُ الشيء نفْسَه مع مُؤلَّفاتهم، ومع كثيرٍ من المصطلحاتِ والعباراتِ الأجنبية –لربط الكلماتِ أو الجمل بأصولها– كما أوردتُ جُمْلةً من الرّسوم والخُطاطات التوضيحية، بالعربية –والأجنبية أحياناً– تسهيلاً على طلبة العِلم، ورغبةً في توسيع أُفق البَحث والدراسةِ لديهم، حيثُ رأيتُ الحاجَةَ الماسَّة إلى كل ذلك. فلعلّهم واجدونَ في طيّات الكتاب بعضَ ضالّتهِم، ومُنتفعونَ بما ضمّت أبوابه وفُصولُه مِن القضايا والآراء، وما اشتَمَلَتْ عليه من الفوائِد والفرائِد، دَبَّجَتْها أقلامُ جَهابذةِ العُلماء ودَهاقِنَة الكُتّاب على اختلاف مَشاربِهم وأَعْراقِهم.

ولعلّي وُفّقتُ في مَسْعاي مِن وراء تأليفِ هذا الكتاب، خِدمةً للُغة الضادِ، لُغة القرآن وشِعار الإسلام، ووفاءً لِعُلمائنا الأفذاذ، نجوم الدُّجَى وشموس الضحَى، الذين أفنَوا أَعمارَهم كي يَظلّ مَنارُ العَربية رقْراقاً، وعلَمُها أبدَ الدّهر عالياً خَفّاقاً. والله اللطيفَ أسأل –في البدء والختام– أن يُجنبنا الشَّطط والزَّلل، في القولِ والعَمل، وان يدفعَ عنا العُجب والرِّياء، وأن يجعل هذا العمل مُتقبّلاً عنده، خالصاً لوجهه الكريم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. ربّ عَليكَ توَكّلتُ، وعوْنكَ رَجَوْتُ، فإنكَ بِكُل جَميلٍ كَفِيل، وأنتَ حَسْبي ونِعْمَ الوكيل.

طنجة العالية يوم الجمعة 10 يناير سنة 2010 م

# البَابـ الأول
# من قَضايا اللغَـة والتواصُل

# الفَصل الأول

# اللُّغَةُ: مَفهومُها – وظَائفُها– فَصائِلُها

- المبحَث الأول: مَفهومُ اللُّغة ومَكانتُها في حَياة الفَرد والمجتمَع
- المَبحَثُ الثاني: اللغةُ ومَظاهِرُها عِند عُلماء اللّسَان
- المَبْحَثُ الثَّالثُ: وَظَائِفُ اللُّغَة وخَصائِصُهَا
- المبْحَثُ الرابع: الفَصَائِلُ اللّغَويَّة

☆☆☆

# الفَصْلُ الثَّاني

# اللُّغَةُ وَالتَّواصُل

- المَبحثُ الأَول: الإعْلامُ: مَفهُومُه –مجالاتُه– غاياتُه
- المبحَث الثاني: الرِّسالة الاتصَالية وأَساليبُ الإقْناع

# الفَصل الأول

# اللُّغَةُ: مَفهومُها – وظائِفُها – فَضائِلُها

## المبحَث الأول

## مَفهومُ اللُّغة ومَكانتُها في حَياة الفَرد والمجتمَع

### اللغةُ هِبةٌ من الخالق عزَّ وجَلٍ

خلقَ اللهُ ﷻ الإنسانَ وميَّزه بفضيلة النُّطق والبَيان، وسَخر له نعمةَ الكلامِ كي تكونَ وسيلتَه إلى التَّعبيرِ عن مَكنونات نفسه، وسبيلاً إلى مَعرفة خالقه، وطَريقاً إلى فهم ما يَدور حوله، وعَونا للبشر ليتعارفوا ويتواصلوا فيما بينهم، قال ﷻ ﴿يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . ﴾ [الحجرات/13]. وقال ﷻ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1] [الروم/22]. ولذلك جعل اللهُ ﷻ اللغة ثانيَ نِعمةٍ له بعد نِعمة الخَلق،

---

[1] قوله سبحانه وتعالى: (لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) قرأها حَفص بكَسر اللام أي للعُلماء، وقرأها الباقون للعالَمين: بفتح اللام أي للناس. وقوله (واختلاف ألسنتكم) أي: لغاتكم من عرب، وعجم، بأن عَلِم كلَّ صِنف لغتَه، أو ألهمَه وَضعَها وأقْدَره عليه، أو أجناسُ النطق وأشكاله، فإنك لا تكاد تسمع متكلمَين متساويين في الكيفية من كل وجه. . . وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولو اتفقت الأصواتُ والصور وتشاكلت، وكانت ضرباً واحدا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلتْ مصالحُ كثيرة، ولم يُعرف العدوُّ من الصديق، ولا القريب من البعيد. .
(بتصرف من: "فتح البيان في مقاصد القرآن" 238/10، لمحمد صديق القِنَّوجي، تحقيق: عَبد الله الأنصَاري، المكتبة العصريَّة، بَيروت، 1412 هـ.)

فقال عزّ شأنه: ﴿الرَّحمَنُ عَلَّم القُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، بحيث جعله قادراً على الإبانة بألفاظ اللغة –مُفردةً ومُركّبةً– ليتمكّن بها من التواصل مع غيره، واستيعاب معاني ما يُوجَّه إليه من خِطاب الآخرين، وإدراك مَقاصدهم. والبيانُ – كما قال الجاحظ– (163–255 هـ) «اسمٌ جامعٌ لكل شيءٍ كشفَ لك قِناعَ المعنى، وهَتكَ الحِجابَ دون الضمير، حتى يُفضِي السامع إلى حقيقته، ويَهجُم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومن أي جِنْس كان الدليل، لأن مدارَ الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامعُ، إنما هو الفهمُ والإفهامُ، فبأي شيءٍ بلغتَ الإفهامَ وأوْضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان . . .». [2]

وعن فضيلة البيان قال إمام الفُصَحاء ﷺ «إنَّ مِن البيان لَسِحْراً». [3]

اللغة –إذن– مِنحة رُبّانية، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقل الانسان وتفكيره، حيث تُختزن في دماغه، ثم تنطلق على لسانه في سلسلة من الأصوات المتابعة المسموعة لتكوّنَ كلماتٍ ذاتِ معان مُتعارف عليها بين فئة من الناس، تُوحِدُهم عوامل بيئية مشتركة، بها يتواصلون، فيحصل بينهم الإفهام والتفاهُم، شَريطةَ أن يلتزموا بقوانين هذه الوسيلة النافعة في التخاطب. واللغة بهذا المفهوم عُنصرٌ فعّال في التواصل بين أفراد المجتمع الواحد، يتناقلون عن بعضهم المشاعرَ والمعارفَ والمنافع، وليس هذا التواصل مَقصورا على مُتحدثي اللغة الواحدة بل يربطهم بالآخرين ممن يَتعلمون لغتهم.

---

2 "البيان والتبيُّن" 82/1، تحقيق عبد السلام محمد هارون– مطبعة الخانجي بالقاهرة، ط7 سنة 1998م والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر الليثي: كبير أئمة الأدب، من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة جدا، منها: "الحيوان" و"البيان والتبيين" و"مجموع رسائل " و"أخلاق الملوك" و"البخلاء" و"المحاسن والأضداد" و "الربيع والخريف" و"مسائل القرآن" و"صياغة الكلام " و"الحنين إلى الأوطان". . .

3 رواه البخاري. وسيأتي الحديثُ عنه مفصلاً في الفصل الأول من الباب الثالث إن شاء الله.

واللغةُ أيضاً كالكائن الحيّ، تنمو وتَشبُّ وتَشيخ، وقد تموت إذا لم تَهيأْ لها عواملُ الحياة وأسبابُ الاستمرار، وهي رهينَةٌ في ذلك بتنوعٍ الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، فعندما يتطور المجتمع حضاريا تتطورُ اللغة، ويحصل العكس إذا انحطّ. وفي هذا الشأن يقول الإمام ابن حزم (384-456 هـ) وهو يتحدث عن كيفية ظهور اللغات:

"فإن اللغةَ يَسقطُ أكثرُها ويَبطلُ بسُقوطِ دولةِ أهلها، ودُخول غَيرِهم عليهم في مَساكنِهم، أو بنَقلِهم عن ديارِهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يُقيِّدُ لغةَ الأمةِ وعُلومَها وأخبارَها قوةُ دَولتِها، ونشاطُ أهلِها وفراغُهم، وأمّا مَن تَلِفَتْ دولتُهم، وغلبَ عليهم عَدوُّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخِدمة أعدائهم، فمَضمونٌ منهم مَوتُ الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتِهم، ونِسيانِ أنسابِهم وأخبارِهم، وبُيودِ علومِهم. هذا موجودٌ بالمُشاهدة ومَعلوم بالعقل ضَرورةً. . ." . [(4)]

ولا ريبَ أن اللغة في شَكليْها المَنطوق والمكتوب أداةٌ عجيبة، تنتقل بها الأشياءُ التي تقع عليها حواسنا إلى أذهاننا، وهي الجسر الذي يَصل بين الحياة والفكر، تسبقُ أحياناً وجودَ الأشياء وتلحقها أحيانا أخرى. وليس كل من يستعمل اللغة –عالماً كان أم جاهلاً – يعرف كُنْه هاته النعمة التي يَسَّرها اللهُ لعباده؛ فقد يهتدي الإنسان

---

4 "الإحكام في أصول الأحكام"، 32/1، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت. وابن حزم هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. ولد بقرطبة وتوفي ببادية الأندلس. كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف. رُوي أنه اجتمع عند الفضل ابنه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد. ومن أشهر مصنفاته –سوى "الإحكام"–: "الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل" و "المحلّى" في الفقه، و "الناسخ والمنسوخ "، و "جمهرة الأنساب" و" جوامع السيرة" و "نقط العروس في تواريخ الخلفاء"، و"الرد على الكندي الفيلسوف"، و "الرد على ابن النغريلة اليهودي" . . .

إلى مَعرفة نحوها وصرْفها وبلاغتها وآدابها لكنه يَعْجز عن مَعرفة مَصدر هذه الألفاظ ونشأتها، وعلاقتها بالمعاني، وطبيعة هذه الصلة أثابتة هي أم متغيرة؟ وهل توجد قوانينُ تنطبقُ على اللغة –أيا كانت– في جميع العصور؟ وقوانينُ تُسيطر على اللغات بصورة عامة كما تسيطر قوانينُ الطبيعةِ في كل مكان؟

واللغة أخيرا أداةٌ مُعقدة وليس من السهل دراستُها، فهي ذاتُ جوانبَ متعددة، وتأخذ باختلاف الأزمان أشكالاً متنوعة بتنوع البيئات والمجتمعات. وقد استَحْوذَتْ على اهتمام الدارسينَ –على تنوّعِ مَشاربهم– منذ القِدمِ، فحاولوا سَبْرَ غوْرهَا، ومَعْرفة جَوهَرها وطبيعتها، ودِراسة جَوانبها المختلفة، وكل ينسبُ الفضل في ذلك له، ويدَّعي السَّبْقَ إليه.

إن اللغة –كما يقول اللغوي الفرنسي "ج. فندريس" ***Joseph Vendryes*** (1875–1960م)– " مُعَقدة ***complexe*** فهي تمَسّ فُروعا معرفية مختلفة، وتُعنى بها طوائف متفرقة من العلماء. فهي فِعلٌ فسيولوجي (مادي) ***acte physiologique*** من حيث إنها تَدفع إلى العمل عددا من أعضاء الجسم الإنساني. وهي فعل نفساني ***acte psychologique*** من حيث إنها تَستلزم نشاطا إراديا للعقل. وهي فِعل اجتماعي ***acte social*** من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني الإنسان. ثم هي في النهاية حقيقة تاريخية **fait *historique*** لا مِراءَ فيها، نعثرُ عليها في صُور متباينة وفي عصور بعيدة الاختلاف، على سَطح المَعمورة قاطِبَة. ومن ثَمّ كان لنا أنْ نتصورَ دراسة للغة يقوم بها: عالمٌ من علماء وظائفِ الأعضاء ***physiologiste***، فيصنفُ الطرائقَ التي تؤدي بها أعضاء الكلام وظيفتها، أو عالمٌ من علماء النَّفس فيحلل حركةَ التفكير مُهتديا بنتائج عِلم الأمراض العقلية ***pathologie mentale***، أو عالمٌ من علماء الاجتماع فيُظهر لنا أثَرَ التنظيم الاجتماعي في تطوير اللغات، أو مؤرخ فيُصنفُ اللغاتِ في أُسَرٍ، ويحددُ توزيعَها الجغرافي. كل واحد من هؤلاء العلماء يَستطيعُ

أن يكتبَ كتاباً يَدخلُ في علم اللغة، ولو أن نقطةَ البدء التي صَدَرَ عنها توجدُ خارجَ هذا العلم، والنتائجُ التي يصل إليها تخرج من حُدوده" . [5]

وفي المباحثِ التالية من هذا الفصل سنُلقي بَعضَ الضوء –بعون الله وتوفيقه– على جهود طوائفَ من دارسي اللغة –قديماً وحديثاً– مُسترشدين بما دوّنوه عبرَ امتداد القُرون حولَ مُشكِل اللغة، وقَضاياها المتشعّبة التي شغلَتْ عقولَ الناسَ، وملأتْ مُنتَدياتهم حِواراً وسِجالاً، وألهمتْ عقولَهم أفكاراً ونظرياتٍ كثيرةً ومتنوعة.

## اللغةُ والعلوم الإنسانية

### أولاً: مُشكِلُ اللغةِ عندَ الفلاسِفَةِ وعلاقتُها بالفِكْر

#### مفهوم اللغة عند فلاسفة اليونان

الفلسفة كلمة يونانية مركبة من "فيلو" و"سوفيا" *Philo-sophia* ومعناها: محبةُ الحِكمة أو طلب المعرفة. وتُعرف بأنها: محاولةُ الإجابة عن الأسئلة الأساسية التي تُطرح عن الوجودِ والكون. وكانت الفلسفةُ تطلق قديماً على المبادئ الأولى وتفسير المعرفة عقلياً، فتشمل عند "أرسطو" الفلسفة النظرية والعملية. وقصَرها "الرّواقيون" *Stoïcisme* (أتباع الفيلسوف الاغريقي زينون *Zénon* 334 ق م) علىَ المنطق والأخلاق والطبيعة، فالرواقيون يَدعون إلى التناغم مع الطبيعة، والصبر على المشاق، والأخذ بأهداب الفضيلة لأنها إرادة الله. وشبه "رنيه ديكارت" (1596–1650م) *René Descartes* الفلسفة بشجرة جذورها "الميتافيزيقا"، ومن هذه الجذور انبثقت فروعٌ شتى (هي مبادئ الفلسفة) . فيدخل في الفلسفة عنده علم الله وعلم الطبيعة

5 "اللغة، مَدخل لساني إلى التّاريخ"، ص/24–25، *Langage, introduction linguistique à l'histoire* تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950 م.

وعلم الإنسان، لكن دِعامتها هي الفكر المُدرك لذاته، والذي هو في ذاته مُدرك الموجود الكامل (اللهُ مَنبع كل وجود، والضامن لكلِ حقيقة). ومنذ القرن التّاسع عشر بدأت العلومُ تَستقل عن الفلسفة شيئًا فشيئًا حتى غدتْ تقتصرُ اليومَ على الأخلاق والمنطق وعلم الجمال وما بعد الطبيعة وتاريخ الفلسفة.[6]

غير أن الفلسفة اهتمتْ أيضاً –عبر تاريخها الطويل– باللغة؛ حيث اتخذتْها موضوعاً للنظرِ الفلسفي، وعُنيتْ بالكشف عن الأسرار التي تكتنفُها وتجعلها لُغزاً مُحيّرا أحياناً. وكان لفلاسفة اليونان قَصَبُ السبقِ في البحث عن ماهيّة اللغة البشريَّة ومَعرفة جَوهرها.

فأفلاطون (427–347 ق.م)[7] تحدث عن اللغة في: «محاورة كراتيليوس»، التي عَقدها لبيان أصلِ اللغةِ والأسماء –بحضور أستاذه سُقراط– وجرتْ بين كراتيليوس

---

6 شَهدت الفلسفةُ تطوراتٍ عديدة، فمن الإغريق الذين أسّسوا قواعد الفلسفة الأساسية كعلم يحاول بناء نظرة شموليّة للكون ضمن إطار النظرة الواقعية، إلى الفلاسفة المسلمين الذين حوّلوا الفلسفة الواقعية إلى فلسفة كلامية، إلى فلسفة العلم والتجربة في عصر النهضة الاوروبية، ثم الفلسفات الوجودية والإنسانية ومذاهب الحداثة وما بعد الحداثة والنفعية والعبثيّة أو اللامعقول والعَدمية... وقد أثّرت هذه الاتجاهات في الفكر البشري تأثيرا كبيراً، بحيث غزت كل الميادين تقريباً.

انظر مزيدا من التفصيل حول هذا الموضوع في:

–"المعجم الفلسفي"، ص/183 وما بعدها، نشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 1983م.

– و"المعجم الفلسفي"، 2/ 160، د. جميل صليبا، دار الكتّاب اللبناني، بيروت، سنة 1982م.

– "مبادئ الفلسفة" أ.س. رابوبرت، ***Principles of Philosophy – A. S. Rapoport*** (تمهيد في معنى الفلسفة وفروعها) ص/15، ترجمة: أحمد أمين". مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة بالقاهرة.

– "مبادئ الفلسفة" رينيه ديكارت، تعريب: د/ عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع..

7 فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضي، مؤسس أكاديمية أثينا وتعد أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه "سُقراط" وتلميذه "أرسطو". واضع الأُسُس الأولى للفلسفة الغربية وللعلوم، وظهر أسلوبه

*Cratyle* الذي يمثّل أصحابَ "النظريّة التواطُئيّة" أو المواضَعة القائلينَ بأن الأسماء يُطلقها الناسُ على الأشياء بالتواضُع عليها . وبين "هرموجين" *Hermogéne* الذي يمثّل أصحابَ "النّظرِية التّوقيفية" لأصل اللّغة البشرية، القائلين بأن الأسماء وضَعتها قوةٌ إلهية، وأن معرفة الاسم تقودُ إلى معرفة المسمَّى.

ويجتهدُ أفلاطون في التوفيقِ بين الموقفين، فهو يَقبلُ بوجود أمر إلهي في تسمية الأشياء بأسمائِها على ألا يزيد ذلكَ عن مستوى مشابهة الأسماء لمسمياتها، ثم يُسلم بوجود جهد الإنسان في هذا الميدان، ودليلهُ وقوع الخطأ في لغته، لإمكان إطلاق الاسم الواحِد على الشيء وضده.

وهذه المحاورة –عكسٍ محاورات أفلاطون التي يغلبُ عليها المضمون الأخلاقي– جعلَها في مجملها خالصةً للغة وفلسفتها . وكان أفلاطون أولَ الفلاسفة القدماء الذين وَعوا خطورةَ هذه المُعضلة وأول من رَغِبوا في معالجتها بدقة. . . فعمله يُعدُّ رائداً في مجال فلسفة اللغة . [8]

ونعلم أنه وقعَ الخلافُ نفسُهُ في أصل اللغة البشرية بين العلماء والفلاسفة المسلمين كما سنرى. أما أرسطو (322-384 ق.م) تلميذ أفلاطون، فيرى في كتابه "الأُرغانون" *Organon* [9] أنّ الإنسان حيوان ناطق، أي مَنطقي في تفكيره باستعمال اللغة، لأن

---

في محاوراته السقراطية (نحو 30 محاورة) وتتناول مواضيع مختلفة: نظرية المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزيقا، الأخلاق والسياسة.

8 "محاورة كراتيليوس" لأفلاطون، ص/11، ترجمة: عزمي طه أحمد، الأردن، ط/1 1995م.

9 أَرِسْطُوطَالِيس: فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من كبار المفكرين الغربيين، تُغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

الفكر لا يظهر إلا في لباس لغوي، أما الفكر الذي يبقى في رأسِ صاحبه فلا قيمةَ له.[10]

وتحدث عن اللغة ومنزلتها وأصلها في كثير من مؤلفاته: ك"الخطابة" «*La rhétorique*»، الذي ترجمه إلى العربية الطبيبُ إسحاقُ بن حُنين (215-298 هـ)، وتناوله بالشرح والتّلخيص الفلاسفةُ المسلمون مثل أبي نصر الفارابي (260/ 339 هـ) وأبي علي ابن سينا (ت/429 هـ) وأبي الوليد ابن رُشد (ت/595 هـ). وفعلوا الشيء نفسه بِكتابيه: "الشعر" (*La Poétique*) و"العِبارة" (*De l'interprétation*).

واللغةُ عند أرسطو نشأَتْ نتيجةَ الاجتماع البشري، وهي دلائل تشيرُ إلى ما يجول بداخل الانسان من أفكار وانفعالات نفسيّة. فألُفاظ اللغة ليستْ متشابهةً عند جميع البشر -وكذلك الكتّابة- بل مختلفة من لغة إلى أخرى. والكلمة المُفردة لا توصف بالصدق أو الكذب حتى تركّب في كلام صحيح. أما المعاني النفسية فهي واحدةٌ بعينها للجميع.[11]

📖

---

و"الأورغانون" هي مجموعة كتب أرسطو في المنطق. وهي كلمة إغريقية تعني "الآلة". وهذه الكتب هي: إيساغوجي أو المدخل (وضعه فرفوريوس ليكون مدخلاً لتوضيح كلام أرسطو). والمقولات العشر (الجوهر. الكم. الكيف. المكان. الزمان. الإضافة. الوضع. المِلك. الفعل. الانفعال). والعبارة. والبرهان. والجدل. والسفسطة. والخطابة. والشعر.

10 "الفلسفة وقضايا اللغة"، ص/32، بشير خليفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1/ 2010م.

11 "تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة"، ص/12-13، لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق: د. محمد سليم سالم، الهيئّة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1978م.

## دراسةُ أَصواتِ اللغةِ عند الفَلاسفَة المُسلمين

علمُ الأَصوات *La phonétique* علمٌ جَديد قديم، فهو قديمٌ لأنّه أحدُ العلوم التي تقُوم عليها كل اللغات. وهو جديد لأنه أحد فروع "علم اللغة" *Science du Langage* أو "اللسانيات" *La linguistique* بمفهومها الحديث. يقولُ المستشرقُ الألماني "برجشتراسر" *Gotthelf Bergsträsser* (1886-1932) وهو يتحدث عن أصوات اللغة: " . . ولم يسبقِ الغربيينَ في البحث الصوتي إلاّ قومان من أقوام الشّرق وهما الهنود–وهم البراهمة– والعَرب. وأُول مَن وَضع أُصولَ هذا العلم من العربِ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت/170هـ)، وقد كان علمُ الأصوات في بدايته جزءاً من أجزاء النحو، ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون وزادوا فيه تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم" . [12]

ومن أبرز المواضيع التي حاولَ الفلاسفةُ المسلمونِ الوقوف عليها الدراسةُ الطبيعية (الفيزيائية)، للظاهرة الصوتية، ورَصْدُها رَصدا يهيئُ لهم الوقوفَ على الكثير مِن حقَائقها، ومحاولةَ تفسيرها، وجعلها مُنطلقاً لدراسةِ عِلمِ الأَصْوات.

### أبو يوسف الكِنْدي والإحْصاءُ اللغوي

وردت كلمة "الإحصاء" ومشتقاتها في القرآن الكريم، كما وردت في السنة النبوية في أحاديث عديدة. وهكذا ظهرت نشأةُ الإحصاء اللغوي منذ الصدر الأول عند

---

12 "التطوّر النحوي للغة العربية"، ص 11، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ط/2 1994م.



برجشتراسر (1886 – 1933م) مستشرق ألماني، تعلم في جامعة" ليبتسك" *Leipzig* الفلسفة وعلم اللغة والفيلولوجيا الكلاسيكية (اليونانية، واللاتينية). ثم تفرّغ لدراسات اللغات السامية، وكان أستاذه فيها المستشرق الكبير "فيشر" *August Fischer*، وعُني بدراسة اللهجات العربية، وبقراءات القرآن. حاضر في جامعة القاهرة، وجمعت محاضراته في "أصول نقد النصوص ونشر الكتب".

العلماء المُسلمين الذين عُنوا بالقرآن الكريم، فأحصوا حروفَه وكلماتِه وآياتِه وسوَرَه، مُستعينين بما رأوه مُناسباً في ضَبط حِسابهم آنذاك، وانتهوا إلى مَعرفة دوران الحروف فيه ومَراتبها . . . وعُني أصحابُ المعاجم بحساب مَبْلَغ ما يرتفع مِن أبنية كلام العرب: الثنائية والثلاثية والرباعية . . [13]

الإحصاء في معاجم اللغة مأخوذ من أَحْصَى الشَّيءَ إذا عدَّه وأحاطَ به، وحصره وضبطه. أمَا في الاصطلاح فقد جاء في "مسوعة لالاند الفلسفية" *Vocabulaire technique et critique de la philosophie; André Lalande* (1336/3)، بمعنيين: أحدهما: جوهرياً يقصد بالإحصاء -كما يدل على ذلك علم الاشتقاق- مجموعة الوقائع التي يؤدي إليها اجتماع البشر في مجتمعات سياسية. وثانيهما: الإحصاء هو العلم الذي يكون موضوعه جمع وتنسيق وقائع كثيرة في كل صنف، بحيث يمكن الحصول على نسب عددية مستقلة استقلالا ملموسا عن المصادفة واستثناءاتها، ودالة على وجود العلل المنتظمة التي اندغم فعلها بوجود العلل الفجائيّة.

أما إحصاءُ دَوران الحروفِ أو تواتُرها في نصوص مَكتوبة، ومعرفةُ مَراتبها تبعاً لاستعمالها في النص، فوُجد لدى أعلام التعمِية [14] دون غيرهم، لأهمية ذلك في

---

[13] "إسهامات علماء التعمية في اللسانيات العربية"، ص/1، د. يحيى مير عَلَم.

التعمية cryptology واستخراج المُعَمَّى cryptanalysis، أو ما يعرف بالشيفرة cipher وكسر الشيفرة decipher، علمٌ يختص بالاتصالات السرية، ويعنى بمسألتين متعارضتين، أولاهما: أَمْن التراسل بتحويل نص واضح إلى آخر مُعمّى cryptogram بطريقة محددة لا يعرفها إلا من هو مخوَّل بفك التعمية decrypt وفهم النص، وذلك لمنع أي مُستَرق eavesdropper من الاطلاع على مضمونه. وثانيتهما: اعتراض المراسلات واستخراج المعلومة المعمَّاة من مُستَرق لا يملك مفتاحها وتحويلها إلى نص مفهوم. وهذا السّجال بين المُعَمَّى والمستخرَج قائم منذ مهد الحضارة، وتنبعُ أهميته من كونه أفضل مَصدر للمعلومات الاستخباَراتية السرية. (بتصرف من "الموسوعة العربية").

استخراج المُعمَّى من النص. ولعل أولَ إحصاء من هذا النوع في تاريخ الدراسات الكمّيّة اللسانية في العربية كان إحصاءَ فيلسوفِ العرب الكِنْدي (185– 260 هـ) [15] في رسالته "استِخراجُ المُعمَّى"، فقد تحدث في صَدرها عن مراتب الحروف في الاستعمال، وضرورة مَعرفتها لاستنباط المُعمَّى، وأنها تختلف من لسان لآخر، ثم ذكر مَراتبها وفق إحصائيةٍ قامَ بها بنفسه، قال: ". . .فلْنَذكر الآن مراتبَ الحروف في الكثرة والقِلّة في اللسان العربي، فنقول: إنّ الألف أكثرُ ما استُعمل في اللسان العربي من الحروف. ثم اللام ثم الميم ثم الهاء ثم الواو. . . ثم الظاء".

## ائتلافُ الحروفِ وتنافُرُها في نَسْج الكلمةِ العربية

سبقَ الأقدمون من علماء العربية إلى دراسة أحكام نَسج الكلمة العربية، وذكروا قدرا متفاوتاً من قوانين اقتران الحروف وتنافرها في الثنائيات، وأرجعوا عِلّة ائتلاف الحروفِ أو اقترانها أو مَزجها إلى تباعُد مخارج الحروف، وعلّة تنافر الحروف إلى قُرب مخارجها، فالأُولى تجعل التّأليفَ حسناً، والثانية تجعله قبيحاً أو ممتنعاً . . .

ويُعَدُّ الكنديُّ أسبقَ أهل التّعْمية في ذلك وأكثَرَهم استقصاءً، فقد شرح في رسالته القواعدَ الأساسية في تحديد ما يَقترن من الحروف وما لا يَقترن، فقسمَ الحروفَ إلى أصلية (ستة عشر) ومتغيرة زائدة (اثنا عشر)، ثم بيّنَ أن قوانينَ التنافرُ مَقصورةٌ على

---

ولمزيد من التفصيل حول هذا العلم في العربية ينظر: "علم التَّعمية واستخراج المُعمَّى عند العرب"، الدكتور محمد مراياتي– محمد حسان الطيان – يحيى مير علم، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1987 م.

15 أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، برع في الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات والموسيقى وعلم النفس والمنطق. كان والده واليًا على الكوفة، حيث تلقى علومه الأولى، ثم انتقل إلى بغداد، وحظي بعناية الخليفتين المأمون والمعتصم، وجعله المأمون مشرفًا على بيت الحكمة. ويعد أول الفلاسفة المتجولين المسلمين، كما اشتهر بجهوده في تعريف العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانية القديمة. . وله مؤلفات كثيرة. .

الحروف الأصلية مع السين من المتغيرة، واستعرضها حَرفاً حَرفاً على الترتيب الهجائي، فذكرَ مع كل حرفٍ ما لا يقارنه من الحروف، فاجتمع له من حالات التنافر أو قوانينه أربعٌ وتسعونَ حالة. . . [16]

أما الفيلسوفُ أبو نَصر الفارابي (259- 339 هـ) [17] فيقول: [18]

«وعلمُ قوانين الألفاظِ المُفرَدة يفحص أولًا في الحروف المُعجمة عن عددها، ومِن أين خرج كل واحدٍ منها في آلات التصويت، وعن المصوّت منها وغيرِ المُصوّت، وعَمّا يتركب منها في ذلك اللسان، وعما لا يتركب، وعن أقَل ما يَتَركبُ منها حتى حدثَ عنها لفظةٌ دالة، وكم أكثر ما يتركب، وعن الحروف الذاتية التي لا تُتبدل في بنية اللفظ عند لَواحِق الألفاظ: من تثنية وجمع وتذكير وتأنيث واشتقاق وغير ذلك. وعن

---

16 المرجع السابق، ص/ 10. ولمعرفة المزيد عن النظريات الصوتية، يراجع: "الأصوات اللغوية" للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر. ويفرق الدكتور أنيس بين عِلمين للأصوات: "الفونتيك" ***Phonétique*** الذي يُعنى بالأصوات الإنسانية شرحا وتحليلا، ويجري عليها التجارب دون نظر إلى اللغات التي تنتمي اليها، والى أثر تلك الأصوات في اللغة من الناحية العملية. وبين "الفونولوجيا" ***Phonologie*** الذي يعنى بأثر الصوت اللغوي في تركيب الكلام نحوه وصرفه. . . ويُقر الدكتور أنيس بصعوبة التفريق أحياناً بين العلمين لتشعب مباحثهما وتداخله!

17 هو محمد بن محمد بن طرخان: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. وعُرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) له نحو مئة كتاب، منها (الفصوص) و (آراء أهل المدينة الفاضلة) و (الموسيقى الكبير) وو (السياسة المدنية) و (النواميس) و (الخطابة) و (وما ينبغي أن يتقدم الفلسفة). .

18 "إحصاء العلوم"، لأبي نصر الفارابي، ص/ 20، قدم له وشرحه وبوبه: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الاولى، 1996م. والكتاب سماه صاحبه في المقدمة "مراتب العلوم"، ويحصي فيه العلوم المعروفة في عصره، وجعلها في خمسة فصول: تندرج تحتها 13 علماً، بدأها بعلم اللسان، ثم المنطق. . . وختمها بعلميْ الفقه والكلام.

الحروف التي بها تُقاس الألفاظُ عند اللواحق، وعن الحروف التي تَدغِم عندما تتلاقى..».

وأما أبو علي ابن سينا (370/ 428 هـ) [19] فدَرس الصوتَ في رسالته: "أسباب حدوث الحروف" وأربى على أستاذه الفارابي في هذا الفن. قال المحققان عن رسالته: "وهي أفضلُ ما أُلف في بابها، إذ رُسمَتْ بقلم طبيب عالم عايَنَ دقائقَ جهازِ النطق، وشرحها بِمِبْضعه، فتأتّى له أن يكشفَ عن أسباب حدوث الحروف، ويصفَ مَخارجها على نحو عجيب ما نظن أحداً من المتقدمين بلغ شأْوَه في هذا، يفسر ذلك اهتمام الناس منذ القديم بالرسالة وكثرة نُسخها الخطية في مكتبات العالم". [20]

ويمكن القولُ في الختام إن الفلاسفةَ المسلمينَ في دراستهم الصَّوتياتِ العربيةَ، كانت لهم مصطلحاتهم الخاصة التي تناسبُ طبيعة تفكيرهم، بالرغم من استفادتهم من فَلسفةِ اليونان ودراساتِ النُّحاة واللغويينَ العرب في مجال الصَّوتيات، كما اتبعوا مَنهجاً يخلطُ بين الدراسة المِعيارية والوَصفية، حيث لجأوا إلى الوَصف عند تفسيرهم كيفية السمْع، فاعتمدوا على الملحوظة الذاتية في رَصد الظواهر الطبيعية، وحاولوا البَرْهَنة على صحة ما توصلوا إليه، مقتنعين بمقولة: "أنّ لكل مَعلولِ عِلّةً تُحْدِثه"، فلكلِ شيءٍ سببٌ ولِكل سَبب غاية. واستخدموا الدراسة المعياريةً التي تستند الى أساسين هما: التعليل والتقنين في حديثهم عن حِدَّة الصوت وثقله، فحدته سببه قُرب التموُّج من مصدر الصوت، وثقله يَنجم عن بُعده [21]

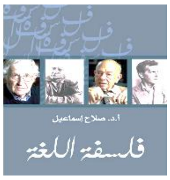
---

19 عالم ومفكر اشتهرَ بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ألّف مائتي كتاب في مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب. وأشهرُ أعماله كتاب "القانون في الطبّ"، ظل مرجعا في العالم لسبعة قرون..

20 "أسباب حدوث الحروف"، ص/19، ت. محمد الطيان ويحي مير علم، مجمع اللغة العربية بدمشق.

21 "المدارس الصوتية عند العرب: النشأة والتطور"، ص/120، علاء جبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2006م.

# اللغةُ والفلسفةُ في العَصرِ الحاضِرِ



كانت اللغةُ مَحَطَّ اهتمام الفلاسفة منذ قرون عديدة كما رأينا، غير أنها لم تصبح موضوعاً مركزياً في الفلسفة إلّا في القرن العشرين، حيث أضحَتْ مِحورا للبحث والدرس في الأدبيات الفلسفية المعاصرة بوَصفها هَدفًا في حَدّ ذاته ووسيلةً لفَضّ المشكلات الفلسفية.

لقد توجهت الفلسفةُ في القرن العشرين نحو اللغة، بل أصبحت فلسفةً لغويةً، وخاصة مع ظهور عبارة "المنعطف اللغوي"، *The linguistic turn*، وأولُ من استعمله الفيلسوف الوَضعي الأمريكي (النمساوي الأصل) غوستاف برغمان (1906–1987م) Gustav *Bergmann* سنة 1953م، ثم انتشر هذا التيار عندما نشرٍ الأمريكي ريرتشارد رورتي (1931–2007م) *Richard Rorty* سنة 1967م نصوصا تحمل اسم المنعطف اللغوي أو اللساني. على أن الأمر لا يقتصر على الفلسفة التحليلية أو الأنكلوسكسونية –كما هو شائع– وإنما أصاب كذلك الفلسفة الأوروبية القارية بتياراتها التحليلية والبنيوية. وعليه فإن التحول نحو اللغة واتخاذها موضوعاً للفلسفة لم يأخذ صيغةً واحدة. [22]

وقد زاد الاهتمام باللغة ودراستها في العقود الأخيرة، وكأننا اكتشفنا لأول مرة لغتَنا التي طوَّرها الإنسان ليُقيم صِلاته مع غيرِه من الأفراد، وكان يَظنها شفّافةً لا تُعيق الرؤية مِن خلالها، وفجأةً انتهت شفافيتُها، واكتشفَ أن "عمليةَ التواصل" التي تتمُّ

22 "الفلسفة اللغوية: نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة"، ص/7، د. الزواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2005م.

بواسطتها تحتاج إلى مُراجعة، فلم تعد اللغةُ على ما كنا نعتقده فيها من وضوح وسهولة، بل أصبَحتْ على صورة من الارتباك بَدتْ معها مشكلةً مِن أعقد مشكلات الفلسفة المعاصرة. [23]

وهناك أسبابٌ ربما زادتْ من أهمية دراسة اللغة في الفلسفة في هذا العصر، منها:

أولاً- النظرُ الى اللغة كمستودع ضَخم من الأصناف ***catégories*** والمفاهيم ***concepts*** التي بدونها يُصبح التفكير المعمَّق مستحيلاً. فالنظرة الشائعة القديمة الى اللغة بأنها مجرد أداة تعبير عن الفكر لِم تعد مقبولةً اليوم. فلو عُرِّفت الفلسفة بأنها "تحليل المفاهيم" لتبيّن أنها تستطيع فعل ذلك عن طريق التركيز علَى كيفية استخدام الكلمات المعبّرة عن الأفكار.

ثانياً: يعتبر اسَتعمال اللغة من أكثر أنماط السلوك التي يُظهرها الإنسان تعقيداً وبراعةً، ولذا تمنحنا الكثير من المفاتيح -ليس لمعرفة كيفية عَمل العقل- بل عن العقلانية وغيرِها من المواضيع الفلسفية الأساسية.

ثالثًا: علم اللغة أو "اللسانيات" ***La linguistique*** يزوّد التفكير الفلسفي بكَمّ هائل من المواضيع، لكن يصعب أحياناً التمييز بين المجالات التي تدخل ضمن الدراسات الفلسفية وبين تلك الخاصة بميادينِ اللسانيات.

رابعاً: يمكن دراسة اللغة فَلسفيا من عدة أوجه. ولعل أهمَّ مفهوم في فلسفة اللغة هو "مفهوم المعنى". وهناك أبحاث تتقاسمها الفلسفة واللغة وهي: النحو ***La syntaxe*** الذي يدرس علاقة الرموز اللغوية مع بعضها وبِنية الجملة؛ وعلم الدلالة [24] ***La***

23 "فلسفة اللغة"، د. محمد مهران رشوان، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة 2012م.

24 ينظر لمزيد من التفصيل حول الدلالة بمفهومها الشامل:

-"علم الدلالة": بيير جيرو، ترجمة الأستاذ مُنذر عياشي، دار طلاس، دمشق، سوريا، سنة 1988م.

*sémantique* الذي يدرس علاقةَ الرموز اللغوية بالواقعِ، وعلم المقامية أو الذرائع أو التّداوليات *La pragmatique*، الذي يدرس العلاقة بين العلامات اللسانية وبين مستخدميها . [25]

ومن القضايا التي عالجها بعض الفلاسفة التحليليين المعاصرين:

-"نظرية المعنى والإشارة" عند الألماني فِتجنشتين (1889-1950) *Ludwig Wittgenstein* في كتابه: " *Tractatus logico-philosophicus* " . وهو مؤلَّف يرسِمُ فيه صاحبه حدوداً للمعنى، أي فَصلَ بين ما يمكن أن يقال وبين ما لا يمكن قولُه. فهناك حدود للتعبير عن الأفكار، ولا توجدُ أفكارٌ خالية عن المعنى في حد

-"علم الدلالة"، د . أحمد مختار عمر: عالم الكتب، بيروت ط2/ ١٩٨٨. و"علم الدلالة عند العرب دراسة: مقارنة مع السيمياء الحديثة"، عادل فاخوري، دار الطليعة – بيروت ط1 – 1994م.

[25] منذ بزوغ فجر اللسانيات علي يد "دي سوسير" *Ferdinand de Saussure* [1857 – 1913] وهي تحاول تحليل مكونات اللغة، وتقديم نموذج لتحليل الخطاب وعناصره مثلما نجد في أعمال هاريس *Zellig Harris* (ت/1992) وبنفينست *Emile Benveniste* ، وتشومسكي *Noam Chomsky* من تناولات تحليلية لمستوايات القول، من أصغر وحدة: المفردة إلى أكبر وحدة: الخطاب. وذلك بالاعتماد على إجراءات (اللسانيات الوصفية) بهدف اكتشاف بنية النص *structure of text* ومن ثم الاعتماد على دراسة العلاقات التوزيعية بين الجمل من ناحية، ثم ربط اللغة بسياق الموقف الاجتماعي من ناحية أخرى، وهذا الاتجاه في التحليل اللساني تمثله اللسانيات الاجتماعية و"التداولية" *La pragmatique* ، التي تهتم بدراسة الاستعمال اللغوي، و الضوابط التي تحكم هذا الاستخدام، ودور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل الإنساني، وتهتم كذلك بالمتكلم والسامع والعلاقة بينهما، وما يرافق الكلام من حركات الجسم، وتعبيرات الوجه ومن يشاركون في الاتصال اللغوي، وبيئة الحدث، وقدرة السامع على فهم مقاصد المتكلم، ومدى استجابته لهذه المقاصد وما يتطلبه التواصل من معان مقامية. . . لكن سرعان ما تحول الأمر إلى دراسة لسانيات النص، أو اللسانيات النصية *Texual linguistcs* التي تتخذ من النص محورا للتحليل اللساني، يبدأ منه وينتهي به.

ذاتها، بل بعض الأفكار لا يمكن التعبير عنها، لوجود معايير تجعل من "خطابٍ ما" ذا معنى، وآخر يجب ألا يقال (نلتزم فيه الصمت).

– و"نظرية الأوصاف" *Theory of Descriptions* عند شيخ الفلاسفة التحليليين "بِرتراند رَسل" **Bertrand Russell** *(1872-1970)* وهي نظرية تُعدّ مَثلاً للتحليل اللغويِ المعاصر، و"راسل" ينظر إلى اللغة على أنها موضوعُ الفلسفة المفضّل كما سنرى بُعَيد قليل..

– و"مفهوم التحليل العلاجي" عند مدرسة **Cambridge** "كمبردج" *analytical school of philosophy* (تأسست سنة 1970م) وهو تحليل قائم أساساً على التحليل اللغوي، ومفهوم اللغة العادية عند مدرسة "أكسفورد" *Oxford*. والمدرستان الأخيرتان انحدرتا من فلسفة فِتجنشتين *L. Wittgenstein (1889-1950)* اللغوية، كما تأثرتا بفلسفة البريطاني جورج إدوارد مور *G. E. Moore ( 1958-1873 )* الذي دافع عن نظريات الفِطرة السليمة، وشجع على دراسة اللغة العادية أداةً للفلسفة، حينما كتب مقالته المعنونة ب"رفض المثالية" *(Refutation idealism)* عام 1903م، حيث نقد المثالية الجديدة ومثالية الألماني "هيجل" *Georg W. F. Hegel* (1831- 1770) المتمثلة في فلسفة البريطاني "جرين" *Thomas Hill Green (1836 –1882)* وتلميذه "برادلي" *Francis Herbert Bradley* (1846-1924م). والمدرستان السابقتان تقتسمان اليوم الاهتمام الفلسفي في العالم "الأنجلو سكسوني" وتعبران عن الصورة الحالية للفلسفة المعاصرة، ونظرية السياق في الفلسفة التحليلية وتطورها عند الألماني "غوتلوب فريجه" *Gottlob Frege (1848)* والإنجليزي "فيرث". [26]

---

26 الفكر الإنجليزي –في مجال فلسفة اللغة– يتمتع بخصوبة مردّها تعدد مشاربه المعرفية، وتنوع روافده الفكرية، و الفضل في ذلك يعود إلى الجهود العلمية التي بذلها باحثون مشهورون أغنوه بتخصصاتهم المختلفة،

# نَظرية " جون فيرث" عن المعنى ووظيفَته

يمكن تلخيصُ نظرية "جون فيرث"*( John R. Firth ( 1890 -1960* [27] في كونها تنظر إلى المعنى على أنه "وظيفةٌ في سياق"، وهو ما عُدَّ تحولاً في النظر إلى المعنى، بعدَ أن كان يوصف بأنه "علاقة بين اللفظ وبين ما يحيل عليه في الخارج أو في الذهن من حقائق وأحداث"، تلك النظرة التي كانت سائدة في الفلسفة الغربية التقليدية المنحدرة من الفلسفة اليونانية. وربما كان قارئ الفكر الفلسفي والمنطقي والأصولي في تراث العربية قد أَلِف هذه النظرة العقلية للمعنى، وهي النظرة نفسها التي شرحها البريطانيان: "أوكدن" *Charles Kay Ogden (1889-1957)*، وريتشاردز *Ivor*

---

وأضفوا عليه مُسحة من الجدة؛ نذكر من بينهم: "جون أوستن" *J.L. Austin* و "ج.ر.سيرل" *J.R. Searle* و"شارل موريس" *C. Morris* في التداولية و فلسفة اللغة، و"مايكل هاليداي" *M. Halliday* في لسانيات النص و تحليل الخطاب، و "جون فيرث" *John R. Firth* في علم الدلالة، و "جون لاينز" *J. Lyons* في علم الدلالة وفي اللسانيات، و "مالينوفسكي" *Bronisław Malinowski* في اللسانيات الاجتماعية وفي الأنثروبولوجيا، و "فتجنشتين" في فلسفة اللغة و في المنطق، و "دانيال جونز" في الفونولوجيا، و "ستيفن أولمان" *Stephen Ullmann* في الأسلوبية إلخ. . . .

(بتصرف من: " علم الدلالة اللغوي عند جون لاينز وملامحه في الدرس الدلالي العربي القديم- دراسة وصفية تحليلية"، مليكة بلقاسمي، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص/7. )

وانظر تفصيل هذه النظريات وأصحابها في:

- "فلسفة اللغة"، د. مهران رشوان و د. عصام جميل، الطبعة الأولى سنة 2012م.
- "في فلسفة اللغة"، د. محمود فهمي زيدان"، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1985م.

27  لغوي بريطاني من الشخصيات البارزة في اللسانيات خلال الخمسينات. كان "أستاذ اللغة الإنجليزية" في جامعة البنجاب 1919-1928 . ثم عمل في قسم الصوتيات في "جامعة لندن" قبل أن ينتقل إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، حيث أصبح "أستاذ اللسانيات العامة"، حتى تقاعده 1956.

*Armstrong Richards (1893- 1979)* في كتابهما "مَعنى المعنى" *The Meaning of Meaning*، وطوّراها فيما عُرف ب"المثلث الدلالي" . [28]

يرى "فيرث" أن الوقت حانَ للتخّلي عن البحث في المعنى بوصفه عمليات ذهنية كامنة، والنظر إليه على أنه "مُركَب مِن العلاقات السياقية" . وذهب إلى أن الوظيفة الدلالية لا تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي مُعينَ؛ أي بعد أن تخرج من خانة الوجود الوضعي (الكامن في العقل) إلى حيّز الوجود الاستعمالي الفعلي، وهو أمر لا يتحقق –حسب رأيه– إلا في سياق الموقف. و اقتبس "نظرية سياق الموقف" *Theory of context of situation* هذه من العالم الإناسي *(Anthropologiste)* البولوني "برونسلاف مالينوفسكي" *Bronisław Malinowski* (1884م–1942م) .

وهكذا بدلاً من الحديث عن العلاقة الثنائية بين اللفظ وبين المعنى، صارَ الحديثُ في "المدرسة السّياقيّة" عن مُركب من اللفظ والمعنى في علاقته بغيره من المركبات التي يمكن أن تحُلَّ محله في السياق نفسه. وبرز ما يسميه فيرث ب"التوزيع السياقي" *Contextual Distribution* المحكوم بمنهج الإبدال *Method of Substitution* الذي يقتضي أن الكلمة –مثلا– ما هي إلا مقابل إبدال معجمي *Lexical substitution*

---

28 وكتابهما هذا يُعدّ عملاً مُؤسساً للبحوث اللغوية وفلسفة اللغة، نُشر مصحوباً بكتابات *Malinowski* و *Crookshank*، ونشر مرات عدة، كما كان له تأثير كبير في الدراسات اللغوية في وقته. و الكتابُ يقدم عِلماً للرمزية *Science du Symbolisme* ، مؤداها وجود علاقةٍ سببية بين "الشيء" و بين "التفكير"، والتي يظل فيها المرجع والرمزِ في علاقة غير مباشرة، الأمر الذي يتطلب وجود شخص يحدد للرمز دورَ المرجع. ويتضمن هذا المؤلَف ما سُمّي "مُثلث العلاقات" (أو الدلالات) بين المرجع والرمز والتفكير. وهو تصور عَملي "براغماتي" للغة ألهَم الكثيرَ من النقد والتطورات المثمرة. و"الرمزية هي دراسة تأثير اللغة وجميع أنواع الرموز في التفكير" .

لكلمات أخرى يمكن أن تحل محلها في السياق ذاته، ويتحدد معناها بمقدار ما يُحدثه هذا المعنى من تغيير.

وعلى المستوى الصوتي تجاوز فيرث النظرة النفسية للصَّيِّتة ***phonème*** (أصغر وحدة لغوية) التي صاغها "بودوان دي كورتيني" ***Baudouin De Courtenay*** (1845–1929)، وكان ينظر بمقتضاها إلى الصيتة على أنها "صورة عقلية" أو "صوت مفرد مجرد"، وأصبحت الصيتة تتحدد "بدراسة الصوت في علاقته بالسياقات الأصواتية التي يظهر فيها، وفي علاقته بالأصوات الأخرى التي يمكن أن تحل محله في تلك السياقات".

وعلى الرغم من أهمية التغيير الذي جاء به فيرث في البحث اللساني عامة، وفي تفسير المعنى خاصة؛ فإن مشكلته أنه لم يَعرض نظريته عرضاً شاملاً يُبرز فيه الأُسسَ الفلسفية والمعرفية لأفكاره السياقية؛ إذ لم يتجاوز ما كتبه عن هذه النظرية ما يبلغ حَجم كتاب كما يذكر "روبينز" ***Robert H. Robins***. ولعل هذا ما دفع هاليدي ***Michael A. K. Halliday*** –في بداية الستينات– ليقدّم شرحا مفصلاً لنظرية فيرث، ويضمنها أبعاداً جديدة، بحيث لم تعد قاصرة على مستوى الجملة بل تجاوزتها إلى ما هو أكبر منها، فأصبح النصُّ –وليس الجملة– الوحدة الصغرى للتحليل. أخذ هاليدي مستويات التحليل اللغوي الثلاثة من فيرث بعد وفاته، وكان منهجه إجمالا امتدادا وتكملة وتطويراً لمنهج فيرث. [29]




[29] "المدارس اللسانية: مدرسة فيرث (المدرسة السياقية)"، د. محمد يونس، منتدى الإيوان اللغوي.

## دَور اللُّغة في الفلسفة

فلاسفة اللغة التحليليون الكبار (مور– رسل– فتجنشتين) [30] اعتبروا أن الطريق الى حل الكثير من المشكلات الفلسفية التقليدية يمر عَبر تحليل العبارات اللغوية تحليلاً دقيقاً، والنقصُ في هذا التحليل أدى –في نظرِهم– الى وجود مشاكل وعقبات أمام الفلسفة، لذلك طرحت الحركة التحليلية فهماً جديداً للفلسفة مؤداه: أن الفلسفةَ لم تعد تُعنى باكتشاف المَعارف والحقائق الجديدة، بل أُصبحتْ تهتم بتحليل المعارف بُغيةَ إيضاحها وتحديد الزائف من الصحيح فيها، وهذا اعتراف بالدور الخطير الذي تلعبه اللغة في الفلسفة، حيث ان حل المشكلات الفلسفية لا يمر الا عبر فحص مَنطق التعبيرات العادية التي تُستعمل في المناقشات الفلسفية، لتنتقل الفلسفة على يد فلاسفة التحليل من مجال الموضوعات والأشياء إلى مجال الالفاظ والمعاني والعبارات الفلسفية؛ فالسؤال الرئيسي لم يعد "ماذا أعرف؟"، بل أصبح "ما الذي أعرفه؟". من هنا أُطلق على فلاسفة التحليل اللغوي لقب: " فلاسفة الفلاسفة".

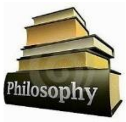
وبالرغم من أن الهدف المشترك بين أصحاب الفلسفة التحليلية ***Analytic philosophy*** هو لفظ التحليل، فإن ممارستهم لها مختلفة، فهم لا يشتركون في موقف فلسفي بعينه ولكنهم مرتبطون بخط تطور الفلسفة ودورها؛ هذا الخط بدأه "مور" و"رسل" واتجه به "فتجشتاين" الى وجهة جديدة، وأعاده "وزدم" ***Wisdom*** الى طريقه وطوره الى

---

[30] كانوا ينشطون جميعا في النصف الأول من القرن العشرين، كما كانوا مسؤولين إلى حد كبير عن ازدهار المنطق الحديث وأساليب الفلسفة التحليلية ونتائجها . وفي عام 1970م (سنة افتتاح كلية الفلسفة بجامعة كمبردج) أصبحت "العلوم الأخلاقية" ***Moral sciences*** جزءا من الدراسة الفلسفية. (بتصرف من ويكيبديا، القسم الإنجليزي ***Faculty of Philosophy, University of Cambridge*** ).

"التحليل العلاجي" *Therapeutic Analysis* الذي ربما وصل الى مأزق على يد فلاسفة اللغة العادية في مدرسة أكسفورد .

الفلاسفة التحليليون يعطون اللغة أهمية رئيسية، ولا يعتبروها وسيلةً بل هدفاً من أهداف البحث الفلسفي. هذا الاهتمام الكبير باللغة من بعض فلاسفة التحليل مثل "مور" و"فتجنشتاين" ومدرسة أكسفورد اليوم، دفع بعض الباحثِين للتمييز بين الفيلسوف التحليلي وبين ذلك التأملي بأن هذا الاخير يستخدم اللغةَ وسيلةً لتحقيق هدفه في التأمل بالمفاهيم الميتافيزيقية للوجود .

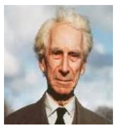



## اللغة والمَنطق عند "برتراند رَاسل"

"برتراند راسل" *Bertrand Russell* (1872-1970) [31] له مكانة كبيرة في الفلسفة المعاصرة، حيث قضى قرابة ثمانين عامًا يكتب في مجالات الفكر المختلفة، من رياضيات ومنطق وفلسفة وأخلاق وسياسة وغيرها، فاستحق بذلك لقب "فيلسوف القرن العشرين" .

أدرك "رسل" أن دراسة الفكر –مهما كان نوعها– لا بد أن تمر بدراسة اللغة باعتبارها وعاء الفكر، كما أدرك تأثير اللغة في الفلسفة، بمفرداتها وبتراكيبها، ونبّه إلى مخاطر

---

31  فيلسوفٌ وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني. قاد راسل الثورة البريطانية "ضد المثالية" في أوائل القرن العشرين. يعد أحد مؤسسي الفلسفة التحليلية إلى جانب سلفه "فريج" وتلميذه "فيتغنشتاين". ألف بالشراكة مع وايتهيد "مبادئ الرياضيات" في محاولة لشرح الرياضيات بالمنطق. ولا زال لعمله أثر ظاهر على المنطق والرياضيات ونظرية المجموعات واللغويات، وفلسفة اللغة، ونظرية المعرفة والميتافيزيقا. حاز عام 1950م على جائزة نوبل للآداب "تقديراً لكتاباته المتنوعة التي يدافع فيها عن المثل العليا وحرية الفكر. . ." كما تقول لجنة الجائزة التي منحته هذا اللقب.

استعمال اللغة في مجال الفلسفة والعلم. يقول: "إن تأثير اللغة في الفلسفة كان عميقاً ولم يُولَ الانتباه الكافي، فإن كان علينا ألا ننخدع بهذا التأثير كثيراً، فمن الضروري أن نكون على وَعيٍ به، وأن نسأل أنفسنا إلى أي مدى يكون هذا التأثير مشروعاً".

إن فلسفة اللغة عنده تقوم على التواصل والترابط بين البحث المنطقي والرياضي والفلسفي.[32]

ويرى "رسل" أن فهمنا للعالم وللطبيعة يأتي عن طريق اللغة؛ يقول في كتابه "بحث في المعنى والصّدق" *An inquiry into Meaning and Truth* "هناك –فيما أعتقد– علاقة قابلةَ للكشف بين « بناء» الجمل أو العبارات وبناء «الوقائع» أو الأحداث التي تشير إليها تلك العبارات، ولا أظن أن بناء الوقائع غير اللفظية *non worlds facts* غير قابل للمعرفة تماما، بل أعتقد أننا إذا اتخذنا من الحيطة القدرَ الكافي، فقد نجعل من خواصّ اللغة أدواتٍ نستعين بها علم فهم بناء العالم".

إن الألفاظ عند رسل تقرر وقائع وتستثير انفعالات وهي نوعان:

ألفاظ موضوعية *Objects words* مثل: شجرة، أزرق، كتاب، زيد، شمس... يلقنها الفردُ عن طريق مواجهته الموضوعات الخارجية. وألفاظ منطقية *logical words* مثل: (الكل، والبعض...) وهي ألفاظ تشير إلى الموضوعات في عالم الإدراك الحسي التجريبي.

ويفرق رسل بين مظهرين مختلفين للغة: مجموعِ مفرداتها من جهة، وتركيبها أو بناؤها من جهة أخرى، والألفاظ المستخدمة عادة في اللغات الطبيعية غامضة ومُلتبسة،

---

[32] للتوسع انظر المرجعان الآتيان:

– "المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، برتراند راسل نموذجاً" جمال حمّود، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان سنة 2011م.

– "نظريات المنطق الرمزي، بحث في الحساب التحليلي والمصطلح"، محمد محمد قاسم، سنة 1991م.

ومن هنا فإن الباحث الفلسفي عليه أن يحدد معانيه، وأن يحرص باستمرار على فهم المعاني الدقيقة التي تستخدم فيها الألفاظ حين ترِد على قلم هذا الفيلسوف أو ذاك. و"تحليل المعاني" عملية منطقية قديمة ترتد إلى عهد "أرسطو"، ولكن "رسل" يعتقد أن الكثير من مظاهر الخلط الفلسفي حول مشكلات معروفة كمشكلة "الجوهر" أو مشكلة "الكليات" ترجع أولاً إلى بعض الخصائص اللغوية الكامنة في مفردات اللغة الطبيعية، ومن المؤكد أن السمات التركيبية لأمثال هذه اللغات هي المسؤولة عن العديد من الأخطاء التي طالما تَردَّى فيها الفلاسفةُ.

كما نجد نظرية" الشكل المنطقي" أو "الصورة المنطقية" ***Logical Image*** عند "رسل" نتيجة تطبيقه المنطق الرمزي على اللغات الطبيعية، "وليست مهمة المَنطق الرمزي سوى العملِ على تحويل أي مقال مُعبَّر عنه باللغة الطبيعية إلى "صورة منطقية"، حتى يمكنَ فهمُه دون حاجة إلى أي تعبيرٍ لغوي. ولعل هذا ما قصده «راسل» و أستاذه ومُشرفه على رسالة الدكتوراه «ألفرد وايتهد» (1861م–1947م) ***Alfred North Whitehead*** في كتابهما "المبادئ (أو الأصول) الرياضية" ***Principia Mathematica*** حين حاولا الوصول إلى لغةٍ فكرية عامة يستطيع المرءُ عن طريقها أن يَشرح "الهيكل العظمي" المشترك لسائر اللغات الطبيعية".

فإذا كانت الرؤية الأدبية تجد إمكانيات ثرائها في تعدد دلالات المكونات اللغوية، وانزياح معاني الألفاظ، فإن الرؤية العلمية تتشوش وتضعف بسبب هذا التعدد الدلالي؛ ولهذا السبب حلم العديد من الفلاسفة، مثل سبينوزا ولايبنز وفتجنشتين وبرتراند راسل بلغة فلسفية دقيقة في مثل دقة اللغة الرياضية. وسعياً الى استخدام "التحليل المَنطقي" لحل بعض المسائل اللغوية والمنطقية المعقدة، استند "رسل" إلى «نظرية الأوصاف المنطقية» ***Theory of Descriptions*** عام 1905م ، وفيها يُقيم تفرقةً منطقية بين نوعين من التسمية: التسمية باسم العَلَم؛ والتسمية بواسطة عبارة وَصفية؛ يقول مثلا:

إن كلمة "سكوت" Scott اسم عَلَم، في حين أن عبارة "مؤلفُ ويفرلي هيلز" *Waverly Hills* عِبارة وصفية. [33] وهذا ما يِعبر عنه بالكناية في البلاغة العربية.

و"نظريةُ الأوصاف" تناولتْ موضوعَ "قُصور اللغة عن التعبير عن الأغراض الفلسفية"، و تطرقتْ كذلك إلى "موضوع الإدراك والمعرفة"، فيتساءل "راسل": ما هي المعرفة؟ وكيف نحصلُ عليها؟ وهل نحصلُ عليها مِن خلال حواسّنا؟ وما هو دور هذه الحواس في عملية الإدراك؟ وإلى أي مدى تُعتَبر هذه الحواَسّ صادقةً في تشكيل الإدراك لدينا؟ ويَخلصُ "راسل" إلى أن المعرفة التي تأتينا بواسطة الحواس تعتّبر ضعيفة جداً لتحديد إدراكنا العالِم الخارجي.

إن نظرية الأوصاف مثال نموذجيّ للفلسفة المتسلحة بالمنطق الرياضي في القرن العشرين، ومِثلها نظرية "برتراند رسل" في الأنماط المنطقية عام ١٩٠٨م -كما رأينا- التي تفرق بين قضية تشير إلى شيء جزئي، وبين قضية تشير إلى مبدإ عام أو تشير إلى قضايا أخرى، مما أدى إلى حَل مفارقات كثيرة. [34]



---

33 انظر للتوسع المراجع التالية:

- "برتراند راسل . مقدمة قصيرة جداً"، أي سي جرايلنج، ترجمة: إيمان الفرماوي، مؤسسة هنداوي

- "نظرية المعنى والدلالة عند "فريجه" وأثرها فى نظرية الأوصاف عند برتراند رسل" *The Influence of Frege's Theory of Meaning and Reference on Russell's Theory of Descriptions*، ذة. نادية السيد عبد القادر حسين. جامعة الإسكندرية، قسم الفلسفة بكلية الآداب.

- "اللغة بين منطق الفلسفة ومنطق العلم"، محمد حيول، الحوار المتّمدن– ع 3970 – سنة 2013 م.

34 لمزيد من التفصيل راجع: "فلسفة العلم في القرن العشرين:"، د . يمنى طريف الخولي، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع بالقاهرة، مصر.

## العَلاقة بين اللّغةِ وبين الفِكْر؟

هل اللغةُ مجرَّدُ أداةٍ للتعبير عن فِكر سابق عليها في الوجود؟ وهل يمكن وُجودُ فِكر مستقل وهل حدود اللغة هي حدود التفكير؟ وهل اللغة الأم هي لغة التفكير الوحيدة؟ وكيف تؤثر اللغة في تشكيل الفكر؟ وهل علاقةُ اللغة بالفكر علاقةُ اتصال أم انفصال؟ هناك موقفان أساسان بين الفلاسفة في هذا الشأن:

أولا: الموقف الانفصالي أو الثنائي

أنصارُ هذا الاتجاه يرون بأن الفكر أسبَقُ من اللغة وأوسعُ منها؛ فالإنسان يُفكر ثم يُعبر، بحيث تجول بخاطره أحيانا كثيرة أفكارٌ لكنه يَعجز عن التعبير عنها! والسبب في ذلك عدم قُدرة الألفاظ على احْتواء المَعاني والمشاعر الجَيَّاشة، حتى قيل: إذا كانت الكلماتُ من ثلج فكيف تحتوي بداخلها النيران؟ فالمرء –مثلا– عندما يسمع بخبر سارّ أو مُؤلِم يَلجأ إلى الدموع للتعبير عن شعوره بدل الكلمات، أو يضع يدَه على فِيه ولا يَنطق بكلمة مِن شدة الفرح أو القَرْح. والفنانون يرسمون للتعبير عن أفكارهم، والنَّحاتون يَنحِتون، والشعراء يَنظِمون، والصُّم البُكم يُشيرون، وهذا دليل عَجْز اللغة عن مُواكَبة الفكر. واللغة أحياناً لا تعبر بصدق وإخلاص عن أفكارنا، كما في كثير من خُطَب المجاملات، وشعر المَدْح والغزل والفخر، يقول المتنبي مثلاً:

أنا الذي نَظَرَ الأَعمى إلى أَدَبي    وأَسمَعَتْ كَلِماتي مَن بِه صَمَمُ
فَالخَيلُ وَاللَيلُ وَالبَيداءُ تَعرِفُني    وَالسَيفُ وَالرُمحُ وَالقِرطاسُ وَالقَلَمُ

والقول بأن اللغة من غير فِكر أمرٌ مُستبعد، بينما يمكن العكس، بدليل أن الصُّم البكم يُفكرون دون لغة لفظية. قال أبو حيان التوحيدي (400هـ): "فقد بان الآن أنّ مُركّب

اللفظ لا يَحوزُ مَبْسوطَ العقل، والمعاني مَعقولَةٌ ولها اتّصال شديدٌ وبَساطة تامّة، وليس في قوّة اللفظ مِن أيّ لغةٍ كانَ أن يَمْلِكَ ذلك المَبْسوطَ ويُحيطَ به. . . ". [35]

ويمثل هذا الفريقَ بعضُ الفلاسفة الغربيين ومنهم:

1- اليوناني "أفلاطون" *Platon* (427 ق.م – 347 ق.م): الذي يميز بين عالَمين موجودين هما: عالم المُثُل، والحقائق المُطلقة، والفكر والمعقولات (الأفكار المثالية)، وبين عالم المحسوسات، ويأتي في المرتبة السفلى، لأنه عالمُ أَشْباهِ الحقائق والظلال (العالم المادي). ولما كانت اللغة مُعبرةً عن عالم الأشياء المحسوسة، فَلِلفكر أسبقيةٌ وجودية عليها، لأن الأفكار المطلقة توجد في عالم المثل. فالعلاقة بينهما استقلال وانفصال.

2- الفرنسي "ديكارت" (1596–1650) ***René Descartes*** [36] الذي يرى بأن اللغة والفكر من طبيعتَين مختلفتَين؛ فاللغة ذاتُ طابع حِسي مادي (الأصوات، الكتابة. .)، أما الفكر فذو طابع مرتبط بالنفس بل هو طبيعتها المميزة، ولا تتصور علاقة اتصال بين هاتين الطبيعتَين المتمايزتين، فالعلاقة بينهما علاقة انفصال، والأسبقية للفكر. إننا نفكر أولا ثم نعبر ثانياً، أي ننتقل بعد التفكير إلى إلباس أفكارنا كلمات ملائمة

---

35 "الإمتاع والمؤانسة" ص/99، المكتبة العنصرية بيروت، ط1، 1424 هـ.

36  ديكارت الملقّب ب"أبي الفلسفة الحديثة"، ورائد العقلانية في القرن السابع عشر الميلادي، و صاحب مذهب الشك المنهجي "أنا أفكر، إذن أنا موجود" *«Je pense, donc je suis»*. وبعض الباحثين المعاصرين أثبتوا أن "ديكارت" سرق بعض أفكار "أبي حامد الغزالي" (ت/405 هـ) وخاصة من كتابه "المُنقِذ من الضلال". يقول "عثمان الكعاك" أنه عَثَر على نُسخة من "المنقذ" مترجمة إلى اللاتينية في مكتبة ديكارت الخاصة بمتحفه في باريس، وفي إحدى صفحاتها إشارةٌ بالأحمر تحت عبارة الغزالي الشهيرة: "الشكُ أُولى مراتب اليقين"، و عليها حاشية بخط يد ديكارت بعبارة: "تُنقل إلى منهجنا". لكن "ديكارت" مع ذلك لم يُشر إلى الغزالي في مؤلفاته، جاحداً فضل المفكرين المسلمين في هذا الشأن.

«*L'homme pense sa parole avant de parler sa pensée*». وفي هذه الحالة لن تكون الكلمات والجمل سوى أدواتٍ بَعديّة تساعد على إظهار نتاج عمل التفكير التي تتم قبل اللغة وبدونها. وإذا كانت الكلماتُ والجُمل ضروريةً لتبليغ نتاج الفكر للآخرين فإنها بالمقابل غيرُ ضرورية لحُدوث عملية التفكير ذاتها.

واللغة عند ديكارت خاصية إنسانية، فالإنسان وحده الكائن الناطق أو "الكائن الرمزي" *L'être Symbolique* الذي يستخدِمُ اللغةَ منطوقةً ومكتوبةً وحركيةً للتعبير عن أغراضه ومشاعره وأفكاره. وأساسُ حضور اللغة عند الإنسان –بمفهومها هذا– هو وجود الفكر لديه، كما أن عِلّة غيابها عند الحيوان هي افتقارُه إلى الفكر. ودليل ديكارت هو أن الإنسان مهما بلغ به النقصُ يستطيع استخدامَ العلامات للتعبير عن أفكاره، كالصُّم البُكم الذين يخترعون علامات وحركات لهذا الغرض، أما الحيوان فمهما بلغ من الكمال فلن يستطيع استعمال اللغة، فنُطقُ الببغاء مثلا ليس لغةً، لأنه مجردُ تعبير عن انفعال إشراطي، أي رد فعل غريزي أو قابل للبرمجة عن طريق الترويض. وبهذا تكون عبارة: "الإنسان حيوان عاقل" مرادفةً لعبارة "الإنسان حيوان ناطق"، إذ أن "العقل/ الفكر" أساس "النطق/ اللغة". فلا لغة دون فكر، بل هي "دالة الفكر". إن اللغة ليست ظاهرة فسيولوجية (مادية)، لذا يمكن القول بأن الحيوان لا يملكُ عقلاً، ومن ثم فهو غير قادر على استعمال اللغة. [37]

3– الفيلسوف الألماني شوبنهاور *Arthur Schopenhauer (1788-1860)* يرى بأن الأفكار تموت في لحظة تجسيدها في كلمات، وان للفكر أسبقيةً على اللغة.

4– الفيلسوف الفرنسي هِنري برﮔسون *Henri Bergson (1859 -1941)* القائل: "الفكر ذاتي وفردي، واللغة موضوعية واجتماعية".

---

37 "مبادئ الفلسفة" ر. ديكارت، تعريب: د/ عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع. .

## ثانياً: الموقِف الأُحادي أو الاتصالي

أنصار هذا الاتجاه قالوا بوجود علاقة قوية بين اللغة والفكر؛ فلا وجود للأفكار إلا إذا عَبّرت عنها الألفاظ، أي أن اللغة تحمل الفكر إلى الخارج ليصبحَ معرفةً إنسانية قابلة للانتقال بين الأفراد، ولذا فالفكر بدون لغة يبقى صامتا . فالطفل مثلاً يكتسب المعاني والأفكار والصور حين يتعلم اللغة، أي أنه يتعلم اللغة في الوقت نفسه الذي يتعلم فيه التفكير. إن الارتباط بين النمو الفكري وبين النمو اللغوي ضروري، وكل خَلَل يُصيب أحدَهما ينعكس سَلباً على الآخر. وهذه العلاقة تشبه الورقة ذات الوجهين، أو علاقة الروح بالجسد، أو علاقة الدخان والنار.

ومن أنصار هذا الاتجاه من الفلاسفة:

◉ الفيلسوف اليوناني أَرِسْطُو ( 322 ق.م) القائل: "ليس ثمة تَفكير بدون رموز لغوية" .

◉ والفرنسي "هنري دَلاكروا": *Henri Delacroix* (*1873–1937*) صاحب "الفكر واللغة": *Le Langage et la Pensée* والقائل: "إن الفكر يَصنَعُ اللغة وهي تَصنعه" .

◉ والانجليزي "جون لوك" (*1632- 1704*) *John Locke* [38]

الذي خَصّص لمُعضِلة اللغة فُصولاً وافيةً ضمَّنَها كتَابَه: "مقال في المَدارك البشرية" *An Essay Concerning Human Understanding*، الذي يشرح فيه نظريته حول الوظائف التي يؤديها العقل أو الذهن. و "جون لوك" من الذين لحظوا الروابط المتينة بين اللغة



38 "جون لوك" فيلسوف تجريبي حسي، اشتهر بعبارته: "إذا سألك سائل: متى بدأت تفكر؟ فأجبه: عندما بدأت أحس". وكان يرى أن البحث في مشكلات الفلسفة نمط من المعرفة، فيجب أولاً البحث في أداة هذه المعرفة وهي: "الفهم البشري" قبل الخوض في بحث هذه المشكلات وإيجاد الحلول المناسبة لها، وهكذا كان "جون لوك" في نظر الباحثين أول واضع لعلم "الابستمولوجيا" *épistémologie* أو نظرية المعرفة.

والفكر، وأنها علاقة داخلية، ولا نستطيع في أي حال من الأحوال الفصل بينهما، كما لا يمكن إدراك هذه الرابطة بواسطة التجريب والحس، بالرغم من انتماء لوك للمذهب التجريبي المادي. [39]

◉ والفرنسي موريس ميرلوبونتي **Maurice Merleau-Ponty** (*1908–1961م*) القائل في كتابه "فينومينولوجيا الإدراك": ***La pensée n'est rien d'"intérieur", elle n'existe pas hors du monde et hors des mots.*** "إن الفكر لا يوجد خارج الكلمات". فالكلمات ليست انعكاساً للفكر، ولا يمكن فَصْل أَحدهما عن الآخر لأنهما في حقيقة الأمر يشكلان لحمة واحدة. [40]

والحق أن اللغة سايرتْ الإبداعَ الإنساني في كل العصور، ونقلت تجاربَه إلى الأجيال المختلفة، فاللغةُ والفِكر وجهانِ لعملةٍ واحدة، فلا بدَّ للفكر من لغة يعبِّر بها الإنسان

---

39 "اللسان والإنسان: مدخل الى معرفة اللغة" ص/75 ، د. حسن ظاظا، دار القلم بدمشق، الطبعة الثانية سنة 1990م.

40 "*Phénoménologie de la Perception*" من أشهر كتب المؤلف، ويتعرض للفينومينولوجيا أو "الظاهراتية"، وتقوم هذه المدرسة على العلاقة الديالكتية بين الفكرة والواقع، و تعتمد على الخبرة الحدسية للظواهر (ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تنطلق لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها.. ويمكن رصد بداياتها مع هيغل ***Hegel***، ويعتبر مؤسسها الألماني هوسرل (1938) *Husserl*، وتلاه في التأثير من الفلاسفة: ميرلو بونتي، وريكور ***Ricor*** وسارتر (1980) ***J-P Sartre*** وهايدغر (1976) ***Heidegger*** المعروف بتأثيره في المدارس الفلسفية كالوجودية. والتأويلية وكيكية وما بعد الحداثة.

("فينومنولوجيا اللغة عند ميرلوبونتي"، محمد بن سباع).

عن أفكاره ورغباته، ولا بد للُّغة من فكرٍ حتى يطوّرِها ويَسمو بها، فبينهما علاقة تأثّر وتأثير.. [41]

ويوجد من المفكرين من يرى عبثية النظر في هذه القضية، لأن القول بأولية هذين العنصرين من عناصر الفهم البشري كالقول بأسبقية البيضة والدجاجة!

## ثانياً: اللغة وطَبيعتُها عند عُلماء النَّفس




علم النفس هو: "الدراسة العلمية لسلوك الكائنات الحية، وخصوصاً الإنسان، وذلك بهدف التوصل إلى فهم هذا السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه". ويرى العلماء أن جذور المصطلح الإنجليزي *Psychology* لعلم النفس تأتي من موضوعين هما: الفلسفة والفسيولوجيا، وكلمة سيكولوجية (نفسية) تأتي من الكلمة اليونانية

41 "العلاقة بين اللغة والفكر: دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة"، ص/7، د. أحمد عبد الرحمن حماد، دار المعرفة الجامعية، 1985م. و"اللسان والإنسان: مدخل الى معرفة اللغة"، ص/73 وما بعدها، الدكتور حسن ظاظا. ولمزيد من التوسع ينظر أيضا:

- "جدلية اللغة والفكر"، محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2009م.
- "فلسفة اللغة" *Sylvain Auroux – La philosophie du langage* (الفصل السادس: الفكر واللغة، ص/305 وما بعدها)، سيلفان أورو، وجاك ديشان... ترجمة: بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. ط 2012م.
- "التفكير واللغة" جوديث جرين، ص/16 وما بعدها، *« Thinking and Language » / Judith Greene* ترجمة د. عبد الرحيم جَبر، الهيئة المصرية العامة، 1992م.
- "الكلام والتفكير"، نعوم تشومسكي. *Le Langage et la pensée, Petite bibliothèque Payot, 2006*

(بسوخي) وتعني النفس و (لوغوس) وتعني العلم، وفي القرن السادس عشر كان هذا العلم يعني: "العلم الذي يدرس الروح أو العقل"، وذلك للتمييز بين هذا الاصطلاح وعلم دراسة الجسد، ومنذ بدايةٍ القرن الثامن عشر زاد استعمال هذا الاصطلاح "سيكولوجية" وأصبح منتشراً.

وينقسم علم النفس بصورة رئيسية إلى مدرستين: "المدرسة التحليلية"، ومؤسسها الطبيب النمساوي سيغموند فرويد ***Sigmund Freud*** (1856م-1939م) .و"المدرسة الاشتراطية" ومؤسسها الروسي "إيفان بافلوف" ***Ivan Petrovitch Pavlov*** (1849- 1936) . وانبثق من تلك المدرستين الفروع التي اتخذت الشكل النظري لهذا العلم. وهي:

- علم النفس التجريبي: يهتم هذا الفرع بدراسة القدرات والعمليات الإدراكية والحركية وخاصة الإدراك البصري والسمعي والعمليات المعرفية.
- علم النفس الفسيولوجي: يقوم باكتشاف الأسس الفسيولوجية للسلوك، حيث يسعى هذا الفرع إلى اكتشاف العلاقة بين العمليات الفسيولوجية وأنماط السلوك.
- علم نفس النمو: يدرس مراحل النمو من قبل مولد الجنين وحتى الشيخوخة.
- علم النفس الاجتماعي: يدرس تأثير الجماعة في سلوك الأفراد سلبا وإيجابا، و كذلك تأثير سلوك الفرد في الجماعة.

وهناك فروع تطبيقية لعلم النفس ومنها:

علم النفس التربوي: يهتم بالتعليم الأكاديمي والتحصيل الدراسي. وعلم النفس الصناعي والتنظيمي: يطبق مبادئ علم النفس في مجال الصناعة والمنظمات لحل المشكلات المتعلقة بالعمل بهدف رفع الكفاءة الإنتاجية.

## علم اللِغة النفسي *Psycholinguistique*

دَرس علماء النفس اللغة باعتبارها ظاهرةً نَفسية "*Phénomène psychique*"، وأحدَ أنواع السلوك البشري المُهمة التي تَكشف عن نفس الإنسان وانفعالاته وسلوكه ومشاعره، ويقيسون بها مدى نُضجه وإدراكه. فتكوين الفرد النفسي يكشف عن تكوينه اللغوي، أي الألفاظ والعبارات التي يستخدمُها وطرق تركيبها، كما يكشف عن العلل والعاهات اللغوية التيٍ قد تصيبُ هذا الفرد وطرق علاجها والتخلص منها . وجعلوا لهذه الدراسة عِلما مستقلاً هو "علم نفس اللغة" أو "علم اللغة النفسي" *Psycholinguistique*، وهو عندهم من أهم فروع "علم اللغة التطبيقي" *Linguistique Appliquée* . ومن تعريفات هذا العلم أَنه: "دراسة اللغة الإنسانية وفهمها وإنتاجها واكتسابها" . ويُعتبر من أُحدث الفروع اللغوية المعاصرة؛ فهو علم "وسيط" يمثل جسراً يربط العلوم التي تعالج النشاط اللغوي الإنساني، كعلوم اللغة والنفس والاجتماع والتربية. . ويُعتبر من أُحدث الفروع اللغوية المعاصرة؛ تعود بدايته إلى منتصف القرن العشرين في أمريكا، لكن سُرعان ما انتشر في بلدان العالم.[42] وبعض اللُغويين يرون أن لظهور نظرية اللغوي الأمريكي المعاصر "نعوم تشومسكي" *Noam Chomsky* التوليدية التحويلية *générative, transformationnelle* في اللغة الفضلَ في نشأة علم اللغة النفسي الباحثِ في علاقة اللغة بالعقل أو النفس؛ تلك النظرية التي بَحثتْ مبنَيَي الجملة العميق *structure profonde* والسَّطْحي

---

42 ظهر هذا العلم في منتصف القرن العشرين، حين صار موضوعا مستقلا في تعليم اللغة الانجليزية في جامعة "ميتشجان" الأمريكية، ثم أسست مدرسة علم اللغة التطبيقي في جامعة إدنبرة بأسكوتلندا .
لمزيد من التفصيل يُنظر كتاب: "علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية "، للدكتور عبده الراجحي، الناشر: دار المعرفة الجامعية 1995م.

*structure de surface*، وعَقَدت الصلةَ بين التحليل اللغوي وبين نظرية التعلُّم والمعلومات، كما سنرى بعد قليل. [43]

## مجالات "علم اللغة النفسي"

إن مقدرة الأطفال على اكتساب لغتهم الأم –بسرعة وسهولة– هي الاهتمام المركزي للحقل الرئيسي الأول من حقول علم النفس اللغوي، وهو "علم نفس اللغة النمائي أو الارتقائي" *Devlopmental Psycholinguistics*، وهو يدرس كيفية ظهور الكلام مع مرور الوقت عند الأطفال، وطريقة بنائهم التراكيب اللغوية المعقدة في لغتهم الأصلية.

ومما توصَّل إليه هذا العلم أن صُراخ الطفل في شهوره الأولى نوعٌ من اللغة بدون كلام! وعندما ينمو يُعينه صُراخه على تعلم نُطق الأصوات اللغوية، فيكون ذلك مُؤشرَ بداية الكلام لديه، وليس رَدّةَ فعل تجاه ما يحس به فقط. [44]

– دراسة أمراض اللغة، وصعوبات الفهم، وعيوب الكلام المختلفة المسبّبة للّحن صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً، كـ "الحُبْسة" (*aphasie*) وهي فقدان القدرة على الكلام، وهو مصطلح يُطلق على مجموعة من الاضطرابات اللغوية الناتجة عن تلف في الدماغ، ولتشخيص المرض يلاحظ الفرق في سلامة النطق لدى المريض من قبل الحادثة أو المرض ومن بعدها.

---

43 للتوسع في هذا الموضوع يُنظر الكتب التالية:
– "علم النفس اللغوي"، نوال محمد عطية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى 1975م.
– "علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه" (جزءان)، جلال شمس الدين، الإسكندرية، 2003م.
– "محاضرات في علم النفس اللغوي"، حنفي بن عيسى، ديوان المطبوعات الجامعية، سنة 2003م

44 "علم اللغة النفسي"، ص/24-25، توماس سكوفل، ترجمة: عبد الرحمن العبدان، الرياض، 1424هـ.

وكـ"عُسر القراءة" (*dyslexie*) وهو اضطراب تعلمي يتضح في صعوبة في القراءة والهجاء، ويختلف عن صعوبات القراءة الناجمة عن أسباب أخرى، مثل مشاكل في الرؤية أو السمع، أو بسبب ضعف مستوى وعدم ملاءمة تعليم القراءة.

- كما تندرج تحت مواضيع علم اللغة النفسي: "الازدواج اللغوي" *diglossie* و"ثنائية اللغة" *bilinguisme* (تعَايُش لغتَيْن جَنْبًا إلى جَنْب فِي مُجْتَمَع وَاحِد) . والازدواجية اللغوية ليست وقفاً على لغةٍ دون أخرى، ولكن طبيعة هذه الظاهرة، أي مدى الفجوة بين نمطيْ اللغة، هي جوهر الحالة، فلا أحد يتكلّم كما يكتب، أو يكتب كما يتكلم. وكان بعض الدارسين –ومنهم الدكتور أنيس فريحة– ينادون بالتخلص من الازدواجية واستخدام لغة واحدة للحديث والكتابة، وإن كان قصد "فريحة" استعمال اللغة العامية، لغة الشعب التي يتم بها الفهم والإفهام، وعدم التقيد بالفصحى لأنها (العامية) لا تعتبر في نظره لغة رديئة! [45]

إن الثنائية اللغوية الكاملة –أي سيطرة شخص ما على لغتين بنفس القدر– من الحالات النادرة حقا . ومن المفروغ منه دلاليا أن للألفاظ معانيَ منطقية مشتركة عامة بين الناطقين باللغة الواحدة ومعاني أخرى نفسية خاصة.

- معرفة طرق اكتساب اللغة (الأم) عند الأطفال ومقدرتهم على اكتساب لغة ثانية . .

- معرفة النظريات المتعلقة بأصل اللغة والنحو الكوني *Grammaire universelle* .

- تحديد الترميز والمعالجة *Encodage et traitement* التي تتم في الدماغ عن الكلام.

- تحديد الوحدات النمطية *modules* في الدماغ التي تشارك في إنتاج اللغة. وهي العمليات الدماغية التي تساعد على تخزين الوحدات الدلالية والقواعد النحوية في الذاكرة لتيسير الكتابة والقراءة والفهم. فالقواعد رابطة ضرورية بين المعنى وبين

---

45 في كتابه: "نظريات في اللغة"، ص/ 107، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية 1981م.

الصوت أو الرمز، ولا يجوز التكلم عن نظريةٍ ثابتة للقواعد اللغوية، بل عن حالة من التدفق والجريان الدائم *flux continu*، والويلُ –كل الويل– لأصحاب لغاتٍ لا تواكب التطور الحضاري.

وعلماءُ النفس يقولون: إن اللغة ظاهرة نفسية اجتماعية فلسفية! اذ ان عملها يقع في علم النفس. ويقول النفسانيون لعلماء اللغة: لقد حاولتم في القرون الثلاثة الأخيرة أن تحلوا مشاكل اللغة ولم تُفلحوا، فاتركوها لنا الآن! [46]

## ثالثاً: اللغةُ عند عُلماء الإنْسَان والاجتِمَاع

اهتم علماءُ الاجتماع باللغة حيث إنها ظاهِرةٌ اجتماعية ***Phénomène Social*** وأكدوا على وظيفتها الخطيرة في المجتمع، وعلى علاقاتها بالظواهر الاجتماعية الأخرى، كما سنرى قريبا.

وعلماء الأجناس البشرية أو "الأَنْسَنَة" ***Anthropologie*** يرون بأن اللغة تكشف لهم كثيرًا من الحقائق –من خلال الحفريات والنقوش والرسوم– عن الإنسان، ومراحل تطوره وأجناسه المختلفة... ومن ذلك أن يشترك في تكلم اللغة الواحدة أكثر من جنس واحد. وقد حَدث أن خلط فقهاء اللغة بين اللغات والأجناس، فافترضوا أن الأقوام الذين يتكلمون لغة واحدة مشتركة لا بد أن يكونوا من جنس واحد مشترك، وهذه ليست الحقيقة، فهنود وزنوج أمريكا يتكلمون الآن الإنجليزية، والأيرلنديون أيضاً بعد ما فقدوا لغتهم "الكِلْتية" القديمة. فكل ما تدل عليه اللغة المشتركة هو حدوث اختلاط اجتماعي بين أجناس متعددة فحسب.. [47]

---

46 المرجع نفسه، ص/ 44.

47 عن هذا الموضوع ينظر للتوسع:

# اللغةُ مِن أعْرَق مَظاهِر التَّحضُّر

إن اللغة في شقها التواصلي مجموعة من الأفكار والمشاعر تَصْدر عن مُتحدث أو كاتب، وإن التعبير عنها لا بد له من سياقات، تتطلب من المرسِل انتقاءً جيداً لمفردات تُركّب في جُمل، هَدفُها إبلاغ رسالةٍ مَفهومة، ولها ارتباطٌ وثيقٌ بهذا السياق الذي يمثل حَجَر الزاوية في عملية التواصل، ولا يقل أهميةً عن اللغة التي هي النظامُ المرتّبُ لهذا السياق، حيث تجتمع هذه اللغة على توصيل الأفكار والمشاعر من خلال نَظام من الرموزٍ يختاره المجتمع.[48]

اللغة إذاً وسيلةُ التواصل بين الأفراد كما هي بين الشعوب. إنها الأداة الأولى للتفكير والتعبير التي من خلالها تتم معرفة العالم؛ بها تختزن المعلومات ويُرسم كل سلوك أو نشاط، حيث لا معرفة إلا واللغة وسيط لها، ولا فكرَ إلا واللغة ترجمة له، "فإذا أردنا أن ندرس النتاج الفكري، فالواجبُ أن ندرس اللغة، وإذا أردنا أن ندرسَ اللغة، فعلينا أن نَدرُس عَمَلها في المجتمع". واستعمل الإنسان اللغة منذ أن وُجد على الأرض، فهي من أعرق مظاهر الحضارة الإنسانية، بل هي –بعد الدين– أصل الحضارة وصانِعة الرُّقي والتقدم، فهي الحدُّ الفاصل بين شعب وشعب وبين أمة وأمة، بل بين حضارة وحَضارة، لأن الأفراد الذين يتكلمون لغة واحدة، لا يتفاهمون بيسر وسهولة

---

– "تاريخ علم الاجتماع"، *Gaston Bouthoul*، ترجمة وتعليق: غنيم عبدون، الدار القومية بالقاهرة.

–"قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان"، حسين فهيم، عالم المعرفة، الكويت، 2/ 1986م.

– وعن مكانة اللسانيات بين العلوم الإنسانية وارتباطها بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس وتاريخ الثقافة ينظر كتاب رومان ياكبسون "الاتجاهات الأساسية في علم اللغة"، (الفصل الثالث: اللسانيات والعلوم الطبيعية)، ص/81 وما بعدها. ترجمة علي حاكم وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الأولى 2002 م.

48 "رؤية حول مفهوم التواصل اللغوي"، ص/ 4-5 حمدي إبراهيم حسن، جامعة الملك سعود. الرياض.

فحسب، بل هم قادرون على أن يؤلفوا مجتمعاً إنسانياً موحداً متجانساً، فهي الوسيلة المثلى للتعبير عن حاجات الفرد ومكنونات نفسهِ، ولهذا شغلت دراسةُ اللغة المفكرين منذ القديم في محاولةٍ للوقوفِ على ماهيتها وأسرارها وسبل تطويعها وتطويرها . [49]

## التواصُل الاجْتِماعيُّ مِن أهْداف اللّغة

وأهم خصائصِ اللغة قَصدُ الإبلاغ والتواصل، أي نقل المعلومات، وتَستلزم وجودَ مُخاطِب ومخاطب ونِظام رمزي يحتاج إلى تَفكيك وتركيب، وسياقٍ تُستعمل فيه. فاللغة ليست مِنِ الأمور الّتي يَصنعها فردٌ واحد أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وكل فرد ينشأ يجدُ بين يديه نظاما لغوياً يسير عليه أعضاء مجتمعه، فيتلقاه عنه بطريق المحاكاة والتعلم، كما يتلقى سائر النظم الاجتماعية الأخرى. فكل فرد يرى نفسه مضطراً للخضوع لأحكام اللغة وقوانينها ، وكل خروج على نظامها يلقى من المجتمع ردّاً يرجع الأمور إلى أصولها . [50]

ولأن اللغة من مقومات "الاجتماع" صارتْ من أكثر الظواهر التصاقاً بحياة الأفراد، بل هي الطريق لكشف عادات المجتمع وتقاليده ومستوياته الثقافية والمعرفية والحضارية،

---

49 "علم اللغة مقدمة للقارئ العربي"، محمود السعران، ص/1، دار الفكر العربي، ط2/ 1997م.

50 بتصرف من: "اللغة والمجتمع" لعلي عبد الواحد وافي، ص/6، شركة عكاظ بالرياض، ط4/ 1983م.

وانظر تفاصيل أخرى عن تعريف اللغة وطبيعتها ومنزلتها وفروعها وعلاقتها بالمجتمع المراجع التالية:

– "دراسات في علم اللغة" للدكتور كمال بشر، دار المعارف بمصر، الطبعة التاسعة سنة 1986م.

– "اللغة والمجتمع رأي ومنهج" لمحمود السعران. الإسكندرية، الطبعة الثانية سنة 1963م.

– "مدخل لفهم اللسانيات إبستمولوجيا أولية لمجال علمي" روبير مارتان « ***Robert Martin-*** ***comprendre la linguistique, épistémologie élémentaire d'une discipline***». ترجمة عبد القادر المهيري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى 2007م.

وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالاً رحباً تتصفَّح من خلاله تاريخ الحضاراتِ الإنسانية في مختلف مجالاته. [51]

وقد أدرك علماءُ الاجتماع هذا فاعتبروا اللغة ظاهرةً اجتماعية، وحلقةً في سلسلة النشاطِ الاجتماعي، كما أدرك علمُ اللغة الحديث هذا الجانب، فأخذ على عاتِقه دراسةَ الظواهر اللغوية من خلال ارتباطها بالظواهر الاجتماعية، وقد أثمر التعاون بين الفريقين هذا الفرع، وهو "علم اللغة الاجتماعي" أو "علم الاجتماع اللغوي" ***Sociolinguistics*** أو ***Sociology of Language*** أو علم "الأنثروبولوجيا اللغوية" ***Linguistic Anthropology*** الذى يدرس اللغة في علاقتها بالمجتمع، ويحاول الكشف عن القوانين والمعايير الاجتماعية التي توضح سلوك الأفراد نحو اللغة في المجتمع. [52]

إن اللغة تؤثر في تنظيم الفكر وتؤدي الى عادات لغوية مسيطرة على السلوك البشري بصورة لا شعورية، وتبعا لذلك تؤثر في نوعية الشخصية. فهي تعتبر عاملا أساسيا في التنشئة الاجتماعية التي يتم بمقتضاها غرس القيم الاجتماعية في نفس الكائن البشري، وتحويلها الى مواقف مستجدة تدفعه –بصورة لا شعورية– للاستجابة للحوافز المختلفة، والتصرف على نحو معين في المواقف الاجتماعية الطارئة..

---

51 "سيكولوجية اللغة والمرض العقلي"، جمعة سيد يوسف، ص/ 21، عالم المعرفة، الكويت، ع 145،

52 لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يُرجى الاطلاع على المراجع التالية:

- "علم اللغة الاجتماعي"، د. هدسون ***R. A. Hudson*** ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، 1990م.
- "علم اللغة الاجتماعي عند العرب"، للدكتور هادي نهر، الطبعة الأولى 1988 م.
- "علم اللغة الاجتماعي"، د. كمال بشر، دار غريب بالقاهرة.

# المَبحَثُ الثاني

# اللّغةُ ومَظاهِرُها عِندَ عُلماءِ اللِّسَان

إذا كانت اللغةُ –بما لها من سلطان– قد جَذبتْ الطوائفَ السابقة إلى محاولة الإفادة من طبيعتها ونُظمها في ميادين المعرفة المختلفة، فإن اللغويين هم الذين دَرسوها بذاتها ولِذاتها، ووقفوا على حقيقتها، ونُظُمها، ونَشأتها، وتاريخها، وتطوّرها، إلى غير ذلك مما يتصل بحياتها وظواهرها. ولهذا سنقتصر في الصفحات القادمة على جهود بعض اللغوين في هذا المجال –قديما وحديثاً– عسى ذلك ان يجلّيَ لنا أمرَ اللغة وطبيعتها وخَطرها في حياة الفرد والمجتمع.

## أولًا: حَدُّ اللغة وأُصلها عند ابن جِني [53]

ابن جني (322–392 هج)، فَيلسوفُ العربيَّة وأحدُ كبار فُقهاء اللغة في العالم، وصاحبُ كتاب "الخصائص" في فقه اللغة، وهو من أَفضل كُتبه التي تجاوزتْ الخمسين، ويُعدُّ من أهم الكتب العربية التي ناقشتْ مسائل كثيرةٍ في بنية اللغة وفقهها، وفي النحو والصرف والاشتقاق. قسم كتابَه الى أربع وخمسين بابا، بدأه ببابٍ للفصل بين الكلام والقول؛

---

53 
هو أَبو الفَتْحِ عُثْمَانُ بنُ جنّي المَوْصِلِيُّ. إِمَامُ العَرَبِيَّة، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ. لَزِمَ أَبَا عَلِيٍّ الفَارِسِيَّ دَهْراً، وَسَافرَ مَعَهُ حَتَّى بَرَعَ وَصَنَّفَ، وَسَكَنَ بَغْدَاد، وَتَخرَّجَ بِهِ الكِبَار. وَلَهُ –عدا الخصَائِص– ، (سِرُّ الصّنَاعَةِ)، وَ(اللمَعُ)، وَ(التلقينُ فِي النَّحْو)، وَ(التَّعَاقبُ)، وَ (المَقْصُور وَالمَمْدُوْد)، و(المنصف شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، وَ(مَا يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ)، وَ (إِعرَابُ الحمَاسَة)، وَ (المُحْتَسَبُ) فِي القراءات و(الفسْر) شرح ديوان المتنبي، وهو من أَحسن تفاسيره لصحبة ابن جني للشاعر زمنا، ويؤثر عن المتنبي قوله: "ابن جني أعلم بشعري مني"، حينما كان يُسأل عن بعض معاني قصائده!

على طريقته في "تقليبات" الاشتقاق الكبير، ثم ثنّاه بباب لمناقشة إلهاميَّةِ اللغة ومُواضعتها، وعَرَضَ بعد ذلك قضايا كثيرةً من أصول اللغة: كالسماع، والقياس، والاستحسان، والاطراد والشذوذ، والعِلل، والحقيقة والمجاز. . .

عرّف ابن جني اللغةَ بأنها: «أصواتٌ يُعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم». [54]

وتتجلى دقة التعبير عنده حين يقول "كل قومٍ" وليس "القوم"، لأن التواصُل لن يتحقق إذا كان طرفا "العملية" الكلامية: المتكلم (المرسِل) والمتلقي (المرسَل إليه) لا ينتميان إلى المجموعة اللغوية نفسها *groupe linguistique* . وهذا شَرط نصَّ عليه اللغويون المحدثون، إذ بدونه لن تؤدي اللغة وظيفتها، ولن يتم التفاهم بين المتكلمين، كما سنرى في المباحث القادمة بإذن الله.

ينتقل التعريف بعد ذلك إلى الحديث عن وظيفة اللغة الأساسية وهي: "التواصل" *La communication* الذي سماه ابن جني "التعبير عن الأغراض". ومن أهم ما خُلقت له اللغة هو تحقيق هذا الغرض: أي التواصل بين بني البشر، كما أشارت الى ذلك الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات/13].

فابن جني بهذا سابقٌ رُوّاد "علم اللغة الاجتماعي" المحدثين في اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، كما أنّه يقرّ بتنوع اللغات واختلافها بتنوع الشّعوب والأمم. ويرى بعضهم أن تعريف "ابن جني" إذا ما قورن بما ذكره أول عالمٍ غربي مشهور في القرن العشرين وهو السويسري "فردينان دو سوسير" *Ferdinand De Saussure* وذاك قوله:

---

[54] "الخصائص"، "باب القول على اللغة وما هي" 33/1، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.

"اللغةَ نِظام من السّمات أو العلامات المعينة للتعبير عن مَعانٍ مُعينة"، فسنعتبرُ ابن جني السابقَ إلى إدراك اللغة بهذه الكيفية.

فاللغة ليست مجرَّد أصواتٍ يُصدرها الإنسانُ خَالية عن أيّ معنى، وينطق بها متى شاءَ وكيف شاء، وإنما هي للتعبير عن أفكار مَقصودة من هذه الرموز الصوتية، والكلام دليل على اجتماعية الإنسان، والنُّطق هو الذي يميزه عن الحيوان، ويترتبّ على كونه ناطقاً أن يكون مُفكرِا، وبفُقدانهما يَخرج من حَدّ الإنسانية إلى نِطاق البَهيميّة

## اشتقاق كلمة "لغة"

يقول ابن جني: "وأما تصريفُها ومعرفة حروفها: فإنها فُعلة، من لَغَوْت. أي تكلمت، وأصلها: لُغوة ككرة وقُلَة وثبة، كلها لاماتها واوات، لقولهم: كَروْت بالكرة وقَلوت بالقلة؛ ولأن ثُبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب. وقد دلّلتُ على ذلك وغيره من نحوه في كتابي: "سر الصناعة". [55] وقالوا فيها: لُغات و"لُغون" كـ: "كُرات" و"كُرون"، وقيل منها: لغى يلغى إذا هذى؛ ومصدره "اللغا"، قال الراجز:

رُبَّ أَسْرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ عن اللَّغَا ورَفَثِ التّكلُّم

وكذلك اللغو، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: 72] أي بالباطل، وفي الحديث: «مَن قال في الجُمُعة صَهْ فقد لَغا»

---

55 القُلَة: الخشبة الصغيرة وهي قدر ذراع تنصب للتعريش. قال ابن جني في "سر صناعة الإعراب": "... فالجواب: أن هذه أسماء منتقصة، وذلك أن لامها قد حذفت، وأنا أذكر أصولها: أما "ثُبة" فالمحذوف منها اللام دون الفاء والعين، يدل على ذلك أن الثبة: الجماعة من الناس وغيرهم، قال تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً﴾ فـ "ثبات" كقولك: جماعات متفرقة.. ورأيناهم يقولون: "ثَبَّيْتُ الشيءَ" إذا جمعته." ("سر صناعة الاعراب" لابن جني 247/2، دار الكتب العلمية بيروت، ط1/2000م).

أي تكلم. ولفظ الحديث في البخاري في أبواب الجمعة: "إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت".

وفي هذا دليل على ان كلمة "لغة" عربية، وليستْ مأخوذة من كلمة "لوغوس" *Logos* اليونانية، بمعنى الكلام، كما ذهب الى ذلك بعض الدارسين، ومنهم "سلامى موسى" المفتون بالحضارة اليونانية، في كتابه "البلاغة الجديدة واللغة العربية" الذي يدعو فيه إلى نبذ العربية وكل ما يمت إليها بصلة، لأنها سبب تخلف الشرقيين في زعمه، والسبيل إلى التقدم هو تقلد الحضارة اللاتينية بجذافيرها ! [56]. ومنهم الدكتور حسن ظاظا، الذي يرى أن لفظة "لغة" وُجدت قبل الإسلام، و لكن لا أحدَ يعرف تاريخ دخولها العربية ! ! . . [57]

ولو كانت كذلك لما تَردّدَ ابن جني من الإشارة اليها، وهو الرومي الأصل ! وهذه فِكرة استشراقية قديمة، يزعم أصحابُها أن العربَ أخذوا كلماتٍ كثيرةٍ من اليونانية حتى يتسنى لهم القولُ بان أُصولَ النحو كذلك من اليونان، وأنه مُؤسَّسٌ وفق مَنطق أرسطو ! كما زعم الدكتور إبراهيم أنيسَ، أو من الهنود كما زعم الدكتور أحمد مختار عمر، الذي يقول بإن الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ) تأثّر بإسحاق بن حُنين (215 – 298 هـ) –وهو طبيبٌ عربي مترجم، كان عارفاً باليونانية والسريانية، فصيحاً بالعربية – مع أنه لم يلقَ الخليل ولا رآه، فقد وُلد بعد وفاته ! ! وحتّى تلميذه عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه صاحب "الكتاب" الجامع في النحو، كانت وفاته سنة ثمانين ومائة هجرية، أي قبل بداية مرحلة نقل العلوم اليونانية إلى العربية بعقود. وبما أن علم

---

56 "البلاغة الجديدة. ."، لسلامة موسى، ص/131، وسيأتي تفصيل دعوته تلك في الباب الثاني من البحث إن شاء الله تعالى.

57 في كتابه: "اللسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللغة"، ص/ 121.

النحو العربي يختلف كثيراً عن علمِ النحو اليوناني، فقد اعتبر كثير من الباحثين الأجانب النحوَ علماً عربياً أصيلاً نَبت في أرض العرب "كما تنبت الشجرة في أرضها".

هذا فضلاً عن انعدام التشابه بين النحوين العربي واليوناني. فأقسام الكلام عند العرب ثلاثة: اسمٌ وفعل وحرفٌ، وهي عند اليونان ثمانية، ولا يوجد أدنى تشابه في علم الصرف وسائر علوم اللسان بين اللغتين. والمعروف ان العربية أقدمُ من اليونانية، إن لم يكن في صورتها القرآنية أو الجاهلية، ففي صورتها السامية (اليمنية القديمة)، كما سنرى في "فصائل اللغة" بحول الله.

## بابُ القول على أصل اللغة: أَإلهامٌ هي أم اصْطِلاح؟

عرض ابن جني ثلاث نظريات في هذه القضية: التوقيف والمواضعة والمحاكاة. وهذا يذكرنا بما رأيناه عند "أفلاطون" في محاورته. غير أن النقاشَ الطويل الذي ساقه أبو الفتح حول الموضوع لم يهده إلى رأي يَطمئن إليه، حيث لم يستطع ترجيحَ رأي من هذه الثلاثة. قال: [58]

"هذا مَوضعٌ مُحْوِجٌ إلى فَضل تأملٍ، غيرَ أن أكْثرَ أهل النّظر على أن أصلَ اللغة إنما هو تَواضعٌ واصطلاح لا وَحيٌ وتوقيفٌ. إلا أن أبا عليٍّ (الفارسي، أستاذه) رحمه الله (288-377هـ) قال لي يومًا: هي من عند الله واحتجَ بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..﴾ وهذا لا يتناول موضعَ الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويلُه: "أقْدَرَ آدمَ على أن واضعَ عليها"، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مُستنكَر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضاً قال به في بعض كلامه. وهذا أيضاً رأي أبي الحسن (الأخفش- ت/221 هـ)،

---

[58] الخصائص، 41/1

على أنه لم يمنعْ قول من قال: "إنها تَواضعٌ منه". على أنه قَد فُسِّر هذا بأن قيل: إن الله سبحانه علم آدم أسماءَ جميع المخلوقاتِ بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرية والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات. فكان آدم وولدُه يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرَّقوا في الدنيا، وعَلِق كل منهم بلغةٍ من تلك اللغاتِ فغلبتْ عليه، واضمَحل عنه ما سواها لُبعد عَهدِهم بها. وإذا كانَ الخبرُ الصحيحُ قد وردَ بهذا وجبَ تلقيهِ باعتقاده ".

وفي الجواب عن الاعتراض التالي: لماذا خَصَّت الآيةُ الشريفة الأسماءَ دون الأفعال والحروف؟ يردُّ ابن جني بأن الأسماءَ أَقوى الأنواع الثلاثة، ولا بدّ لكل كلام مُفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلةُ عن الحرف والفعل. فلما كانتِ الأسماءُ من القوة والأوَّلية في النفس والرُّتبةِ جاز أن يُكتفى بها مما هو تال لها ومحمول في الحاجة عليها.

وبعد ذلك يبينُ العلامة "ابن جني" طريقةَ "المواضعة" أو الاصطلاح في اللغة فيقول: "وذلك كأن يجتمعَ حكيمانِ أو ثلاثة فصاعِدًا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المَعلومات، فيضعوا لكل واحدٍ منها سِمةً ولفظًا إذا ذُكر عُرف به ما مسماه، ليَمتاز من غيره وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مِرآة العين... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومئوا إليه وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأيّ وقتٍ سُمع هذا اللفظُ عُلم أنّ المرادَ به هذا الضربُ من المخلوق، وإن أرادوا سِمَةَ عَينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يَدٌ عينٌ رأسٌ قدَم، أو نحو ذلك. فمتى سُمِعت اللفظةُ من هذا عُرف مَعنِيُّها، وهَلُمَّ جَراً فيما سِوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف. ثم لكَ من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها (من اللغات)، فتقول: الذي اسْمُه إنسان فليجعل مكانه "مَرْد" (بالفارسية) والذي اسمه رأس فليجعل مكانه "سَر"، وعلى هذا بقية الكلام... وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار والصائغ والحائك والبناء وكذلك الملاح...".

ثم يذكر ابن جني وجهاً ثالثا لأصل اللغة البشرية وهو محاكاة أصوات الطبيعة، ويراه "وَجها صالحاً ومَذهبا مُتقبّلاً"، كدَويِّ الريح وحَنين الرَّعد وخرير الماء وشَحيج الحِمار ونعيق الغراب، وصَهيل الفرس ونزيبِ الظبي ونحو ذلك. ثم وُلدت اللغاتُ عن ذلك فيما بعد".

ويبدو أن مَذهب أبِي الفتح هو التوقُّفُ في معرفة أصل اللغات، إذ يفهم من كلامه في نهاية هذا الباب حيْرته وعدمُ الترجيحِ بين نظريتيْ الاصطلاح والتوقيف.

ونشيرُ في النهاية إلى أن علماءنا –سوى ابن جني – اختلفوا حول ما عُلِّمه أبو البشرية عليه السلام قبل أن يَنزل الى الأرض.

قال "ابن فارسٍ" (ت/392 هج): [59]

"إن لغة العرب توقيفٌ، ودليل ذِلكَ قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فكان ابن عبّاس يقول: "علّمه الأسماء كلّها وهي هَذِهِ الّتي يتعارَفُها الناس من: دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذِلكَ من الأمم وغيرها". وروى خُصَيْف عن مُجاهد قال: "علمه اسم كلّ شيء". وقال غيرهما: إنما علّمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علّمه ذرّيته أجمعين".

ويقول الإمام ابن حزم: [60]

---

59 "الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها"، باب "القول على لغة العرب: أتوقيف، أم اصطلاح" ص/12، تحقيق محمد علي بيضون، الطبعة الأولى 1418هـ-1997م.

وابن فارس كما جاء في "وفيات الاعيان" لابن خلكان هو: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي اللغوي؛ كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها. ومن كتبه "المجمل في اللغة"، "حِلية الفقهاء"، وله رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، يحاجي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب "المقامات" ذلك الأسلوب، توفي سنة 390 هجرية بالريّ.

60 "الإحكام في أصول الأحكام" 31/1.

"فَصَحَّ أنه توقيفٌ من أمر الله عز وجل وتعليمٌ منه تعالى، إلا أننا لا نُنكر اصطلاحَ الناسِ على إحداث لغاتٍ شتى، بعد أن كانت لغةً واحدة وُقفوا عليها بما عُلموا ماهيةَ الأشياء وكيفياتِها وحدودَها، ولا ندري أيَّ لغة هي التي وقف آدمُ عليه السلام عليها أولاً، إلا أننا نقطعُ على أنها أتمّ اللغات كلها وأبيَنُها عِبارةً، وأقلُها إشكالاً، وأشدُّها اختصاراً وأكثرها وقوع أسماء مختلفة علَى المُسميات كلها، المختلفة من كل ما في العالم من جَوهر أو عَرض لقول الله ﷻ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ﴾، فهذا التأكيد يرفعُ الإشكال ويقطعُ الشَّغب فيما قلنا».

وفي السُنة النبوية المشرفة ما يشير إلى هذا أيضاً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قال رسولُ الله ﷺ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ، فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ. . .) [رواه ابن حِبان وأصحابُ السنن من حديث طويل، بسند صحيح] .

ونشير في النهاية أن من الدارسين الغربيين من امتنع عن الخوض في أصل اللغة البشرية وطبيعتها لأنها مسألة متجذرة في التاريخ وتحتاج أدلةً قطعية. ونكتفي في هذا الصدد برأي اللغوي الفرنسي "فندرس" *Joseph Vendryes* (1875–1960م) الذي يؤكد أن هذه لا تدخل في اختصاص العالم اللغوي، ولا يدلي حولها إلا بإشارات يحوطها الحذر الشديد . يقول: [61] " إن اللغويين يدرسون اللغات التي تُتكلم والتي تُكتب، ويتتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوثائق التي كُشف عنها، ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ، فإنهم لا يصلون إلا إلى لغاتٍ قد تطورتْ وتركتْ خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه

---

61 "اللغة، مدخل لساني إلى التاريخ "، ص/29- 31.

شيئًا . أما فكرةُ الوصول إلى إعادة بناء رَطانةٍ بدائية بمقارنة لغات موجودة بالفعل فَسَرابٌ خدّاع. . . فالعالِم اللغويُّ سواء ألْجأَ إلى أقدم اللغات المعروفة أم إلى لغات البدائيين أم إلى اللغات التي يتعلم الأطفال بها الكلام، فلن يجد أمامه في كل حال إلا بُنيانا شُيِّد منذ زمن طويل، وتعاقبَ على العمل فيه أجيال عديدة خلال قرون طويلة. فتبقى مسألة أصل الكلام خارجة عن نطاق خبرته.

## ثانياً: المَلَكة اللسانيّة عندَ ابنِ خَلْدون

عرَّف العلاّمةُ عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله (ت/ 808هـ) [62] اللغةَ في "مقدمته" بقوله: «اعلم أنّ اللغة في المتعارَف هي عِبارة المتكلّم عن مقصوده».

ثم يشرح التعريفَ فيقول: «وتلك العبارةُ فعل لِساني ناشئٌ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بدّ أن تصيرَ مَلَكةً مُتقرِّرةً في العضو الفاعل لها وهو اللّسان، وهو في كل أمّة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملَكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسنَ الملَكات وأوضحَها إبانةً عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعيّنُ الفاعل من المفعول من المجرور -أعني المضاف- ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال -أي الحركات- إلى الذوات من غير تكلّف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلاّ في لغة العرب. وأمّا غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بدّ له من ألفاظ تخصّه

---

62  هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد الإشبيلي، (732 – 808 هـ) الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشؤه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ثم توجه إلى مصر. اشتهر بتاريخه المسمى: (العبر وديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وتعد من أصول علم الاجتماع. وله أيضا: (شفاء السائل لتهذيب المسائل) و (شرح البردة) ورسالة في (المنطق) وله شعر.

بالدّلالة، ولذلك نجد كلامَ العَجم في مُخاطَبَاتِهم أطولَ ممّا تقدّره بكلامِ العرب. وهذا هو معنى قوله ﷺ «أوتيتُ جوامعَ الكَلِم، واخْتُصِرَ لِيَ الكلامُ اختِصاراً» [63] ، فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات –أي الأوضاع– اعتبارٌ في الدّلالة على المقصود غيرَ متكلّفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما هي مَلَكةٌ في ألسنتهم يأخذها الآخِر عن الأوّل كما تأخذ صِبيانُنا لهذا العهد لغاتِنا». [64]

## المَلَكاتُ لا تحصُل إلّا بتكرار الأفعال

ويشبّه ابن خلدون اللغاتِ بالصناعة، أي أنّها تُتعلم كما تُتعلم كل الصناعات. والمَلَكة عنده صفةٌ راسخة في النفس تُمَكِّنُ الإنسانَ من القيام بالأعمال العائدة إليها، فهي مَهارة تُكتَسب عن طريق التعلم، وتحْدُث عن طريق الممارسة، قال: « والمَلَكاتُ لا تحصل إلّا بتكرار الأفعال، لأنّ الفعل يقع أوّلاً، وتعود منه للذات صفة ثمّ تتكرّر فتكون حالا.. وهذا هو معنى ما تقوله العامّة من أنّ اللّغة للعرب بالطّبع أي بالملكة الأولى الّتي أُخِذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم».

ثم يبين ابن خلدون كيف أن الفساد قد دبَّ إلى لسان مُضر [65] (المَلَكة الأولى) وقلّت السليقة اللغوية في العرب، ثم أَرشَد الى سُبل تعليم اللسان العربي فقال:

«اعلم أنّ ملكة اللّسانِ المُضريّ لهذا العهد قد ذهبتْ وفسدَت، ولغةُ أهل الجيل كلّهم مغايرةٌ للغة مُضرَ الّتي نزّل بها القرآن، وإنّما هي لغة أُخرى من امتِزاج العُجْمة بها كَما قدّمناه. إلّا أنّ اللّغات لَما كانت مَلَكاتٍ –كما مرّ– كان تعلمها ممكناً شأنَ سائر

---

63 جزء حديث صحيح، وليس فيه زيادة "واخْتُصِرَ لِيَ الكلامُ اختِصاراً".

64 "تاريخ ابن خلدون"، 753/1، ت: خليل شحادة. الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة 2، 1988 م

65 مُضر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدنان هو الجد السابع عشر للنبي ﷺ. ويطلق ابن خلدون على العربية "لغة مضر" لأنها هي الفرع الأكبر للقبائل العربية العدنانية، إلى جانب ربيعة، ويسمون "المضريين"، حتّى إنه يُستعاض أحياناً عن اسم العدنانية باسم المضرية، بمقابل القبائل المسماة باليمانية أو القحطانية.

المَلَكات. ووجهُ التّعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلَها أن يأخذ نفسَه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم: من القرآن والحديث، وكلام السّلف، ومخاطبات فُحولِ العرب في أسْجاعِهم وأشعارهم، وكلمات المُوَلّدينِ أيضا في سائر فنونهم، حتّى يتنزّل -لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور- مَنزلة مَن نشأ بينهم، ولقن العبارةَ عن المقاصد منهم، ثمّ يتصرّف بعد ذلك في التّعبير عمّا في ضميره على حَسب عباراِتهم، وتأليف كلماِتهم، وما وعاه وحَفظه من أساليبهم وترتيبِ ألفاظهم، فتحْصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رُسوخا وقوّةً، ويحتاج مع ذلك إلى سَلامَة الطّبع والتّفهّم الحَسَنِ لِمَنَازِعِ العَرب (أصولهم) وأساليبهم في التّراكيب، ومُراعاة التّطبيقِ بينها وبين مُقْتَضَياتِ الأحوال ».

مَلَكة اللسان غيرُ صِناعة العربية ومُسْتَغنِيةٌ عنها في التعليم

والسّبب في ذلك أنّ «صناعة العربيّة إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصّة؛ فهو عِلمٌ بكيفيّة لا نفس كيفيّة. فليستْ نفس الملكة وإنّما هي بمثابة من يَعرف صناعةً من الصّنائع عِلما ولا يُحْكمها عَمَلاً... وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإنّ العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علمٌ بكيفيّة العمل وليسَ هو نفسُ العمل، ولذلك نجد كثيرا من جَهابذة النُّحاة، والمَهَرة في صناعة العربيّة المحيطين علما بتلك القوانين، إذا سُئِل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مَوَدّته، أو شكوى ظُلامَة، أو قَصْدٍ من قُصوده أخطأ فيها عن الصّواب، وأكْثرَ من اللّحْن، ولم يُجِدْ تأليفَ الكلام لذلك، والعبارةَ عن المقصود على أساليب اللّسان العربيّ. وكذا نجَدَ كثيرا ممّن يُحسن هذه الملكة، ويُجيد الفنّين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئًا من قوانين صناعة العربيّة. فمن هذا تَعْلمُ أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربيّة وأنّها مستغنية عنها بالجملة».

وهكذا توصل العلامة ابن خلدون من خلال فصل: "علوم اللسان العربي" من "مقدمته"، إلى آراء لغوية متطورة يجدر التوقف عندها لتحليلها ومقارنتها مع بعض النظريات المعروفة الآن في مجال اللسانيات. . إن الجانب اللغوي في فكر ابن خلدون هام جداً، كالجانب الاجتماعي والسياسي، ومفهوم الملكة اللسانية –كما توسع فيه– يقارب مفهوم الكفاية اللغوية الذي اهتم به الأميركي تشومسكي *Chomsky* –كما سنرى بعد قليل– ولأجل هذا اعتُبر عبد الرحمن بن خلدون بشهادة المتخصصين رائدَ هذا الاتجاه. [66]

## ثالثًا: اللُّـغةُ وعَنَاصِرُها عند "دو سوسير"

اتجه "دو سوسير" *Ferdinand de Saussure [1857 – 1913]* [67] بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسةً وصفية تَزامُنية *synchronique* تهتم بالعلاقات المنطقية والنفسية للكلمات كما يعيها الضمير الجماعي. وكانت اللغات قبله تُدرس دراسةً تاريخية

---

66 للتوسع في هذه القضية يُنظر على سبيل المثال المؤلفات التالية:
–"ابن خلدون وليس تشومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية"، الدكتور سعود السبيعي، وهو بحث بالإنجليزية، مجلة جامعة ام القرى، عدد 10 سنة 1995م.
–"الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون"، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
و"ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية "، فتيحة حداد، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2011م.

67 

فردينان دي سوسير عالم لغويات سويسري، من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، ويعتبر مؤسس المدرسة البنيويّة في اللسانيات *structuralisme*، وكتابه "دروس في اللسانيات العامة" أصله محاضرات ألقاها في جامعة جنيف، وجمعها اثنان من طلبته بعد وفاته هما: كلود سيشيهاي *Claude Sechehay* و شارل بالي *Charles Bally* ، ونشراها سنة 1916، حيث اجتهدا في إعادة بنائها وتنظيمها . . .

تعاقُبية *diachronique*، تعالج عوامل التغيير التي تخضع لها اللغات في مسيرتها . وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسة اللغة هو اكتشاف السنسكريتية *Sanskrit* (لغة هندية قديمة)، ولذلك أعد "سوسير" دكتوراه حول "استعمال المُضاف المُطْلَق في اللغة السنسكريتية" *De l'emploi du génitif absolu en sanscrit* . وأَعدَّ سنة 1878م في باريس أطروحةً حول "نظام الحركات في اللغات الهندية الأوربية" *Mémoire sur le système primitif des voyelles indo-européennes* ، ولكن اللغوي السويسري سرعان ما تخلى عن بحوث اللغويات التاريخية، لأن أساسها في نظره غير مؤكد، وفكر في إعادة هيكلة اللغويات عامة، وبعد ذلك عرض نتائج أعماله في ثلاث محاضرات بجنيف بين عام 1906 وعام 1911م والتي نشرت ثلاث سنوات بعد وفاته. [68]

واللغة عند "سوسير" –كما وردتْ في كتابه "دروس في اللسانيات العامة" *Cours de Linguistique Générale* –: "نظامٌ من علامات يعبّر عن أفكار معينة" ( *La langue est un système de signes exprimant des idées* )، فهي أَشبه بالكتابة، ولغة الصم البكم، وصُور المجاملة، والشعائر الرمزية، والعلامات العسكرية. . .الخ، غير أنها أهمُّ هذه العلامات.

واللغة على هذا تشكل "بِنية" *structure* مستقلة يمكن أن تُدرس بمَعزل عن باقي أجزاء الكلام الأخرى، أيَ أنها نظام أو مستقل عن صانعه، أو الظروف الخارجية المحيطة به، وينظر إلى اليه من داخله، أي من خلال مجموعة وحداته المكونة له حيث تمثل كلاً قائماً بذاته. فاللغة شبكة واسعة من التراكيب والنُّظم، وهي أشبه شيء

---

68 *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov , Éditions du Seuil / paris. P 29*

برقعة الشطرنج التي لا تتحدد قِيَم قِطعها بمادتها المصنوعة منها، وإنما بمواقعها والعلاقات الداخلية بينها في هذه الرقعة.

فنظرةُ سوسير إلى اللغة نظرة تجريدية تعنى بنظام البنية العميقة *structure profonde* (الجملة في مراعاتها قواعد اللغة الأساسية)، لا بالبنية السطحية *structure de surface* (تركيب الجملة في عدم ارتباطها بهذه القواعد)، ولذلك سميت نظريته بالبنيوية *structuralisme* [69] وان لم يذكر هو لفظة "بنية" ولكن استعمل لفظة "نظام"

---

[69] "البنيوية" مَنهج فكري ظهر في بداية العشرينات من القرن الماضي، تستخدم في علوم مختلفة، وتقوم على دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر الأساسية المكونة لبنيات يمكن أن تكون: عقلية مجردة، لغوية، اجتماعية، ثقافية. . . مما يجعلها وثيقة الصلة بالنقد الأدبي وعلم الإنسان، وأغلب روادها من الفرنسيين. والبنيوية –مدرسةً فلسفيةً– بدأت في أواسط الخمسينات وبلغت ذِروتها في الستّينات والسبعينات، ثم أفل نجمُها بعد ذلك. وهناك أنواع من البنيوية:

كالبنيوية اللسانية *structuralisme linguistique* مع دوسوسير *Saussure* ومارتنيه *Martinet* وهلمسليف جاكوبسون وتروبوتسكوي وهاريس وبلومفيلد *Bloomfield* (الذي طور البنيوية التوزيعية) . والبنيوية السردية *Narratologie* مع رولان بارت *Barthes* وكلود بريمون وجيرار جنيت. والبنيوية الأسلوبية *stylistique* مع ريفاتير *Michel Riffaterre* و ليو سبيتزر spitzer وماروزو وبيير غيرو. والبنيوية الشعرية *Poétique* مع جان كوهن *Cohen* ومولينو وجوليا كريستيفا ولوتمان. والبنيوية السيميوطيقية *Sémiotique* مع غريماس وفيليب هامون وجوزيف كورتيس. والبنيوية النفسية *Psychanalyse Structuraliste* مع جاك لاكان *Lacan* وشارل مورون. والبنيوية الأنثروبولوجيا *Anthropologie* خاصة مع زعيمها اليهودي الفرنسي كلود لفي شتراوس *Lévi-Strauss* ، وفلاديمير بروب الروسي. والبنيوية الفلسفية مع جان بياجيه وميشيل فوكو وجاك دريدا *Derrida* ولوي ألتوسير *Althusser*. والبنيوية التكوينية *Genetic Structuralism* ذات الاتّجاه الماركسي، ومن روادها المجري جورج لوكاش *Georg Lukács* والفرنسيان: لوسيان غولدمان *Lucien Goldmann* اليهودي الروماني الأصل، وبيير بورديو.

ولمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع ينظر:

أو "نَسَق"، غير أن أنصاره بعده فضلوا مُصطلح "بنية". فالقيمة اللغوية عند سوسير تعيّنها مجموعة العلاقات بين الكلِم، ولا يمكن فهمُها إلا في ضوء هذه العلاقات، فالعلاقة المتبادلة بين الدال والمدلول –مثلاً– تجعل كل واحد منهما يستدعي الآخر. وبهذا المَنهج استطاع "سوسيرِ" أن يستغني عن التقسيم التقليدي للنظام اللغوي (الأصواتُ والنحو والصّرف والدلالة). وكل عُنصر في داخل هذا النظام يحدد العناصر الأخرى، وفي الوقت نفسه يخضع للترتيب الأفقي للجدول النحوي المعين، أو الجنس النحوي للعنصر، أهو: اسم أم فعل أم حرف، وهل هو: معرفة أم نكرة... الخ

## ثنائية اللغة والكلام

فرّق "دي سوسير" في ثنائيته (*dualité*) بين: اللغة *Langue* والكلام *Langage*



الكلام



اللـغة

فاللغةُ مجموعةُ قواعد يتعلّمها أفرادُ مجتمع لغوي معيّن، وتكون مستقرّةً بشكل تجريدي في أذهانهم، أو هي تلك القواعد الصوتية *phonétiques* والتركيبية *syntaxiques* والصرفية *morphologiques* والدلالية المعجمية *sémantiques* فإذا تكلّم الفردُ لغته فلا بدّ أن ينضبط بهذه القواعد صوتياً ونحوياً وصرفياً ودلالياً وإلاّ اعتُبر مخطئاً.

---

- "البنيوية"، جان بياجي *Jean Piaget* تعريب: عارف منيمنة وبشير اوبري، منشورات عبيدات، بيروت، الطبعة الرابعة.
- "الاتجاهات الأساسية في علم اللغة"، لرومان ياكبسون، ص/28 وما بعدها.
- "عصر البنيوية"، إديث كريزويل *Edith Kurzweil* تعريب د. مصطفى ناصف، الكويت، الطبعة الاولى سنة 1993م.

أما الكلام –سواء أكان منطوقاً أم مكتوبا– فهو التحقيق الفِعْلي لتلك القواعد السابقة من المتكّلم عن طريق صياغتها في جُمل وتعابير، وتوظيفها ومُمارستها بشكل واقعي.

وانطلاقاً من هذا فالكلام ظاهرة شخصية أو سلوك فردي خاص، بينما اللغة ظاهرة اجتماعية عامة. اللغةُ شيء مجَرَّد ومستقّل عن المتكّلم، عكس الكلام الذي يتوّقف على إرادة المتكّلم وذكائه. فكلّ واحد منّا يملك هذه القدرة (*compétence*)، عَربيا كان أم أعجميا . . .

فالكلام –حسب دي سوسير– ما هو إلا وجه من أوجه النشاط الإنساني، أما اللغة فوعاء هذا النشاط وأداته، فهي عبارة عن رموز يستدعيها حدوث الكلام الفعلي، ويشترك فيها المتكلم والسامع: الأول إيجاباً بوصفه بادئا، والثاني سلبا باعتباره مستقبلاً. الكلام شيء عابر سريع الزوال، والحدث اللغوي لا يستغرق أكثر من لحظات. اما اللغة فثابتة نسبياً إذا قورنت بالكلام، وبالرغم من خضوعها للتغيير والتطور فهي تسير ببطء شديد في هذا الاتجاه، كما ان بعض التغييرات الرئيسة التي تصيبها قد تستغرق أجيالا بل قرونا حتى تنضج وتستقر. أضف إلى ذلك ان الكلام نشاط مُتعمد، بينما تفرض علينا اللغة من الخارج، ويكتسبها الفرد بطريقة سلبية، ويكون ذلك عادة في مرحلة الطفولة. كما ان اللغة لا تتغير تبعا للمزاج الفردي، وأي تغيير لا بد فيه من موافقة الجماعة الناطقة بها . .

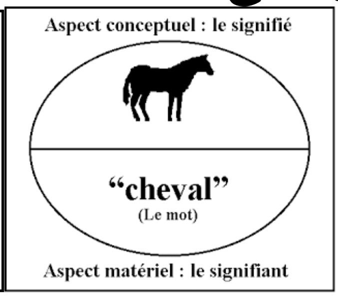
والذي يجعل اللغة حقيقةً مادية انما هو الكلام الفعلي، كما ان تحليل النطق الفعلي هو الذي يكشف عن تلك الوحدات التي تكوّن النظام اللغوي. وبهذا يتبين ان عملية

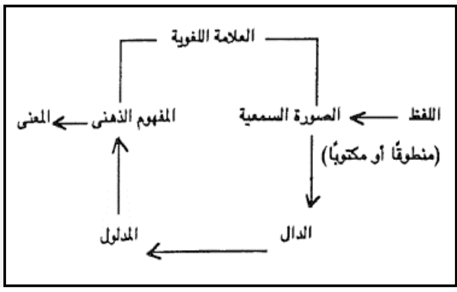
الكلام لها جانبان: احدهما مادي ***physique*** وهو الأصوات المنطوقة، والثاني ذهني أو قلبي ***mental*** ، وعلى هذا ينبغي ان يسير التحليل اللغوي في خطين متوازيين. [70]

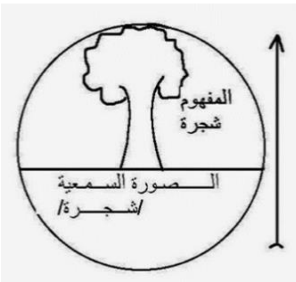
والخلاصة ان "الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلامُ سلوك واللغة معايير هذا السلوك، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة، والكلام يُحَسُّ بالسمع نطقًا والبصر كتابةً واللغة تُفهم بالتأمل في الكلام. فالذي نقوله أو نكتبه كلام، والذي نقول بِحَسَبه ونكتب بحسبه هو اللغة، فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب، واللغة هي الموصوفة في كُتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها. والكلام قد يَحدث أن يكون عَملًا فرديًّا، ولكن اللغةَ لا تكونُ إلا اجتماعية". [71]

## ثنائية الدال والمدلول

الكلمةُ داخل نظام لغويّ –عند سوسير– ما هي إلا علامةٌ لغويةٌ ***signe linguistique*** ذاتُ كيان ثنائي يتكون من الدالّ ***signifié*** والمدلول ***signifiant*** فالدال يقابل الصورة السمعية (المادية) ***image acoustique*** أي مجموعة الأصوات المنطوقة، أما المدلول فيقابل الفكرة ***idée*** أو المحتوى الذهني للدال، وكلاهما يحوي طبيعةً نفسية، ويتحدان في الدماغ:




70 بتصرف من: "دور الكلمة في اللغة"، ستفن أولمان، ص/30-31، ***Words and their use, Stephen Ullmann*** تعريب د. كمال بشر، مكتبة الشباب بالقاهرة.

71 "اللغة العربية معناها ومبناها"، ص/32، د. تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط/5 2006م.

والإشارة اللغوية اعتباطية *arbitraire* أي لا علاقةَ منطقية تربط بين دالها ومَدلولها: بين العناصر الصوتية للكلمة وبين معناها، بل هي علاقة أوجدها الانسانُ عن طريق التواضع، وصارتْ بحكم التكرار كأنها طبيعية، وقيمةُ كل علامة منها تتوقف على وجود العلامات الأخرى، فمثلا كلمة "أب" ليس فيها ما يدل على معنى الأبوة بصفة طبيعية، بل يظهر معناها من خلال العلاقات المرتبطة بها، مثل مدلول كلمات: "أم" و"ابن" و"بنت" و"أخ"...[72]

و كانت علاقة الاسم بالمسمى عند قدماء الفلاسفة -كأفلاطون- علاقةً طبيعية تعكس فيها الكلمات أصواتاً طبيعية وتحاكيها، لأن الأسماء عبارة عن أدوات نسمي بها الأشياء، فهي من واضع اللغةِ الذي يَضعُ الأسماءَ على نحو طبيعي، وبحسب الخصائص التي تحملها تلك الأشياء.

## اللغةُ أم اللّسان؟

ويقول جون ليونز "*John Lyons*" في كتابَه "اللغة وعلم اللغة" *Language and linguistics*

72 "علم اللغة العام"، فردينان دو سوسير، ص/ 85، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية بغداد سنة 1985. وانظر مزيدا من التفصيل حول نظرية سوسير اللسانية:
- "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي" ل"بريجيت بارتشت"، ص/ 83-114، تعريب د/ حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، 2004م.
- و"فردينان دوسوسير: تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات"، تأليف جوناثان كلير، ترجمة محمود عبد الغني، المركز القومي للترجمة – القاهرة، 2000م.
- "القاموس الموسوعي لعلوم اللغة" *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov, Éditions du Seuil / paris*.

«وأول ما يلاحظ مِن السؤال: "ما اللغة؟" أنه عند صياغته باللغة الإنجليزية *What* » *is Language?* » تستخدم كلمة اللغة *"Language "* في المفرد وبدون أداة التعريف، وصياغة السؤال بهذا الشكل يختلف نحويا –إن لم يكن دلاليا– عن السؤال الذي يشبهه من حيث الظاهر *"What is a Language ?"* . وتحتوي لغات أوروبية على كلمتين، وليس كلمة واحدة، لترجمة الكلمة الإنجليزية **Language**، ففي اللغة الفرنسية *Langue* و *Langage* وفي اللغة الإيطالية *Lingua* و *Linguaggie*، وفي اللغة الإسبانية *Lengua* و *Lenguaje*.

وفي كل حالة يرتبط الاختلاف بين الكلمتين بالاختلاف الموجود في معنيي الكلمة الإنجليزية *Language* . فعلى سبيل المثال تستخدم في اللغة الفرنسية كلمة **Langage** لتشير إلى اللغة بصفة عامة، وتنطبق كلمة *Langue* على اللغات المحددة، ولا تسمح الإنجليزية للمتكلمين بها بأن يقولوا عن شخص: *He Possesses a Language* (إنه يمتلك لغة) الإنجليزية، الفرِنسية، الصينية. . . فحسب، ولكن أيضا *He possesses Language* (إنه يمتلك اللغة) . [73]

وفي العربية تُستعمل كلمة "لسان" للدلالة على عُضو النطق وعلى اللغة أيضا، وفي العبرية كلمة "سفاه" تستعمل للدلالة على اللغة وعلى الشفة، وكذلك "لاشُون"، ولفظ "زبان" في الفارسية يعني "اللغة" و"اللسان". . .

## خامساً: نَظرية "تشومسكي" اللُّغَويَّة

73 ص/2 وما بعدها، ترجمة مصطفى التوني، القاهرة: 1987م. ويعد "جون ليونز" من أهم اللغويين المعاصرين في بريطانيا، من كتبه: "علم اللغة التركيبي" 1963م، و"علم اللغة النظري" 1968م، و"آفاق جديدة في علم اللغة"

اللغة عند تشومسكي *Chomsky* [74] "مجموعةٌ محدودة أو غير محدودة من الجمل، كل جملة محدودة من حيث الطول، وتتركب من مجموعة محدودة من العناصر ***Language is a set (finite or infinite) of sentences, each finite in length and constructed out of a finite set of elements.*** هذه العناصر المحدودة تساعد على الإبداع غير المحدود، فإذا كانت الأنماط اللغوية يمكن حصرها مثل: (فعل + فاعل + مفعول به) فالجمل التي يمكن أن توضع في هذه الأنماط لا يمكن حصرها، لإنها غير محدودة.

وهذا التعريف مأخوذ من كتاب تشومسكي "البنيات النحوية" *Syntactic Structures* الذي أحدث نشرُه –مُنتصفَ القرن العشرين– الحركةَ التي عُرفت باسم "النحو التحويلي" *transformational grammar* ، ويقصد هذا التعريف – بخلاف التعريفات السابقة– تغطية جوانب كثيرة من اللغات الطبيعية، وأنها كلها– تبعاً



74 أفرام نعوم تشومسكي *(Avram Noam Chomsky)* (مولود في 7 ديسمبر 1928 فيلادلفيا)، أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي، وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. ويلقب بأبي اللسانيات الحديثة. ويعود إلى الى تشومسكي كذلك فضل تأسيس ما أصبح يُعرف بـ "تراتب تشومسكي"، و"نظرية النحو الكلي" و"نظرية تشومسكي– شوتزنبرغر. وقد اطلع تشومسكي مبكرا على النحو العربي والعبري، ولعله تأثر بهما في بناء نظرياته، فهو يهودي الأصل، ورسالة تخرجه كان عنوانها: «دراسة التركيب الصوتي للوحدات الصرفية في اللغة العبرية الحديثة». وهو إلى اليوم من أكبر مناصري القضية الفلسطينية، وكان صديقا حميما للمفكر الفلسطيني ادوارد سعيد(ت/2003) صاحب موسوعة "الاستشراق"..
تشومسكي كاتب غزير الإنتاج، متعدد المجالات، له ما يربو على 150 كتابا. ومن أشهر مؤلفاته في مجال اللسانيات: "البنى التركيبية أو التراكيب النحوية" سنة 1957– "البنية المنطقية للنظرية اللسانية" 1975 – "ملامح النظرية التركيبية" 1965 –"اللسانيات الديكارتية" 1966 – "اللغة والفكر" 1968 – "دراسات الدلالة في القواعد" 1972 – "المعرفة اللغوية: طبيعتها، أصولها واستخدامها"...

لتشومسكي- في صورتها المكتوبة والمنطوقة لغاتٌ، ما دام لكل لغة طبيعية عَدد محدودٌ من الأصوات، وعدد محدود من الحروف الأبجدية، ومهمة اللغوي النظري الذي يفسر سؤال: "ما اللغة؟" -كأن معناه: ما اللغة الطبيعية- أن يكتشف -إن استطاع- الخصائص البنيوية التي تتميز بها اللغة الطبيعية عن تلك التي تقابلها وتسمى لغة غير طبيعية.

وتعريف تشومسكي يختلف كثيراً عن تعريفات اللسانيين الأخرى من حيث المحتوى والأسلوب، فهو لا يذكر شيئًا عن الوظيفة الاتصالية الخاصة باللغات الطبيعية واللغات غير الطبيعية، ولم يذكر شيئًا عن الطبيعية الرمزية لعناصرها، وغايته أن يركز الانتباه على الخصائص البنيوية البحتة للغات، وعلى أن هذه الخصائص يمكن أن تُبحث بطريقة واضحة وضوح الرياضيات. وإسهام تشومسكي الرئيس في علم اللغة تأكيدُه على ما يسمّى "تَبعيّة البنية" ***Dependence Structure*** أي العمليات التي تتركب من خلالها الجُمل في اللغات الطبيعية، وأنه صاغ نظرية عامة في النحو تأسست على تحديد خاص لهذه السمة.[75]

ولذلك يوصف تشومسكي بأنه "أب علم اللسانيات الحديث" فإليه يعود تأسيس نظرية "النحو التوليدي" ***Generative Grammar*** التي تُعتبر إسهاماً عظيماً في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين. وهذا النحو يختلف عن النحو التقليدي القائم على إعطاء أمثلة الاطراد النحوي مع ذكر حالات الشذوذ، فهذا النحو يقوم على أساس التوليد الرياضي القادر على احتواء اللامتناهي اللغوي، حيث يُصاغ في هيئة

---

[75] انظر تفصيل ذلك في: "نظرية تشومسكي اللغوية" لجون ليونز ***John Lyons*** ، ص/95 وما بعدها، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1985م.
ولمقارنة نظرية تشومسكي بأساليب النحو العربي ينظر "اللسانيات واللغة العربية" لعبد القادر الفاسي الفهري، منشورات عويدات - بيروت 1982م.

صِيَغ رياضية يمكن من خلالها توليدُ جميع تركيبات الجمل السليمة للغةٍ ما، ويعد أداة فعالة لتفسير الظواهر اللغوية: كحالات الحذف والإضمار، ووجوب التقديم والتأخير وجوازهما، وحالات اللبس التركيبي، وما شابه ذلك.

ويفترض النحو التوليدي التحويلي ثنائية البنية اللغوية *di-strata* بمعنى ان هناك بِنية ذهنية عميقة *deep structure* تشمل العناصر الكاملة للنظام اللغوي، تتحول إلى بنية سطحية منطوقة *surface structure* [76]، لذا فالنموذج اللغوي يتكون من مكونين أساسين هما: المكون التركيبي الذي تنتظم داخله عناصر البنية العميقة، والمكون التحويلي الذي يحدد البدائل الممكنة لبنيتها السطحية. فاذا أردنا مثلاً تمثيل الحدث اللغوي لهجوم مجموعة من اللصوص على مصرف في الليل وفقاً لمبدإ ثنائية البنية، ستشملِ البنية العميقة، الممثلة للصورة الذهنية المكونة للحدث: الفِعل والفاعل والمفعولِ به وزمنَ الحدث، بناءً على هذه البنية العميقة يمكن إخراجها على صورة أحد بدائل البُنى السطحية التالية:

- هاجمَ اللصوصُ المصْرفَ بالليل.		- هُوجِمَ المَصْرفُ مِن اللُّصوص ليلاً.

---

76 في مقال له بعنوان "البنية السطحية والبنية العميقة عند ابن جني" يرى د. عبد الله أحمد، (موقع الالوكة) ان ابن جني من أكثر النحاة واللغويين العرب الذين أولوا البنية العميقة اهتمامهم وعنايتهم الفائقة، وأن دراسته لها جاءت في مظاهر شتى؛ ولا تطابق مع ما ذكره شومسكي، ولكن الجوهر والمضمون متفق في معظمه. فكما قسم تشومسكي بنية الكلام إلى بنية سطحية وبنية عميقة، نجد ابن جني يقول بالظاهر والباطن، والظاهر والأصل، وغير ذلك.

وفي هذا الشأن يقول ابن جني في الخصائص: "ولا يستنكر الاعتداد بما لم يخرج إلى اللفظ؛ لأن الدليل إذا قام على شيء كان في حكم الملفوظ به؛ وإن لم يجر على ألسنتهم استعماله". ونفهم من كلامه أن البنية العميقة أو الباطن غير موجودة في الواقع بل هي في الدماغ مقدرة غير ملفوظة، ويقول: "وإذا أمكن أن تتأول اللفظة على ظاهرها لم يسغ العدول عنه إلى الباطن إلا بدليل، والدليل هنا إنما يؤكد الظاهر لا الباطن، فينبغي أن يكون العمل عليه دون غيره".

- المَصْرِفُ هَاجَمَهُ اللصوصُ بالليل.  - هُوجم المَصْرفُ ليلاً (بحذف الفاعل).
- اللُّصوصُ هاجَموا المصْرفَ بالليل.  - بالليلَ هاجَم اللصوصُ المصْرفَ. . .

واللغةُ العربيةُ لها الباعُ الأكبر في هذا المجال، ولها من التصرف في وجوه الكلام مع حسن الدلالة، ما لا يحصى من الشواهد: في باب التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير والفصل والوصل والقصْر والإيجاز والإطناب. . .

وما أكد عليه "تشومسكي" في عمله الأخير ليس حقيقة وجود هذه الخصائص البنيوية فحسب، ولكن كونها تجريدية ومعقدة كذلك، حتى إنه قد لا يمكن بدءُ تعلمها بعد الفترة التي يواجه فيها الطفل الصغير مشكلةَ اكتساب لغته القومية، ويجب أن تكون معروفةً لديه بشكل سابق عن خبرته، أي لغة طبيعية ومستقلة عنها، ومستخدمة منه في "عملية" اكتساب اللغة. .

ويعتقد "تشومسكِي" أن لدى الطفل مَلَكةً أو قابليةً فِطرية تُعينه على تعلم اللغة وإنشائها، –وهي نظرية المَلَكة اللغوية عند ابن خلدون كما رأينا– وذلك من خلال السماع وتكوين قواعد اللغة والقياس عليها لاحقاً. ويُطلق تشومسكي على هذه القُدرة في كتابه *Aspects of the Theory of Syntax* –المنشور سنة 1965م–، "جهاز اكتساب اللغة" (*Language-Acquisition Device "LAD"*) المتشكّل في دماغ الطفل في السنوات الثلاثة الأولى من عمره، حيث يُولد "مُبرْمجا" بالوراثة –كالحاسوب– بهذه الآلية التي تمكّنه مِن تعلم أي لغة بشرية. ويرى تشومسكي بأنٍ الأطفال يستخدمون بعض البِنيات اللغوية بدقة، وهذا يعني انها مطبوعة سَلَفاً في ذهنهم، و"جهاز اكتساب اللغة" هو الذي يقوم بترميز المبادئ الرئيسية للغة وهياكلها النحوية في دماغهم، وعلى الأطفال فقط تعلم المفردات الجديدة وتطبيق الهياكل النحوية لتكوين جملٍ جديدة. . فالأطفال يستطيعون التفكيرَ، وتكوينَ مَنطقٍ مبنيّ على السَّبب والمسبّب، وغيرها من القوالب المنطقيّة دون وجود العامل اللّغوي (لغة قومه). ويشير

تشومسكي إلى أن الطفل لا يمكنه تعلم اللغة عن طريق التقليد وحده، لأن اللغة المَحْكية من البالغين من حَوله قد تكون أحياناً غير سديدة أو مشوهةً تركيبياً ! [77]

وقد أفصح تشومسكي *Chomsky* في كتابه السالف الذكر (الأبنية النحوية) عن آرائه النقدية حول طبيعة اللغة، ووظيفتها وأساليب اكتسابها، ومنهج دراستها وتحليلها، وشنّ هجومه العنيف على البنيوية ***Structuralisme*** والبنيويين، والسلوكية ***Behaviorisme*** والسلوكيين في علم النفس، وخاصة عالم النفس السلوكي "سكِينر" ***Burrhus F. Skinner*** . لقد ضرب تشومسكي أسس المدرسة السلوكية في الصميم، وطرح النظرية التحويلية التوليدية بديلا عنها، الأمر الذي أثارٍ علماء النفس الذين يهتمون بظاهر اللغة لا بعمقها، ويفسرون اكتسابها تفسيرا آلياً، ولا يهتمون بالجانب الإبداعي فيها، وقد سيطرت عليهم تلك الأسس لفترة طويلة، فراحوا يُجرون الاختبارات على تلك النظرية، مما أدى إلى نقص العديد من جوانبها والخروج بنظريات جديدة تتعلق بإنتاج اللغة وفهمها، والخطوات التي يسير العقل الإنساني وفقا لها في عمليتي الإنتاج والإدراك اللغويتين. ويرى "تشومسكي" مثلا أن العلاقة الشرطية "المثير والاستجابة" غير صالحة لتفسير قدرة الانسان على التكلم. . . [78]

---

77 ينظر تفصيل ذلك في: "علم اللغة النفسي: تشومسكي وعلم النفس"، جوديث جرين، ***Psycholinguistics: Chomsky and psychology / Judith Greene*** الهيئة المصرية، 1993م.

78 المثير: هو المنبه أو المحرك الذي يوقظ في نفس الإنسان الإحساس والاتجاه نحو سلوك معين، بعد أن يلقى هذا المثير استجابة داخلية من الإنسان– غريزية أو عقلية. فصورة الأسد مثلا يثير الشعور بالرعب والخوف عند الإنسان. . . وقد تأسست المدرسة السلوكية ***Behaviorism school*** في العصر الحديث على يد "جون واطسون" *1878– 1958* ***John Watson*** ، وترى بأن السلوك هو استجابة أو نشاط قابل للملاحظة يقوم به شخص ما، كما تطرقت إلى موضوع أصلِ السلوك وهل هو وراثي أم بيئي؟ وقال "واطسن" قولته الشهيرة: "لو أخذتُ مجموعة أطفال بطريقة عشوائية، صحتُهم جيدة، ودربتُهم، لصنعتُ منهم التاجر، والطبيب، واللص. . ."، فمن المستحيل– حسب واطسون– أن يكون العامل وراثيا، ومن هنا جاءت المعادلة الرئيسية في المدرسة السلوكية:

إن المتعلم –حسب السلوكيين– يكتسب اللغة بفضل الإشراط، أي بواسطة سلسلة من الاستجابات للمُنَبهات، فهو حينئذ لن يمتلك سوى عددٍ محدود من الصياغات اللغوية، ولن يكون بمقدوره ابتكار صياغات جديدة، وسيكتفي بتكرار تلك التي سبق له سماعها وتعلمها .

ويشرح هذا الموقف اللساني بلومفيلد *Leonard Bloomfield (1887 - 1949)* –أحد زعماء هذا الاتجاه، وممثل البنيوية في أمريكا– بأن طفلا مثلا اذا رأى تفاحة، وأبدى رغبته في أخذها أو أكلها، فإنه يسلك إلى ذلك أحد طريقين: إذا كانت التفاحة سهلة المنال ولا عائق يمنعه فإنه يذهب بنفسه ويحصل عليها دون مساعدة خارجية. أما إذا لم يتمكن من الحصول عليها، أو تطلّب الأمر إذنا خاصا لذلك، فانه يلجأ إلى شخص آخر، فيصدر الطفل في هذه الحالة مجموعة من الأصوات مصوغة في قالب معين من التنغيم والإيقاع. . فاهتزاز الهواء الذي يصدره الطفل يصل إلى اذن السامع الذي سيستجيب لهذه العبارة إذا فهمها، وهذه الاستجابة في أبسط الحالات تظهر في صورة عملية كأن يلتقط السامع التفاحة بناء على طلب الطفل. [79]

هذا الموقف يفسره بلومفيلد في أسلوب سلوكي، أي أنه نظر اليه على انه مجموعة من المثيرات والاستجابات، وتكون هذه السلسلة بسيطة حين يلتقط الطفل التفاحة بنفسه، حيث تقوم التفاحة بدور المثير الخارجي، وحيث تستدعي استجابة خارجية حالية عملية. اما إذا تطلب الأمر مساعدة خارجية، فان المثير الخارجي (S) يستدعي رد فعل لغويا (R) يتمثل في نطق المتكلم مجموعة من الأصوات، وحينئذ تصل

---

المثير والاستجابة. وبالرغم مما أثارته أفكار واطسن بين القبول والرفض إلا أن المدرسة ازدهرت مدةً بفضل دراسات الروسي "إيفان بافلوف" *Ivan Pavlov* واختباراته التي أجراها على كلبه، ثم حاول تطبيقها على البشر. .

[79] دور الكلمة في اللغة، ص/ 20-21

الموجات الصوتية إلى السامع، وتعمل فيه مثيرا لغويا (S). وهذا المثير يؤدي بدوره إلى رد فعل خارجي عملي (R) من قبل السامع...

غير أن الواقع يؤكد أن كل متكلم قادر –في لغته الأصلية– على إنتاج صياغات لم يسبق له سماعها، كما رأينا سابقاً. فهو لديه كفاية، أي معرفة "إجرائية" (عملية) بالبنيات اللغوية، وهذه الكفاية هي التي تمنح المستمع القدرة على التحدث بشكل فوري، سواءٍ أكانت الجملة التي يسمعها لأول مرة صحيحة لغويا أم لا، حتى وإن لم يعرف سبباً لذلك.

وهكذا فإن الكفاية اللغوية التي يتحدث عنها تشومسكي ليست سلوكاً، إنها مجموعة قواعد توجّه "السلوكيات" اللغويةٍ دون أن تكون قابلة للملاحظة أو الوعي بها. فتشومسكيَ يُعطي الكفاية بعداً جديدا إذ يعتبرها مَلَكة "الانسجام و التلاؤم"، إنها تسمح بأن تصير الكلمات منسجمة و متلائمة حسب كل وضعية، إنها الاستعداد لحسن الدراية و المعرفة...[80]



## وَسائل الاتصَال غير الكَلاميَّة

### اللغةُ وعلمُ الإشارات "السيَميائيات" *La sémiologie*

وتُعد اللغةُ الطبيعية نظاما عَلاميا (ذا علامات) مميزا من بين الأنظمة العلامية الأخرى. فهي تختلف عن لغات: الحيوانات، والإشارة الجسمية، والصم والبكم، والمرور، والكشافة، والجيوش، والبحارة...الخ، وإن وُجدت خصائص تجمع بين اللغة الطبيعية وبين الأنظمة العلامية المذكورة تميزها عن الدلائل الطبيعية؛ كدلالة الغدير على نزول

80 بتصرف من "الكفايات في التعليم– من أجل تأسيس علمي للمنهاج المندمج"، محمد الدريج ، الدار البيضاء.

المطر، ودلالة الرماد على النار، فالغدران والرماد لا ينقلان إلينا أي رسالة ، وإن استنتجنا عند رؤيتهما نزول المطر أو وجود النار. وعن اللغوي الكبير الأصمعي أن أعرابياً سُئل عن وجود الله فقال: "البَعْرة تدل على البعير، وآثار السير تدل على المَسير، فسماءٌ ذاتُ أبْراج، وأرضٌ ذات فِجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا تدل على العليم الخبير؟". [81]

و"علم الإشارات" ويسمى أيضا "السيميائيات"، أو السيميولوجيا ***Sémiologie*** (***Sémiotique***)، هو الذي تكفل ببيان هذه اللغة الرمزية، لأنه العلم الذي يلاحظ ويحلل الطريقة التي بها يتخاطب الناس، فهو يدرس حياة العلامات (اللغوية أو الرمزية) داخل المجتمع، كما يرى دو سوسير، سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية، فالعلامات إما ان يضعها الإنسان اصطلاحا عن طريق اصطناعها والاتفاق مع أخيه الإنسان على دلالاتها ومقاصدها، مثل: اللغة الإنسانية ولغة إشارات المرور. . كما رأينا، أو هي موجودة في الطبيعة، أو عند الأنسان وتصدر بشكل عفوي منه، ولا دَخْل له فيها، كأصوات الحيوانات، وأصوات عناصر الطبيعة، والأصوات الدالة على التوجع والتعجب والألم والصُّراخ . . . [82]

ويُدخل علماء النفس الإشارات المعبرة عن الفكر في مفهوم اللغة، وتنقسم الى:

---

81 وَردتْ هذه العبارة في بعض كتب التفسير، كتفسير الرازي، 43/2. وابن الجوزي 266/1، عند قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

82 مقال عن "السيميولوجيا"، بتصرف من "ويكيبديا" القسم العربي. وللتوسع انظر الكتب التالية:

– "درس السيميولوجيا"، رولان بارط، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، ط/3 1993م.

– " ما هي السيميولوجيا ؟"، ب. توسان، *Bernard Toussain* ترجمة محمد نظيف، نشر افريقيا الشرق.

– "محاضرات في السيميولوجيا"، د. محمد السرغيني، دار الثقافة، الدار البيضاء.

❖ لغة طبيعية: *Langage naturel* لأنها عَفوية و لم تنشأ عن اتفاق مقصود بين الناس، وتشمل جميع الإشارات و الحركات و الأصوات و التعبيرات الجسدية المصاحبة للانفعالات ..

❖ لغة وَضْعية *Langage conventionnel* وهي الرموز والإشارات المتفق عليها، مثل رموز الجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء والطب وإشارات المرور وعلامات الموسيقى وغيرها .

❖ لغة الكلام *Langage articulé* وهي الألفاظ، و تعتبر طبيعية ووضعية في ذات الوقت، لأنها نتيجة استعمال تدريجي طويل، و قد تحول الإشارات الطبيعية إلى ألفاظ ذات معنى .

وتختلف اللغة باختلاف الإشارات المستعملة في التعبير، وتشمل كل الإشارات الصوتية الطبيعية والوضعية، وكذلك الإشارات غير الصوتية المعبرة عن الفكر، كلغة اللمس: وهي لغة فاقدي البصر. ولغة البصر: للصم والبكم. ولغة السمع: وهي لغة الكلام، وهي أرقى الأنواع الثلاثة. وإذا كان "دو سوسير" *De Saussure* يرى أن اللسانيات جزء من السيميولوجيا التي "تدرس حياة العلامات داخل المجتمع"، [83] فإن "رولان بارط" *Roland Barthes* في كتابه "عناصر السيميولوجيا" *Eléments de sémiologie* يرى بأن اللسانيات أعم من السيمائيات.

ومعنى هذا أن السيميولوجيا في دراستها مجموعة من الأنظمة غير اللغوية كالأزياء والطبخ والإشهار... تعتمد على عناصر اللسانيات في دراستها وتفكيكها

---

*Ferdinand de Saussure, Cours de Linguistique Générale, Paris, Payot, 1916, p.* ***33.*** 83

وتركيبها . ومن أهم هذه العناصر اللسانية عند "بارط": الدال والمدلول، واللغة والكلام، والتقرير والإيحاء، والمحور الاستبدالي الدلالي، والمحور التركيبي النحوي. [84]
ورغم أن اللغة الصوتية وسيلة الاتصال الشائعة بين الأمم إلا أن الإنسان يستخدم بجانب ذلك وسائل غير كلامية، بعضها قد يصاحب الكلام وبعضها الآخر مستقل عنه، منها: [85]

- ✓ الملابس والأزياء: وتستخدم للتعبير عن الأحوال النفسية كالملابس البراقة والجديدة والبيضاء في الأعياد ومناسبات الزواج والفرح، والملابس السوداء تعبير عن الحزن على موت عزيز. .
- ✓ الرسوم والصور: استخدم الإنسان التصوير والرسم منذ عصور سحيقة، ووجد على جدران الكهوف صور متنوعة دلت على أنها لم تكن جمالية بحتة وإنما كانت للاتصال وتبادل الرسائل. . واليوم أصبحت الصور لا غنى عنها في التعليم والإعلام والصناعة والدعاية. . .
- ✓ الإشارات والإيماءات: يستطيع الإنسان أن يصنع مئات الإشارات عن طريق استعماله حواسه. واللغة الإشارية تبدأ منذ الطفولة، وهي كذلك لغة الصُّم البُكم التي لا غنى عنها .
- ✓ النار والدخان: استخدمت النار وسيلة للاتصال في المجتمعات القديمة، فالعربي يشعل النار ليُبدي استعداده لاستقبال الضيوف، وقوة النار دليل على صدق كرم صاحبها، وكانت تشعل في قمم الجبال ليلا حتى يراها الضيفان من بعيد فيحلوا على

84 "درس السيميولوجيا"، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، البيضاء، ط/3 1993 .

85 بتصرف من " فقه اللغة"، د . سالم سليمان الخماش، ص/13 .

مضيفهم. قالت تماُضر بنت عَمرو بن الشريد (المشهورة بالخَنساء– ت/24 هـ) تمدح أخاها صَخْراً:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَارُ

أما ضعف النار فأمارة على البخل وقلة المروءة، قال الأخطل التغلبي يهجو قوم جرير:

قومٌ إذا استَنبحَ الأضيافَ كلبُهم قالوا لأمِّهمُ بولي على النار !

فتُمسكُ البولَ بُخلا لا تجودُ بـه ولا تَبـولُ لهم إلا بِمِقدارِ !

جاء في "ديوان المعاني" لأبي هلال العسكري (175/1):

"قالت بنو تميم ما هُجينا بشيء هو أشد علينا من هذا البيت. وهو يتضمن وجوهاً شتى جعلهم بخلاء بالقِرى وجعل أمهم خادمتهم يأمرونها بكشف فرجها، وجعلهم يبخلون بالماء أن يطفئوا به النار فيأمرونها بأن تطفئَها ببولها بينهم وبين المجوس لتعظيم المجوس النار إلى غير ذلك، وان نارهم من قلتها كانت تطفئها ببولها . . ."

واستخدم اليونان النار وسيلة للاتصال السريع أثناء الحروب، وقيل إن خبر سقوط "طروادة" *Troie* نقلت من بلاد الأناضول (تركيا) إلى أثينا *Athéna* بإشعال النيران على قمم الجبال.

✓ الطبول: يقال "دُقَّتْ طبولُ الحرب" لأنها كانت تستخدم وسائل للإنذار من العدو أو لحشد الجيوش والناس للحرب والغزو. وتستخدم الطبول أيضا لإشهار مناسبات الأفراح المختلفة. . .





# المَبْحَثُ الثَّالِثُ
# وَظَائِفُ اللُّغَةِ وخَصائِصُها

من أهم القضايا التي انكبت عليها اللسانيات الحديثة منذ ظهور كتاب "دو سوسير" السالف الذكر سنة 1916م قَضيةُ وظائف اللغة. ومن ثَم بدأ الدارسون في تتبع هذه الوظائف وترتيبها وتصنيفها، في ضوء نظريات وتصورات مختلفة. ومن بين الدارسين المهتمين بهذا الجانب: الألماني كارل بوهلر (*Karl Bühler 1879-1963*) والإنجليزي كارل بوبر (*K. Popper* 1902-1994) والروسي رومان ياكوبسون (*Roman Jakobson* *1896-1982*) والإنجليزي هاليداي (*M. Halliday* 1925-...) والفرنسي رولان بارط (*Roland Barthes 1915-1981*) وغيرهم.[86]

ويرى "كارل بوهلر" أن وظائف اللغة المرتبطة بالشخصِ المتكلم في علاقته بمجتمعه وثقافته ثلاثة، هي: الوظيفةُ التعبيريّة الانفعالية المرتبطةُ بالمُرسِل، والوظيفة التأثيرية الانتباهية المرتبطة بالمخاطَب، والوظيفة التمثيلية المرتبطة بالمَرْجِع. وكانت هذه الوظائف مَعروفة بشكل من الأشكال عند الفيلسوفِ اليوناني أفلاطون. ثم أضاف "كارل بوبر" في الخمسينات من القرن الماضي وظيفةً رابعة وهي الوظيفة الحِجاجيّة.

ويُقصد بالوظيفة اللغوية *Fonction* تلك المهمة التي يؤديها عنصر لغوي ما داخل مَلفوظ (مَنطوق) مُعين *énoncé*، أو داخل نص *texte* أو خطاب ما، مثل: الفونيم

86 "اللغة والتفسير والتواصل"، للدكتور مصطفى ناصف، الفصل الأول: وظائف اللغة، ص/9 وما بعدها، سلسلة عالم المعرفة، عدد 193، يناير 1995م.
وانظر كذلك مقالا بعنوان: "نظريات وظائف اللغة"، لجميل حمداوي، موقع "دروب".

***phonème*** (الصوت)، والمورفيم ***morphème*** (المقطع الصرفي)، والكرافيم ***graphème*** (الوحدة الخطية)، والمونيم ***monème*** (الكلمة المفردة)، والمركب ***syntaxe*** (العبارة أو الجملة) ***proposition, phrase***، والصورة البلاغية ***figure de style***، أو ذلك الدور الذي يؤديه العنصر السيميائي من رمز ***signe***، وأيقونة ***icone***، وصورة ***image***، ومخطط داخل سياق تواصلي معين ***contexte***. وهكذا . . .

فالفِعل بأنواعه له داخل الجملة وظيفة نحوية معينة، وكذلكٍ الفاعل ونائِبه، والمفاعيِل، والمبتدأ والخبر، والتوابع، والحروف، والظروف . . . فكل عنصر لغوي له وظيفة ما داخل وضعية تواصلية معينة. وقد تهيمن داخل جملة أو نص وظيفة محددة على بقية الوظائف، وهو ما نسميه الوظائف الأساسية والوظائف الثانوية في اللغة.

## نَظرِيّة وَظائفُ اللّغة عندَ "ياكبسون"

***Le modèle des fonctions du langage de Jakobson***

رأينا في الفصل الأول أن الفلاسفة يدعون أن وظيفة اللغة عقلية، وان النفسانيين يعتبرونها عملية نفسية، وان الاجتماعيين يرونها وظيفة اجتماعية بالأساس. ويتفق أغلب علماء اللغة على أن وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير أو التواصل، لكن بعضهم يرفض تقييد اللغة بهذه الوظيفة؛ ومنهم "رومان يكبسون" (1896-1982) ***Roman Jacobson*** [87] الذي يعود إليه الفضل في اكتشاف كثير من القوانين التي تعمل

---

87 انظر: "التواصل اللساني والشعرية"، ص/ 35 وما بعدها، الطاهر بومزبر، الجزائر، الاولى 2007م.

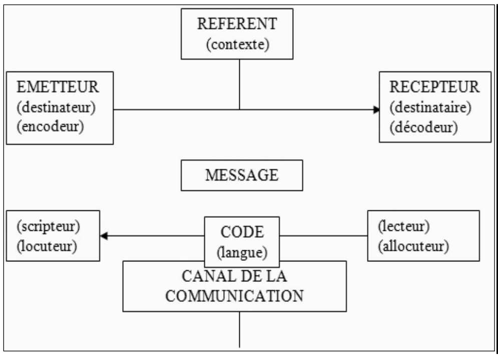


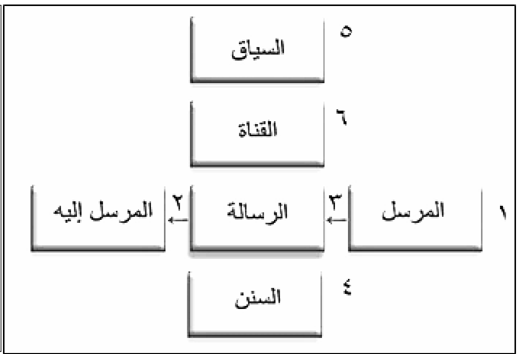



رومان ياكبسون عالم لغوي وناقد أدبي وشاعر روسي يهودي الأصل، أحد مؤسسي مدرسة براغ اللغوية عام 1933. في عام 1941 عمل في الجامعة الفرنسية في المهجر، وفي العديد من الجامعات كهارفارد ونيويورك، بالإضافة إلى مساهماته اللغوية المتعددة. اهتمامه: "السيميائيات"

بموجبها اللغاتُ البشرية. والنموذج الذي قدمه عام 1960م، – وسُمّي باسمه – يرى فيه بأن للغة وظائفَ أخرى غير التي تطرق إليها "بوهلر" *Karl Bühler* ، وانَّ وظائف اللغة تتوزّعُ بين الوظائف الداخليةِ للغة نفسها من جهة، وبين المتكّلم والمُخاطَب وأجزاء الرّسالة اللغوية من جهة أخرى، وهو بذلك يضيف إلى العلاقة بين المرسِل والمستقبل –التي ذكرها "بوهلر"– وظائف اجتماعية جديدة بالإضافة إلى الوظائف الجمالية التي تشعّ بها اللغة عند استخدام المُبدع لِمفرداتها .

ويرى ياكبسون أن دراسة اللغة دراسةً علمية لا تتم إلا من خلال معرفة هذه الوظائف المتنوعة. وقد أثبت ذلك في كتابه: "اللسانيات والشعرية" *Linguistique et Poétique* سنة 1963م، حيث أكد أن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، ورأى أن للغة ستّة عناصر أساسية تشكل دورةَ التخاطب *cycle de communication* ولكل عُنصر وظيفتُه الخاصة كما في الجدولين:



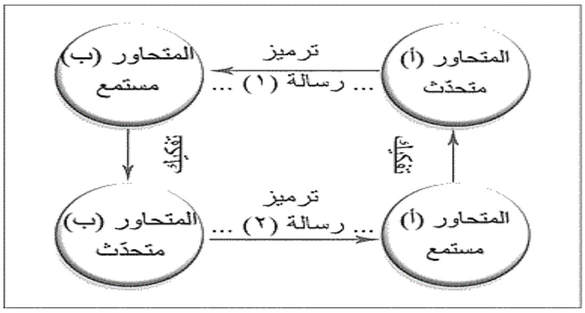

1– المُرسِل *Destinateur* (الباثُّ أو المتكلم)، ويعتبر ركنا حيويا في كل عملية تواصل لفظي بين المتكلمين.

2–المرسَل إليه *Destinataire* (المُستَقبِل او المُخاطَب) ويقوم بتفكيك السَّنن وفهم الخطاب الموجه اليه.

و"البنيوية" و"وظائف اللغة التّواصلية". ومن مؤلفاته: *Le Degré zéro de l'écriture, Linguistique Essais de Linguistique Générale, et Poétique*

3- الرسالة *Message* وهي الجانب الملموس في عملية التخاطب: صوتية أو خطية، وتتغير كثيرا في مدتها ومحتواها بحسب الظروف والمقامات التي تُقال فيها . . .

4- الرَّمز أو السَّنَن *Code*: [88] وهو نظام ترميز مُشترَكٌ كليًا أو جزئيًا بين المرسِل والمتلقي، ينطلق منه المُرسِل في الترميز (*codage*) ويعود إلى المرسَل إليه حين يفكّ رموز الرسالة (*décodage*) بحثًا عن القيمة الإخبارية التي شُحنت بها، فهو هام لنجاح هذه العملية:




5- السياق *Contexte* أو المَرجع *référent*

لكلّ رسالة مرجعٌ تُحيل عليه، وسِياقٌ مُعين مَضبوط قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئية أو تفكك رموزها السَّنَنية إلّا بالإحالة على الملابسات التي أُنجزت فيها هذه الرسالة، وقد يكون لفظياً أو غيرَ لفظي يمثِّل المحيطَ الذي وُجدتْ فيه الرسالة وتشكّلتْ أَبنيَةُ خِطابها اللفظي، فيتضمن الموقعَ *Site* أو الإطار الزماني- المكاني، والهدف *l'objectif*، والمشاركيْنَ في عملية التواصل *les participants* من حيث عددُهم ومميزاتهم وعلاقاتهم.

وأنماط المراجع (السياقات) الأساسية هي: "الموجودات" المعبر عنها بواسطة الاسم. و"الأحداث" المعبّر عنها بواسطة الفعل. و"كيفيات الوجود" المعبّر عنها بالصفة

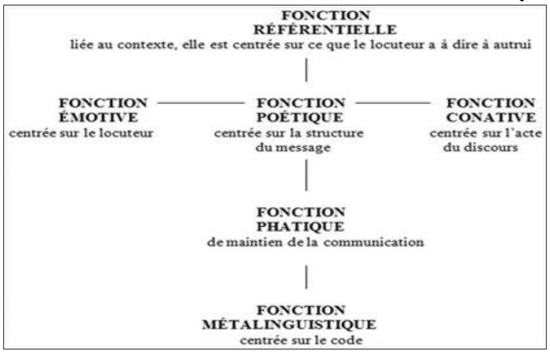
---

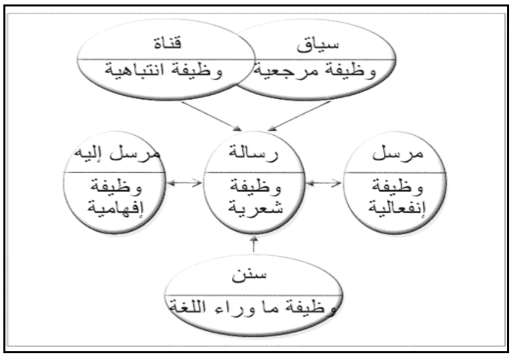
[88] مصطلح (*code*) في اللسانيات الغربية نقل الى العربية بألفاظ كثيرة مختلفة وأحيانا ملتبسة، منها: رَمز، سَنَن (بالفتح والضم)، شِفرة الاتصال، نظام، نمط، قانون، شيفرة، كود. . . ينظر: "معجم المصطلحات اللغوية" للدكتور رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م.

والحال. و"فضاء "الموجودات" المعبّر عنها بواسطة الظروف والحروف (التي تحدد مَوضع الأحداث).

6– القناة Contact–Canal هي الممر الفيزيولوجي بين المرسِلِ والمرسَل اليه الذي يسمح بانتقال الرسالة، عبر النطق المباشر (المتخاطبون وجها لوجه في وسيط هو الهواء). أو عبر قناة مرئية (إذاعة وتلفزة..) و عبر الكتابة (كتب، مجلات، رسائل، بريد إلكتروني...)

وكل عنصر من هذه العناصر تتولد عنه وظيفة لغوية مرتبطة به، كما يوضح الجدول الآتي:




1- الوظيفة التعبيرية: *la fonction expressive* أو الانفعالية *Emotive*

وِترتكِزُ على المُرْسِلِ لأن هدفَها التعبيرُ عن مَوقف المتكلم تجاه ما يَتحدثُ عنه، وتنزِعِ إلى تقديم انطباعٍ عن انفعال مُعينٍ صادقٍ أو كاذب. والتعبيرُ الانفعاليُّ قِسمان:

أ– التعبيرُ الانفعالي الخَالصُ عما يَختلجُ في الذات مَصدرِ الخطاب المُرْسَل، ويتجلي في رسالة ذات خطابٍ علمي، أو حديثٍ عادي، بحيث تنطبقُ في معظمها الدوال مع مدلولاتها.

ب– التعبيرات الانفعالية المتجاوزة لنقل الأحداث المباشر، والتي يُبدي المرسِل تجاهها مَوقفا مميَّزا يجعل الخطابَ المُنجزَ مِلكاً له. ومِعيارُ الصدقِ والكذب هنا ليس بالقياس إلى القيمة الإبلاغية التي تحملها الرسالة، وإنما من زاويةِ الالتزامِ بالواقع الموصوف، أو

التخلص منه في خطاب ما، لأنّ الشعرَ عند "يكبسون" نوعٌ من الكذب، ولا تدخل النية او الصدق في حسًاب الشاعرِ؛ وهذا يذكرنا بقول بعض القدماء من العرب: " أعذبُ الشعرِ أكذبُه" . [89]

فمن الناحية الأسلوبية تهيمنُ الوظيفةُ الانفعالية عندما يأخذ الكاتبُ أو الناظمُ المكانةَ المركزيةَ في النص، وتعبيرِه عن أفكاره ومشاعره، كما في أَدب السيرة أو شعر الفخر أو الغزل مثلا. . .

2- الوظيفة الإفهامية *La fonction conative*

وهي تتعلق بالمعلومات الجديدة التي تحملها رسالة المرسل، وقد تكون طلباً لحصول فعل أو لإنهائه. وتُعرف عند بعض اللسانيين كذلك بالوظيفة التأثيرية *La fonction impressive* وتظهر هذه الوظيفة على سطح الخطاب عندما تتجه الرسالة إلى المُرسَل إليه، وتتميز مِن الناحية التواصلية بأنها:

- ذاتُ طابع لفظي يَظهر في تركيبين بارزين في كل لغة إنسانية، وهما الأمر والنداء .
- ولا تقبل قيمتُها الإخبارية الإخضاع لأحكام تقييمية، لأنها ترَد في أسلوب إنشائي بمصطلح البلاغة العربية. وتهيمن هذه الوظيفة على الأدبَ الملتزم، والروايات

89 هذا قول طائفة من النقاد العرب القدامى، وطائفة أخرى ذهبت الى عكسِ ذلك، فالآمدي في (الموازنة) ينفي أن يكون مذهبُ العرب: "أعذبُ الشعر أكذبُه"، ويقول: "لا والله بل أعذبُ الشعر أصدقه". وقال ابن رشيق في كتابه (العمدة): "ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هي في معرفته بوجوه الإغراق والغلوّ (المبالغة في القول)، ولا أرى ذلك إلا مُحالا لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف. وقد قال الحُذاق: "خير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربَها وناسَبها" . والذي يترجح هو مذهب التفصيل؛ وذلك لحديث: «الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ» . قال الطبراني "لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ" . وصححه الشيخ الألباني.

العاطفية، لكون هذين النوعين الأدبيين يعتمدان على مخاطبة الآخر، ومحاولة التأثير فيه وإقناعه أو إثارته.

3- الوظيفة الانتباهية : *La fonction Phatique*

وترتبط هذه بأدوار خارجة عن الخطاب الإبلاغي، للمحافظة على سلامة الاتصال، والتأكد من استمرار سلسلة الرسائل الموجهة إلى المتلقي على الوجه الذي أُرسلتْ به. وهي الوظيفة الوحيدة التي يشترك فيها الإنسان مع الطيور الناطقة، والأطفال لأنهما لا يُبلغانِ مَعلومة.[90]

4- الوظيفة المرجعيّة *La fonction Référentielle*

وتتحقق هذه الوظَيفة في الرسالة الموجهة إلى "السياق" وتركزُ عليه، فيكون محتواها مؤيدا للأخبار الواردة فيها حيث أن اللغة فيها تُحيلنا الى أشياء وموجودات تتحدث عنها، ووظيفة اللغة فيها الرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلغة؛ فالرسالة التي تهيمن عليها الوظيفة المرجعية تتجه إلى تفسير نفسها بنفسها من حيث هي رموز معبّرة عن أشياء.

5- وظيفة "ما وراء اللغة" *La fonction métalinguistique*

تتجلى هذه الوظيفة في الرسائل التي يشعر فيها المتخاطبان أنهما بحاجة إلى التأكد من الاستعمال الصحيح للسَّنَن الذي يوظفان رموزه في عملية التخاطب. فالخطاب هنا مركز على السنن، لأنه يَشغل وظيفة "ميتالسانية" أي وظيفة شارحة. ويمكن تصنيف

---

[90] *Il y a des messages qui servent essentiellement à établir, prolonger ou interrompre la communication, à vérifier si le circuit fonctionne («Allo, vous m'entendez?»), à attirer l'attention de l'interlocuteur ou à s'assurer qu'elle ne se relâche pas («Dites, vous m'écoutez?») ou, en style shakespearien, «Prêtez-moi l'oreille!» –et à l'autre bout du fil, «Hm-hm!».*
*(R. Jakobson, Essais de linguistique générale, trad. par Ruwet, Paris, éd. de Minuit, t.1, 1963, p.217)*

هذا النوع من الخطابات ضمن الحديث عن الكلام نفسه، وهذا يحيلنا على قضايا أخرى تتعلق بالرصيد اللغوي الذي يتوفر عليه المتخاطبان من الناحية التركيبية والصرفية والدلالية. وتكثر الأنماط الخطابية التي تهيمن عليها الوظيفة "الميتالسانية" عندما تكون الرسالة في وضع خطابي تلقيني أو تعليمي...

6- الوظيفة الشّعرية *La fonction Poétique*

وهي أهم الوظَائف عند "ياكبسون" وترُكز على عنصر الرسالة، لكنها لا تُغفل العناصر الثانوية الأخرى، وتتحقق حسب يكبسون في الشعر خاصة. والشعرية عنده جزء من اللسانيات، وتهتم بدراسة الفن اللفظي في جميع مظاهره وامتّداداته، دون إهمال شعرية الخطاب العادي. واستيعاب هذه الوظيفة يقتضي عدم عَزلها عن المشاكل العامة للغة، ولا يمكن تحليل اللغة تحليلا دقيقا دون الالتفات إلى هذه الوظيفة الخطيرة.

ولما طُلب من ياكبسون أن يُقدم نظرة إجمالية عن العلاقات بين الشعرية واللسانيات، أجاب بأن موضوع الشعرية هو الجواب –قبل كل شيء– عن السؤال الآتي: "ما الذي يجعل من رسالةٍ لفظيةٍ أثرا فنّيا ؟". وبما أن هذا الموضوع يتعلق بالاختلاف النوعي الذي يَفصل فنَّ اللغة عن الفنون الأخرى، وعن أنواع السلوك اللفظية، فإن للشعرية الحقَّ في ان تحتل الموقع الأول من بين الدراسات اللغوية. إن الشعرية تهتم بقضايا البنية اللسانية، تماماً مثلما يَهتم الرسمُ بالبنيات الرسمية. وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل للبنيات اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات. [91] ولا

91 "قضايا الشعرية" لياكوبسون، ص/ 24، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء بالمغرب، سنة 1983م. وانظر كذلك الصفحة 210 وما بعدها من النص الأصلي من كتاب ياكوبسون "*Essais de linguistique générale*".

يعني هذا أن ياكوبسون يغفل الجانب "السميولوجي" فيها، فاللسانيات عنده هي العلمُ الذي يشمل كل الأنساق « *systèmes* » والبنيات اللفظية، ولكي تستوعب هذه البنيات، عليها ألا تُختزل في "الجملة"، أو أن تكون مرادفةً ل "النَّحو التقليدي"؛ فهي لسانيات الخطاب، أو لسانيات "فن الخطاب".

والنَّسَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ نِظام وَاحِدٍ، عامٌّ فِي الأَشياء، كحُرُوفَ النَّسَقِ. . ومَا جَاءَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى نِظام وَاحِدٍ. وتدل في المعاجم الأجنبية الحديثة على مجموعة من العلامات اللسانية والأدبية والثقافية التي تتفاعل فيما بينها وفق مجموعة من المبادئ والقواعد والمعايير. وتوجد نظرية غربية تدعى "نظرية الأنساق المتعددة" (*Polsystèmes*) تتجاوز النَّسق المغلق عند البنيويين السوسيريين، وتنفتح على نظرية تسمى بالبنيوية الديناميكية او الوظيفية. فنتحدث عن مجموعة من الأنساق الثقافية: كالنسق الأدبي، والفني، والديني، والتاريخي، والمجتمعي والسياسي.

## وظائف لغوية أخرى

وهناك وظائف كثيرة أخرى مبثوثة عند علماء "فلسفة اللغة" نذكر منها اثنتين فقط:

**1– الوظيفة الحِجاجية** ***La Fonction Argumentative***

رأينا في بداية هذا المبحث بأن "بوبر" أضاف هذه الوظيفة إلى ثلاث أخريات سابقة عند "بوهلر" هي: التعبيريّة الانفعالية، والتأثيرية الانتباهية، والتمثيلية. أما اللغوي

---

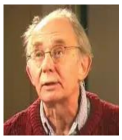
و لمزيد من التفصيل يرجوع ال كتاب: "التواصل اللساني والشعرية: مقاربة تحليلية لنظرية ياكبسون"، الطاهر بومزبر، الجزائر العاصمة، طبعة 2007م.

الفرنسي "ديكرو" *Ducrot* [92] فيرى بان وظيفة اللغة الأولى هي التأثير، فهي تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حِجاجية، وهي مؤشر لها على المستوى الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي. ودور اللغة التواصلي والإخباري ثانوي بالنسبة للغرض الحِجاجي، "فنحن –حسب ديكرو– نتكلم بصفة عامة بقصد التأثير". ونظرية الحِجاج *Théorie de l'argumentation* التي أسسها "ديكرو" مع الفرنسي *J-Claude Anscombre* نظرية دلالية حديثة تقدم تصورا جديدا للمعنى من حيث طبيعتُه ومجاله، وتُعطي أفكاراً ومقترحات عن عدد كبير من الظواهر اللغوية. [93]

2– الوظيفة السُّلطَوية:

يرى "رولان بارط" *Roland Barthes 1915-1981* بأن اللغة تقوم بوظيفة سُلطوية، وتتجلى سلطتُها إما على مستوى الشكل: فلا يمكن للفرد أن يمارس اللغة دون أن يخضع لضوابطها وقواعدها النحوية والتركيبية، وإما على مستوى المضمون: فإن تعلم الفرد اللغة يعني استبطانه لمختلف القِيم والمضامين الفكرية التي تختزنها اللغة بحيث تُصبح جزءاً من شخصيته وتمارِسُ عليه سلطةً سواء على مستوى القول أو الفعل.

---



92 *Oswald Ducrot* ولد عام 1930، لساني فرنسي وأحد أبرز المساهمين في الدارسات المتعلقة بالتداوليات (علم المقامية) *Pragmatics*، والتلفظ، وأسس مع *J-Claude Anscombre* نظرية الحِجاج *théorie de l'argumentation*. وألف بالاشتراك مع *J-Marie Schaeffer* "المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة".

93 "اللغة والحجاج"، ص/ 8 ، د. أبو بكر العزاوي، الطبعة الأولى 2006م . وانظر كذلك عن نظرية الحجاج بمفهومها الشامل (الفلسفي واللغوي والبلاغي..) كتاب: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". سلسلة آداب، فريق البحث في البلاغة والحجاج، بإشراف حمادي صمّود.

إن اللغةَ –في نظر رولان بارِط– سُلطة تشريعية وإلزامية قانونُها اللسانُ، وذلك بِفعل تكرار الكلمات المتداولة لدى أفراد المجتمع، إذ تُحدد هذه نُطقَنا وألفاظنا وتركيبَنا اللغوي لتصبح أداةً للضغط، ومُعبرة عن الخطاب الإيديولوجي السائد في المجتمع. هكذا تصيرُ اللغة تحت تأثير الطقوس والعادات وسيلة تخفي بها الذات المتكلمةُ ما تَود قولَه، أي أنها تتكلم في حدود ما يَسمح به المجتمع، ومن هنا لا تظهر قدرة الفرد الإبداعية إلا مِن خلال قدرته على الالتزام بقوانين النَّسق اللغوي العام، وبهذا يصبح الإنسان عَبدا للغة أكثر مما هو سَيدٌ لها .

وكثير من الفلاسفة يؤكدون على العلاقة الوطيدة بين اللغة والسلطة، في مجتمعات مليئة بكلمات وعلامات تداهم الفرد في وسائل الإعلام أو عبر أجهزة الإيديولوجيا والسلطة ذاتها . وإذا كانت اللغة من أفعال السُّلطة حَسب الفيلسوف الألماني "نيتشه" ***Friedrich Nietzsche*** (1844م– 1900م) أي أداة في يد الأقوياء والمهيمنين على التصنيف بين القِيم في المجتمع (الخير–الشر، النبيل–الحقير، القوي–الضعيف...)، فإنها مع الفرنسي غسدورف (1912م–2000م) ***Georges Gusdorf*** تعمل على توجيه الإنسان ليندمج في التراتبية الاجتماعية ***Hiérarchie sociale*** بحيث تَفرض عليه الاستعمال الصحيح للكلمات داخل النظام الذي ينتمي إليه، وفي الوقت نفسه تساعده على الخروج من ذاته والارتباط بالمحيط العائلي والانفتاح على العالم، ويُضطر –غالباً– إلى التخلي عن حياته الخاصة لمصلحة الوجود الاجتماعي الخارجي.




**وظائف اللغة عند مارتينيه** *André Martinet*

# المَبْحَثُ الرابع
# الفَصَائِلُ اللُّغـوِيَّـةُ

## تقسيم " ف. شليجل" (Friedrich Schlegel 1772-1829)[94]

**1- اللغات المتصرّفة أو التّحليلية *Langues flexionnelles***

وتمتاز هذه اللغات من الناحية التصريفية بتغير المعاني مع تصرف الكلمات، وأن الألفاظ فيها يشتق بعضها من بعض، ومن الناحية النحوية وتراكيب الجمل تَسْتَخدِم روابطَ وأدواتٍ تدل على مختلف العلاقات. ومن هذا النوع اللغات الأوربية، واللغات السامية، ومنها العربية التي بلغت من ذلك مبلغا فاقت به سائر اللغات؛ ففي العربية على سبيل المثال تقول من مادة (ش ر ب): شَرِبَ، يَشرب، شُرْبٌ، شارب، شرَّاب، مَشروب، شَرَاب، شُربة، مَشْرَب، مَشارب، شَروب، تَشراب، أَشْرِبة... وكل منها يدل على معنى. وتقول: "ركب محمدٌ وعليٌ القطارَ من طنجة إلى الرباطِ"، فتدل الضمة في محمد على الفاعلية، والفتحة في القطار على المفعولية، والواو على الرابط بين علي ومحمد، و من على الابتداء و إلى على الانتهاء الخ..

**2- اللغات الوصلية أو اللاصقة *Langues agglomérantes***

---



94 "فريدريش شليجل" *K. W. Friedrich von Schlegel* كاتب وشاعر وناقد ألماني، درس منذ عام 1793 الحقوق واللغات القديمة. ويعتبر المنظر الحقيقي للرومانسيين الأوائل. وقد استطاع شليجل أن يطور العديد من الأفكار وأسس مع شقيقه أوجوست فلهلم شليجل مجلة أتينيوم. وكانت حياته غير مستقرة، عمل خلالها في العديد من المناصب الجامعية.

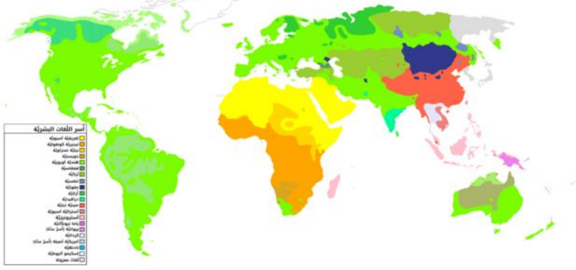
وهذه اللغات تتغير المعاني فيها عن طريق إضافة لواصق أو سوابق إلى الكلمات؛ لتحمل معاني جديدة. ومن أشهر لغات هذه الفصيلة: اليابانية، ولغات بدائية.

3- اللغات العازلة *Langues isolantes ou analytiques*

وهي لغات لا تتصرف الكلمات فيها، ولا تلحقها الإضافات، بل تمثل كل كلمة فيها فكرة معينة. ولا تعرف هذه اللغاتُ الأدواتِ النحوية، ولعل هذا هو السبب في تسميتها بـ: العازلة؛ لأن لكل كلمة دلالة خاصة، لا تقبل التغير. ومن هذه اللغات الصينية وكثير من اللغات البدائية.

ولم تلقَ هذه النظرية قبولاً عند العلماء، ووجهوا إليها اعتراضات أهمها: أن كثيراً من اللغات تعرف أكثر من قسم من الأقسام الثلاثة؛ فالعربية تعتمد اعتماداً كبيرا على الوصل والإلصاق كحروف المضارعة، وعلامات التثنية والجمع، وغيرها . ونجد فيها بعض الصيغ العازلة كالمثال الذي يسوقه النحويون: "أكرمَ مُوسَى عيسَى"، من وجوب تقديم الفاعل لوجود اللبس، لعدم وجود قرينة تدل عليه، ولو قدمت عيسى على موسى، أو على أكرم، وأنت تريد أن عيسى هو الفاعل لتغير المعنى.

ومع أن "شليجل" صنّف اللغات الهندية–الأوربية والعبرية في اللغات المتصرفة، إلا أن الواقع يشير إلى أنها ما زالت في الطور الثاني، لأنها تعتمد على اللصق في توليد كلماتها . أما العِبرية فوصلت إلى الطور الثالث بفضل اعتمادها على العربية، (القواعد والمفردات والأوزان، والخط في بعض مراحلها) . العربية إذن وحدها وصلت إلى قمة التطور اعتمادا على مقوماتها الذاتية.



## تقسيم "ماكس مولر" *Friedrich Max Müller (1823- 1900)*

تقسيم ماكس مولر [95] مُستمَد من العهد القديم (التوراة) الذي يزعم في "سفر التكوين" أن أصل جميع أجناس الأرض بعد الطوفان راجع الى أبناء نوح ﷺ سام وحام ويافث، ف"سام" وهو أبو السامين: العرب واليهود والسريان. . و"حام" أبو الحاميين: الزنوج والأفارقة. . . و"يافث" أبو الأوروبيين والأجناس الأخرى. .

وهذه النظرية تعتمد على روابط القربى والعلاقات التّاريخية والجغرافية بين الشعوب، وتجعل من كل مجموعة متقاربة من اللغات فصيلة مستقلة. وهي أكثر النظريات قبولاً ورواجاً بين العلماء الغربيين اليوم. ومن منطلق وحدة نشأة اللغات وَجد "مولر" أمامه مجموعتين لغويتين متميزتين، أما اللغات التي لا تندرج تحت هاتين المجموعتين فصنفهما تحت مجموعة ثالثة. وعلى هذا ففصائل اللغات في العالم عنده ثلاثة:

**1– فصيلة اللغات الهندية الأوربية** ***Langues indo-européennes***

وهي أكثر اللغات انتشاراً في العالم؛ إذ يتكلم بها أكثر سكان أوربا وأمريكا واستراليا، وقسم كبير من سكان آسيا . ويندرج تحت هذه المجموعة عدد من اللغات البائدة كالسنسكريتية، والفارسية القديمة، والبهلوية، واللغات الجرمانية، واليونانية، والإغريقية القديمة. وقد بحث العلماء كثيراً في هذه اللغات؛ لأن أكثرهم في العصور المتأخرة ينتمون إليها . وتمتاز هذه الفصيلة بكثرة شُعبها، واتساع الرقعة المنتشرة فيها .

ومن هذه الشعبة اللغة اللاتينية (*Lingua Latina*) أو الرومية (*Lingua Romana*) وهي لغة إيطاليقية (*Linguae Italicae*) كانت محكية أولا في منطقة "لاتيوم"

---

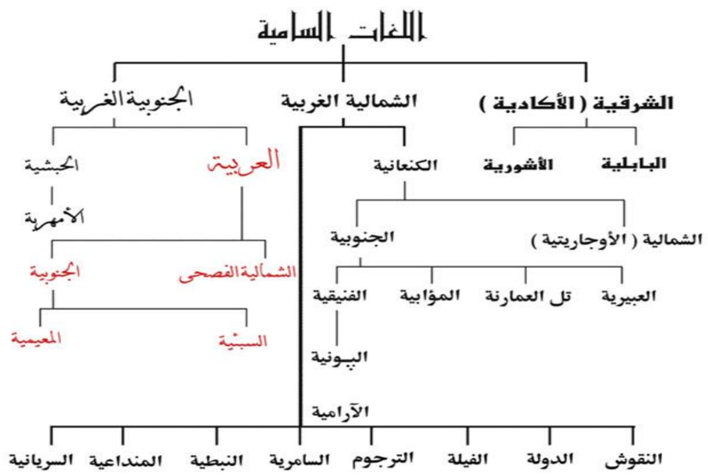
95  ألماني ذو جنسية إنجليزية. اهتم بصفة خاصة باللغة السنسكريتية. أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير. يُعدّ المستشرق الأكثر أهمية في أواخر القرن 19 . أثارت بحوثه خلافات متباينة على الصعيد القومي والكنسي، لكنها مازالت محتفظة بريادتها .

*Latium*– وهو الجزء الأوسط من شبه الجزيرة الإيطالية – وفي مدينة "روما القديمة" *Rome antique* ثم انتشرتْ عبر المتوسط وإلى جزء كبير من أوروبا بفعل الفتوحات الرومانية.

إن اللغات "الرومانيكية" كالإيطالية والفرنسية والكَتَلانية والرومانية والإسبانية والبرتغالية تحدَّرت من اللغة اللاتينية. بالإضافة إلى ذلك، تُشكل المفردات لاتينية الأصل جزءاً كبيراً من مفردات كثير من لغات العالم، كالإنجليزية.. وظلت اللغة اللاتينية لغة العلم والدراسة في أوروبا الوسطى والغربية حتى القرن السابع عشر حين بدأت تحل محلها اللغات المحلية، وظلت لغة دولية للمعاملات الدبلوماسية حتى تلك الفترة أيضاً حيث حلت محلها الفرنسية ل ثم الإنجليزية.

ومن هذه الفصيلة اللغة المستعربة *(mozárabe ou romance andalusí)* وهي لغة رومنسية كان يتكلمها مسيحيو الأندلس بعد الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبريا *Péninsule Ibérique*.

2– فصيلة اللغات السامية الحامية – *Langues chamito-sémitiques*




وتشمل هذه الفصيلة مجموعتين لا يربط بينهما إلا روابط جغرافية؛ ذلك أن الاختلاف بين المجموعتين كبير. أما الأولى –السامية– فالمراد بها كما يقول الرافعي: لهجات

سكان القسم الجنوبي من غرب آسيا من حدودِ الأردن شمالاً إلى البحر العربي جنوباً، ومن خليج العَجم شرقا إلى البحر الأحمر غربا . وهي منسوبة إلى سام بن نوح عليه السلام باعتبار أن المتكلمين بها هم في الجملة من نسله. وقد اختار الباحثون الغربيون هذه التسمية حيث لحظوا أَوْجُهَ شبهٍ بين مجموعة اللغات السامية فاعتقدوا أنها في الأصل لغة واحدة، وأن أهلها سكنوا بقعة واحدة ثم تفرقوا في الأرض وتباينت لغاتهم. وهي قسمان شمالي (ويضم الأكادية، والآشورية، والكنعانية، والآرامية) . وجنوبي (ويشمل العربية، والحبشية، واليمنية القديمة) .

وأما الثانية –الحامية– فتنتسب إلى حام بن نوح في نظرهم، وتضم اللغاتِ المصريةَ القديمةَ، والقبطيةَ، وبعض اللغاتِ الامازيغية، واللغات الكوشيتّية: (الصومالية، والساهو، والسيداما) .

وقد عرف كثيرٌ من علماء المسلمين صِلاتِ القربى بين الشعوب السامية، كما عرفوا أنهم من ذرية سام بن نوح. فعلي بن حزم (ت/ 456هـ) يقول: [96]

"إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السُّريانية والعِبرانية والعَربية هي لغة مُضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدةٌ تبدلتْ بتبدُّل مَساكن أهلها، فحدَث فيها جَرْش (صوتُ حَكّ الأنياب) كالذي يحدث من الأندلسي إذا رامَ نَغمةَ أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمةَ الأندلسي، ومن الخُراساني إذا رام نغمتَها . . . ومن تدبّر العربية والعِبرانية والسُّريانية أيقنَ أن اختلافهما إنما هو من نحو ما ذكرنا: مِن تبديل ألفاظِ الناس على طولِ الأزمان، واختلافِ البلدان، ومُجاورَة الأمم، وأنها لغة واحدةٌ في الأصلَ، وإذ تَيقَّنَا ذلك فالسريانية أُصلُ للعَربية وللعبرانية معا، والمستفيضُ أن أول من تكلم بهذه العربية إسماعيل عليه السلام، فهي لغة ولده، والعبرانية لغة إسحاق

96 "الإحكام في أصول الاحكام" 31/1

ولغة ولده، والسريانية بلا شكّ هي لغةُ إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، بنقل الاستفاضة الموجبة لصِحّة العلم، فالسريانية أصل لهما . وقد قال قوم إن اليونانية أبسَط اللغات، ولعل هذا إنما هو الآن! فإن اللغة يَسقط أكثرُها ويَبْطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مَساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. . . ".

ويقول ابن تيمية (ت/728 هـ) : [97]

"وَالْأَلْفَاظُ الْعِبْرِيَّةُ تُقَارِبُ الْعَرَبِيَّةَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ كَمَا تَتَقَارَبُ الْأَسْمَاءُ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ. وَقَدْ سَمِعْتُ أَلْفَاظَ التَّوْرَاةِ بِالْعِبْرِيَّةِ مِنْ مُسْلِمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَوَجَدْتُ اللُّغَتَيْنِ مُتَقَارِبَتَيْنِ غَايَةَ التَّقَارُبِ، حَتَّى صِرْتُ أَفْهَمُ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِهِمْ الْعِبْرِيِّ بِمُجَرَّدِ الْمَعْرِفَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ ".

3– فصيلة اللغات الطورانية ***Langues Touraniques***

وتسميتها بالفصيلة من قبيل المجاز، لأنها تضم لغات لا تربط بينها علاقات، ولكن "مولر" جمعها تحت هذا الاسم تخلصاً من كثرة التقسيمات. كالصينية واليابانية والتركية والمغولية وغيرها .

## تقسيم "ماكْس مُولر" في الميزان

التقسيم الغربي التوراتي لأصل الأجناس البشرية تقسيم خاطئ، يكذبهُ القرآنُ الكريم، وتكذبه الحقائق العلمية الثابتة التي تُبطل خُرافات التوراة عن أصل الكون، وبداية خلق الإنسان وغيرها من الأحداث، إذ لا يُعقل أنْ ينشأ ثلاثةُ أُخوة من أبناء نوح عليه السلام في بيت واحد، ويتكلمون ثلاث لغات مختلفة! ولماذا يختارون العيشَ متفرقين في قارات متباعدة، في ذلك الوقت المبكر من التاريخ؟ ولماذا غيروا لغةَ أبيهم؟ انها

---

97 "مجموع الفتاوى"، 110/4، المدينة المنورة، 1416هـ/1995م.

مزاعم لا تستندْ إلى أيّ دليل علمي، أوْ برهان عقلي. وفي الحديث: «كان ﷺ إذا انتسبَ لم يجاوز في نسبه مَعَدَّ بن عَدنان بن أُدَدٍ، ثم يُمْسك ويقول: "كذب النَّسَّابونَ"، قال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾». (رواه ابن سعد عن ابن عباس مرسلا).

قال ابن القيم في زاد المعاد (72/1) في نسب النبي ﷺ: "وهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب بن هاشِم .... بن مَعَد بن عَدنان.

إلى ها هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم".

فالنَّسَّابونَ يَدّعون علمَ الأنساب وقد نفى اللهُ علمها عن العباد، لقوله: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان/38]، وما وصفه الله بالكثرة فهو مما لا يكاد يحصى، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ.. ﴾ [إبراهيم/9]. غير أنه وَرَد في حديث صحيح: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وبِشارةُ عيسى» [98]، فأثبت ﷺ أنه ابن إبراهيم

---

[98] رواه البيهقي في "مسند الشاميين"، والحاكم في "المستدرك"، ونصه عنده: "...عَنْ عِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِي عَبْدُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَبِي مُنْجَدِل فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ» وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ، وَأَنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ لَهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ، ثُمَّ تَلَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخرجاه».

صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن اتصاله به الا عن طريق إسماعيل ﷺ. وقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء/3]، وقوله عز وجل: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ.. ﴾ [هود/48]، يقطعان بأن أمما من غير ذرية نوح آمنوا معه، ونجوا من الطوفان، لم تذكرهم التوراة ولم تذكر أنساب ذريتهم.. وهذا يُصوّب رأي مَنْ ضعّف حديثاً عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الحَسَنِ عن سَمُرَةَ، أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ: "سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ". كابن عدي الجرجاني (ت 365 هـ) في "الكامل في ضعفاء الرجال"، لأجل الوليد بن خليد لأن عامة حديثه يتابع عليه غيره وفي بعض حديثه إنكار. وشمس الدين الذهبي (ت 748 هـ) في "ميزان الاعتدال"، والعجلوني (1162 هـ) في "كشف الخفاء"، وكذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج أحاديث مسند أحمد. والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في "السلسلة الضعيفة": 3683، و"ضعيف الجامع الصغير وزيادته": 3214. وقال الدكتور جواد علي معلقا على هذا الحديث:[99]

"وقد عرف المسلمون اسم "سام بن نوح"، وقد كان لا بد لهم من البحث عن أولاد "نوح" ﷺ لما لذلك من علاقة بما جاء عن "نوح" وعن الطوفان في القرآن الكريم... ومن هنا يجب أن يُدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة إلى الرسول في هذا الباب دراسة وَافِية، لنرى مدى صحة نسبتها إلى الرسول، كما يجب دراسة ما نسب إلى عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه أو غيره في هذا الشأن، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علمًا برأي المسلمين أيام الرسول ﷺ وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى في نسبتهم إلى سام بن نوح".

99 "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد علي، 224/1، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة 1422هـ/ 2001م.

# الفَصْلُ الثَّاني

# اللُّغَةُ وَالتَّواصُل

## المَبحثُ الأول

## الإِعْلامُ: مَفهُومُه-مجالاتُه-غاياتُه

### الإعلامُ لغةً واصطلاحاً



- الإعلام في اللغة:

هو مصدر الفعل الرباعي "أعلمَ"، يقال: أعلَمَ يُعلِمُ إعلاماً. ويقال: استعلِمْ لي خَبَرَ فُلان، وأعْلِمْنيه حتى أعلمه، واستعلَمَني الخبرَ فأعلَمْتُه إياه. وعَلِمَ الأَمرَ وتَعَلَّمَه: أَتقنه. والإعلام هو: التبليغ والإبلاغ، أي الإيصال، قال جَلَّ جَلَالُهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ [المائدة/ 67] وفي الحديث: «بَلّغُوا عَنّي ولَو آيَة»، أي أوصلوها غيرَكُم، وأَعلِموا الآخرين.

- الإعلام في الاصطلاح:

لم يتفق المتخصصون في الإعلام على تعريف جامع له حتى الآن؛ فهو مصطلح لعلم جديد، وتعريفاتُ العلوم لا تستقر إلا بعد بيان جوانبه المختلفة والاتفاق على مبادئه. وقد حظي تعريف الألماني "أوتوجروت" *Otto Groth* (1875-1965) للإعلام باحترام من قِبَل الدارسين الإعلاميين، وهو موجود في معظم كتب الإعلام، حيث عرَّفه بقوله:

"الإعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولرُوحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت". [100]

فالإعلام من أهم مقومات الثقافة والحضارة، ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا: بأن جميع مصادر التشكيل الثقافي على تنوعها أصبحت بجوزة الإعلام. فيمكن القول اذن بان الإعلام هو: التعريف بقضايا العصر وبمشاكله، وكيفية معالجة هذه القضايا في ضوء النظريات والمبادئ التي اعتمدت لدى كل نظام أو دولة، من خلال وسائل الإعلام المتاحة داخليا وخارجيا، وبالأساليب المشروعة لدى كل نظام وكل دولة.

وهذا تعريفٌ لما ينبغي أن يكون عليه الإعلامُ، ولكن واقع الإعلام قد يقوم على تزويد الناس المعلومات الصحيحة، أو الحقائقِ الواضحة، فيعتمد على التنوير والتثقيف، ونشر الأخبار الصادقة التي تخاطب العقلَ، وترفعُ مستوى الناس، وتنشد تعاونهم من أجل المصلحة العامة.

وقد يزود الاعلام الناس بالأكاذيب والضلالات وأساليب إثارة الغرائز، ويعتمد على الخداع والتزييف والإيهام، وقد ينشرُ الأخبارَ الكاذبة، وتهييجَ شَهوةِ الجنس والحِقد والعنف، فتحط من مستوى الناس، وتثيرُ بينهم عوامل التفكك، وحينئذ يتجه إلى غرائزهم لا إلى عقولهم. [101]

## الإعْـلامُ والاتِّصَال



100 "الإعلام والدعاية"، ص/ 76، عبد اللطيف حمزة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط/2 1978م.

101 "الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام"، ص/28، نور الدين بليبل، "كتاب الأمة"، ع 84/1422 هـ.

هناك فرق يسير بين الاعلام والاتصال رغم تداخل مجاليهما . فالاتصال كما عرفه شانون *Shannon Claude* (1949م): هو "كافة الأساليب والطرق التي يؤثر بموجبها عقل في عقل آخر باستعمال رموز معينة". وعرفه "جورج ليندبرج *George Lindberg* (1939م) بأنه: "التفاعل بواسطة الرموز والإشارات التي تعمل منبها يثير سلوكاً معيناً عند المتلقي".

"وهكذا صرنا إلى "الإعلام" منقولاً من المصدرية إلى شيء آخر يَندرجُ فيه حشدٌ من الكلام الجديد، على أننا قد نجد بين العرب من يُؤْثر مُصطلح "الاتصال"، وإن كان هذا في حقيقته "التواصل"، ومهما يكن فقد ثبت مصطلح الإعلام، فكانت مؤسسات الإعلام، ووزارات الإعلام، وغير هذا مما يتصل بهذه الممارسات الجديدة". [102]

☏

## اللغةُ من أُسُس الحَضارة في النَّظرية الإعلامية

رغم قدرة وسائل الإعلام الفائقة على الاتصال، فإن بينها وبين الحضارة علاقةً تجسدها اللغةُ التي تعكسُ حَضارة الإنسان. ويذهب الكثير إلى أن كلَّ نَقص أو قصور يَعْتري لغة مجتمع ما إنما يعبر عن مدى تخلفه عن رَكب الحضارة. فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مر العصور تنعكس في اللغة وتجد صداها فيها، سواء في

102 "المعجم الوجيز في مصطلحات الإعلام" ص/ 5، إبراهيم السامرائي، ط1/ 1999 م. وانظر للتوسع:
◈ "مدخل الى علم الاتصال" دكتورة منال طلعت محمود، جامعة الإسكندرية، 2001م.
◈"معجم مصطلحات الإعلام" د. أحمد زكي بدوي، الناشر: دار الكتّاب المصري.
◈ "تكنلوجيا الاتصال. . . " د. شريف درويش اللبان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1/2000م
◈ "الاتصال والرأي العام: الأسس النظرية والإسهامات العربية"، د. عاطف عدلي عبيد، دار الفكر بالقاهرة، 1993م ولنفس المؤلف: "التخطيط الإعلامي. . ." و "نظريات الاعلام وتطبيقاتها العربية" و "المرأة العربية ووسائل الاعلام".

شكل الكلام العادي، أم في الكتابة المعروفة، أم الرسوم والنقوش التي تركها الإنسان المبكر على جدران المغارات والكهوف، أم الإنجازات المعمارية، أم الحركية كالرقص والتمثيل الصامت، تعبيراً يُترجم إلى ألفاظ ومفاهيم تنتقل إلى الآخرين.

وتدل النظرة الشاملة للإعلام على تغلغله في كيان الحضارة، فعملية الاتصال تتم على مستويات مختلفة من حيث استخدام اللغة والرموز، وتتواصل بمستويات ثلاثة في مجال التعبير اللغوي هي:

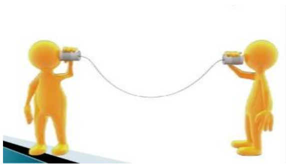
مستوى التذوق الجمالي وهو المستعمل في الأدب. المستوى العلمي النظري وهو المستخدم في العلوم. المستوى الاجتماعي الوظيفي الهادف الذي يستخدمه الإعلام بمختلف أجناسه.

وإذا كانت الوظيفةُ تَخْلُق العضوَ فقد خَلَقت الوظائفُ الإعلامية "الأجناس الإعلامية"، حيث لم يحدثْ تغيرٌ في هذه الوظائف منذ المجتمعات القبلية حتى وقتنا المعاصر، ولكن بَرزت مستحدثاتٌ وهياكل لتكبيرها ومَدّ نطاقها، فنمتْ الكتابة ليحتفظ المجتمع برصيده من المعرفة؛ وضاعفَ نموُّ الطباعة ما يكتبه الإنسانُ بأسرعَ وأرخصَ مما يستطيع عن طريق الكتابة اليدوية، وأسهمتْ هاتان الوسيلتان في رُقيّ البحث عن الحقيقة، حيث خلقت الكتابة أُشياء رفيعة القدر تفنّنتِ الطباعة في إعدادها لدرجة مُذهلة وخلدتها، مما جعل الفكرَ يستمر مع الزمان والمكان ويبقى حتى بعد الموت.

ومن هذا تتضح العلاقة الوثيقةُ بين لغتيْ الإعلام والحضارة، كما يتضح –من خلال استقراء التاريخ الإنساني– أن الإعلام فن حضاري بالضرورة، يتصل بأسبابها وينتشر بازدهارها على عكس البيئات القبلية أو القروية التي تعتمد –دون وسائل الإعلام الحديثة– على اكتساب المعرفة بالاتصال الشخصي المباشر. فالحضارة العصرية تبني إذن وفق عالم اللغة، وتتضمن كل لغة بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكام

مسبقة ضد وجهات نظر أخرى، كما تخضع كافة اللغات لأطوار من التغير تتضمن ما يطرأ على العالم المحيط بِمُتَكلّميها .
فاللغة –في مفهومها الدقيق المعاصر لعلميْ الكلام والكتابة– عُنصر أساس في حياة البشر، ويصعُب بدونها قيامُ حياة اجتماعية مُتماسكة متكاملة، ويستحيلِ بدونها قيام حضارة ذات نُظُم اجتماعية وأنماطٍ ثقافية، وقِيم أخلاقية ومبادئ، ومُثُل وحياة مادية ومخترعات، باعتبارها أداةَ التفاهم والإعلام. . . وهذا يعني وجود علاقة قوية بين الإعلام وبين لغة الحضارة.
وقد نشأت فكرة "حضارة اللغة" من ارتباط الحضارة الإنسانية باللغة لتميز الجنس البشري عن سائر الكائنات بالفكر واللغة. وتأسيسا على ذلك فاللغة في النظرية الإعلامية، تعتبر من أهم أدوات الحضارة، وأسس نشأتها وتطورها واستمرارها؛ فالشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في عوالم مختلفة من الواقع، حيث تؤثر هذه اللغات في مدركاتها الحسية وأنماط تفكيرها باعتبارها الموجه الأساس للواقع الاجتماعي الذي يعيشه المتكلمون بها .

## غاياتُ التواصُل بين النّاس ومجالاتُه



التواصل مع الناس مهمة اجتماعية مستمرة، ويتوقف نجاحنا في التواصل مع الآخرين على امتلاك مهارات معينة؛ فكلما زادت مهاراتنا في الكتابة والحديث، كان التواصل أكثر فاعلية، لان التواصل جزء من الحياة اليومية، فنحن غالبًا ما نستخدم في التواصل الكلمات المنطوقة أو المكتوبة، وأحياناً يتم التواصل دون قول أو كتابة؛ وذلك حين تنقل إلى شخص آخر رسالة غير لفظية ؛ كأن تحتضن صديقك حين تلقاه، أو تضرب على كفه أو ظهره دليلا على عنايتك او موافقتك، وقد يكون التواصل

بالإشارة؛ كأن تبتسم أو تلوّحٍ بيدكَ تحيةً لإنسان، أو تهز كتفك إشارةً الى عدم اكتراثك، أو تهز رأسك موافقةً. . .الخ.

والتّواصل سنّة الحياة، وبدون التّواصل قد يعيش كلّ إنسان بمعزل عن الآخرين، وليس هذا من مقاصد هذه الحياة الدنيا كما حددها الباريً سبحانه، فالتّواصل يحقّق غايات لن تدرك بدونه، بل ان أصغر الكائنات التي خلقها الله تعالى تتواصل بالفطرة كالنمل والنحل وغيرهما. . وعلى الجملة هناك أسباب خمسة للاتصال الناجح: الاستماع بجَلاء، الحديثُ بوضوح، التساؤل الذكي، القراءة الواعية، الكتابة الجيدة. والناس يتواصلون فيما بينهم لأغراض:

- فقد يكون الغرض من التواصل اجتماعيًا غير محدد، ومثاله: الحديث الذي يدور بينك وبين غريب يركب معك حافلة أو قطارًا عن الطقس، أو نوعية الخدمة التي تُقدم، أو قضايا الساعة، ويكون الغرض هنا اجتماعيًا أكثرِ منه إخباريًا .
- وفي أحيان كثيرة يكون غرض التواصل محددًا؛ كأن يُطالبَ الموظفُ بإعداد تقرير مكتوب أو شفوي عن موضوع يقدمه لجهة معينة، وكأن يُطالب المتعلم بإعداد بحث للكشف عن مدى استيعابه لما تعلم، ومعرفة قدرته على الإحاطة بجوانب موضوعه. . .الخ [103]

## الحَديثُ وغاياتُه في التَّواصُل



103 لمزيد من التفصيل حول موضوع الاتصال ومهاراته، ينظر كتابان للدكتور محمد منير حجاب:

– "وسائل الاتصال نشأتها وتطورها"، دار الفجر للنشر، 2008م.

– "الاتصال الفعال للعلاقات العامة"، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2007م.

يمثّل الحديثُ درجةً عالية من التفاعل في التواصل؛ وذلك حين تجد أن من تُحدّثهم يستجيبون لك؛ فيهزون رؤوسهم للموافقة تارة، وللرّفض تارة، وقد يقاطعونك أثَناء الحديث. وبرغم أن حديثك معهم لا يتم بأسلوب رسمي، فإن تواصلك معهم يكون فعالاً ومفهومًا بصورة واضحة. ويلحظ أن الغريب الذي يستمع إلى محادثة بين صديقين حميمين في موضوع خاص لا يستوعب في الغالب ما يقولان؛ ولذا تجد أن الحديث مع غريب عنك يجعلك تتبنى نغمة تختلف عن التي تستعملها مع أترابك، حيث تحاول أن تملأ الفجوات الثقافية بينك وبينه كي يستفيد من المحادثة بطريقة سليمة تضمن تواصله معك. ويقال في هذه الحالة إن أسلوبك في المحادثة أكثرَ رسمية.

## تَغَيُّـرأُسلوب الكَـلام بتَغيـرالمقَـامات

عندما تتحدث إلى غُرباء نحرصُ على أن يتلاءم أَسلوب الحديث مع من تتحدث إليهم، وتتم هذه الملاءمة –غالبًا– بصورة تلقائية ومتكررة، كيف ذلك؟ تصورْ أنك تحكي واقعةً لصديق حميم، أو تُجيب عن سؤال في قاعة الدرس، أو توضحُ وجهةَ نظرك في اجتماع يضم كل أفراد الأسرة... فسوف تجد أن طريقتكَ في الحديث ونَبْرتَه تختلف في كل حالة من تلك الحالات؛ فمع الصديق يكون الأسلوب عفويًا وسلِسا، ولكن في الحالتين الأخريين يصبح أكثر رسمية، ويتطلب زيادة وعي بما تقول. ولعلك تلحظ أيضا أن طريقة حديثكَ تتغير أثناء الكلام حين تشعر أن الآخرين يستمعون إليك باهتمام.

ويهدف التواصل –أحيانًا– إلى إحداث تأثير مُعَين في الجمهور المتلقي. ومن أمثلة ذلك: المحامي في المحكمة، والسياسي في البرلمان، والخطيب يوم الجمعة، والطالب حين يعرض تقريرًا في قاعة الدرس، والمحاضر في ندوة أو مناظرة، والتاجر حين يعرض بضاعته، ومسؤول شركة حين يروج لمنتوجه، وهكذا. إن هدف التواصل في كل هذه المواقف هو الإقناع بوجهة نظر معينة. والنجاح في مثل هذه الحالات يتوقف على تنظيم الأفكار، وعرضها بطريقة تلائم المخاطبين، وهذا يعني أن نجاح التواصل الشفوي

لا يتوقف على جودة ما يقال فقط، وإنما يعتمد أيضاً على طريقة الإلقاء، وتنويع نغمات الحديث، واستخدام الحركات المناسبة للجمهور.

## التَّـواصُل بالكِـتَـابة



التواصلُ الكتابي أكثرُ رسميَّة من التواصل الشفوي؛ فالكتابة تعتمد على استخدام قواعد اللغة، والمهارة في عرض المكتوب، ولذا يجب أن تكون الرسالة المكتوبة كاملة في ذاتها؛ لأن الكاتب – على عكس المتكلم– لا يستفيد من وسائل الاتصال غير اللفظية كالإيماءات، والحركات وتعبيرات الوجه، ومعرفة أثر كلامه في المستمعين. والكتابة يمكن أن تكون "عملية" طبيعية ويسيرة مثل الكلام تمامًا إذا حرصتَ على ما الشروط التالية:

- لا تنزعجْ من شعورك بالقلق حين تَشرع في كتابة فكرة أو تقرير لتعرضه مكتوبًا أو شفويًا، فهذا الشعور رد فعل طبيعي لمواجهة المواقف غير المألوفة لدى كل الناس.
- إذا صَعب عليك كتابة أفكارك: عبّرْ عما تريد بصوت مسموع، ثم اشرع بعده في تحرير ما ترغب في تدوينه.
- استفد من تجارب من سبقوك في هذا الشأن، ولا تَسْتنْكف من تقليد غيرك إذا رأيته نافعا.

## التَّـواصُلُ والنَّـجَـاحُ



الاتصال الجماهيري تتسع رقعته يوماً بعد يوم، فالسماء وما فيها من أقمار صناعية، والأرض وما فيها من مستقبلات فضائية، كل يخاطب كلاًّ ويتصل به، وقد يكون ميدان الصراع الحضاري الحقيقي تحول اليومَ إلى الإعلامِ، وأُصبح امتلاكُ الشوكةِ الإعلامية بكل لوازمها ومقتضياتها يضمن الغلبة الثقافية التي تعتبر ركيزةَ التفوُّق الحضاري [104] ، حيث ألغى الإعلامُ الحدودَ الجغرافية والسياسية للدول، فلم تعد الشرائح الاجتماعية تهتم عمّن تتلقى، وهِي تنتقل من قناة إلى أخرى دون أن تكترث، وإن استقرَّتْ فإنها تستقر على قناة تعرف لغتها، لأن العائق اللغوي يلغي مشاهَدةَ أكثر من سبعين بالمائة من المحطات. . وعلى الجملة فإن وسائط الإعلام اليوم، وما يسمى "وسائل التواصل الاجتماعي" *Social media* قادرة على خلق آراء واتجاهات عن الموضوعات الجديدة، بُغية التأثير في الرأي العام، كما قال الألماني جوزف غوبلز *P. Joseph Goebbels* "إن مَن يقول الكلمة الأولى على حق دائماً" ! [105]

لوحة تجسد "مفاتيح النجاح العشرة" كما حددها الدكتور إبراهيم الفقي في كتاب يحمل العنوان نفسه:




---

104 "في الغزو الفكري"، د/ أحمد السايح، ص/20 سلسلة كتاب الأمة، عدد: 38 رجب 1414هـ.

105 "الإعلام والعولمة"، د. رضا عبد الواجد أمين، دار الفجر، ط1/ 2007م.

وغوبلز (1897 –1945) كان وزير الدعاية في ألمانيا النازية، وأحد أبرز وزراء هتلر لقدراته الخطابية. وهو الذي صوَّر هتلر بطريقة ذكية للألمان على أنه المنقذ لهم ولألمانيا . ومن أقواله المشهورة: «كلما سمعتُ كلمة مثقف تحسَّسْتُ مُسدسي» .

# المبحَث الثاني

# الرِّسالة الاتصَالية وأسَاليبُ الإقْناع

## الاتصَال ومَراحِل تَطوّره [106]

يرجع أصل كلمة اتصالَ Communication في الثقافة الغربية إلى الكلمة اللاتينية Communis ومعناها Common أي "مشترك" أو "عام"، ولذا فإن الاتصال هو العملية التي تتضمن المشاركة أو التفاهم حول فكرة أو إحساس أو سلوك أو اتجاه أو فعل ما .

الاتصال عمل غايته تبادل المعلومات والأفكار بين أفراد المجتمع، سواء أكانت ذات طبيعة علمية أو عملية أو اجتماعية أو ثقافية، وتنبع من حاجة الفرد إلى التفاعل مع الآخرين كلاما واستماعا . ويقضي الموظف في المتوسط خمسة وسبعين في المئة من وقته في "عمليات" اتصال، وتزيد كثيرا في الأفراد الذين يعملون في الاتصال الجماهيري.

إن الإنسان الذي يتصل الآن بغيره بسهولة، والذي يدرس قواعد الاتصال، والإدارة الفعالة، أتى عليه حينٌ مِن الدهر لم يكن يعرف الكتابة؛ فالبشرية مرت بمراحل عديدة حتى اكتسبت القدرة على الاتصال السليم، وهذا ما يطلق عليه في علم الاتصال الغربي "نظرية الانتقالات"، وهي النظرية التي تقسم مراحل تطور الاتصال كالآتي:

المرحلة الأولى: عصر الإشارات والعلامات. إذ تفترض معظم التخمينات أن الناس شبيهي البشر «Homo sapiens ou Hommes modernes» كانوا يعيشون في تجمعات صغيرة منذ ملايين السنين، وبالتأكيد وُجد اتصال بين تلك المجموعات، وإلا ما انتقلت خبراتهم من جيل إلى جيل، والاحتمال الارجح –حسب النظرية الغربية–

---

106 بتصرف من موقع: الإسلام اليوم، دورة "فن الاتصال والتواصل والتأثير على الآخرين" .

انهم مارسوا الاتصال عن طريق الأصوات (الزمجرة، الهمهمة، الصراخ، الغمغمة، الخ...) بالإضافة إلى لغة الجسد (الإشارات).

المرحلة الثانية: عصر التخاطب واللغة. حيث يرجح ظهور اللغة خلال 35 – 40 ألف سنة بين مخلوقات تشبه الجنس البشري يُطلق عليها "إنسان كرومانيون" ***L'homme de Cro-Magnon*** عُثر على بقاياه في كهف كرومانيون بفرنسا، مما سمح بابتكار الكثير من احتياجاته في ذاك الوقت، وعاش مزارعا وروّض الحيوانات، فظهرت اهمية اللغة في الارتقاء بالإنسان.

المرحلة الثالثة: عصر الكتابة. استغرق الانسان –حسب النظرية الغربية دائما– ملايين السنين حتى توصل الى استخدام اللغة، وقروناً حتى أصبحت الكتابةُ إحدى حقائق الحياة البشرية. وقد مرت الكتابة بمراحل: الكتابة التصويرية –الكتابة على أساس النطق–الكتابة الألفبائية.

المرحلة الرابعة: عصر الطباعة، وهي من أبرز الابتكارات البشرية، ومرت بمراحل..

المرحلة الخامسة: عصر الاتصال الجماهيري. مع ظهور الصحافة الجماهيرية بدأ نشاط الاتصال البشرى في الزيادة، وشهد القرن التاسع عشر معالم ثورة الاتصال الجماهيري.

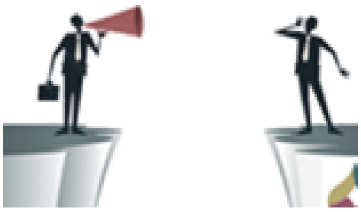
المرحلة السادسة: عصر الاتصال التفاعلي. حيث شهد النصف الثاني من القرن العشرين من اشكال "تكنولوجيا" الاتصال ما يتضاءل أمامه كل ما تحقق في عدة قرون سابقة، ولعل أبرز مظاهر ذلك الاندماج بين تكنولوجيا الحاسبات "الالكترونية" و"تكنولوجيا" الأقمار الصناعية.

## الاتصالُ والتواصلُ والفرق بينهما

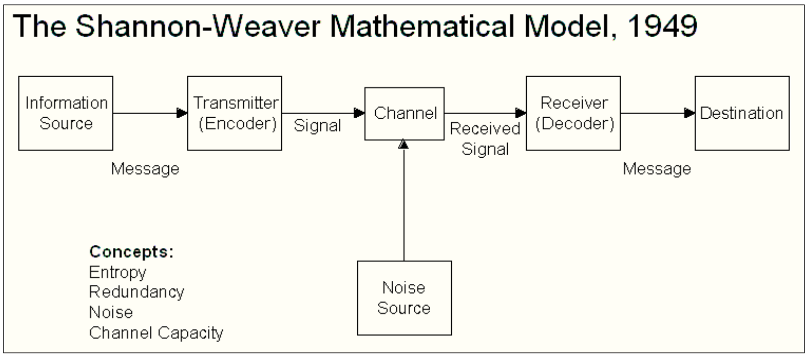
وقد يُعتقد أن الاتصال والتواصل مفهومان لمعنى واحد، إلا أن ثمة فرق بينهما، ففي الاتصال رغبة من أحد الطرفين باتجاه الآخر، وهذا الآخر قد يستجيب ويتفاعل مع الرغبة وقد يرفض. أما في التواصل فإن التفاعل أو الرغبة في المشاركة تحدث من كلا

الطرفين وتنشط باتجاه تحقيق أهداف معينة. ومن هنا فإن التواصل أساس التفاهم البشري، وهي العملية التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع وتبادل المعلومات والآراء والأفكار والتجارب فيما بينهم.

## مُكوّنَاتُ الاتِصَال



من أهم الأسس النظرية التي يقوم عليها علم الاتصال المعاصر، "نظرية المعلومات" لكلود شنون (*Théorie de l'information de Claude Shannon*) التي تعتمد على التعارف بين الأفراد والمجتمعات. والاتصال كما سبق القول عملية مركبة تشتمل على مجموعة عمليات متداخلة تدور بين مكونات ستة هي: رسالة ومُرسل ومستقبِل ووسيلة ورمز وتغذية راجعة.




الرسالة: *Message*

ويقصد بها المحتوى الذي يود المرسل نقله إلى الآخرين مستهدفاً من ورائه التأثير عليهم، ولكل رسالة مضمون: هو عبارة عن الأفكار التي يراد التعبير عنها، وشكل: وهو عبارة عن الرموز اللغوية التي يتم التعبير بها.

المُرسِل: *Emetteur* (*transmitter or Sender*)

وهو مصدر الرسالة (source). إنه الطرف الأول في عملية الاتصال والذي يريد التأثير في الآخرين من خلال أفكار لديه. والمرسل هنا قد يكون فرداً أو مجموعة أفراد، بل قد يكون إنساناً وقد يكون آلة مع اختلاف بينهما . لكن المصدر ليس بالضرورة هو القائم بالاتصال، فمندوب التلفزيون قد يحصل على خبر معين من موقع الأحداث، ثم يتولى المحرر صياغته، ويقدمه قارئ النشرة إلى الجمهور، في هذه الحالة يرى بعضهم أن المندوب والمحرر وقارئ النشرة بمثابة قائم بالاتصال، بينما يذهب آخرون إلى أن القائم بالاتصال هو قارئ النشرة فقط.

الوسيلة أو القناة: **(Channel or medium) - Canal**

ويقصد بها الأداة التي تنتقل من خلالها الرسالة. وتتنوع الوسائل ما بين الصوت العادي عند الاتصال المباشر، إلى الكتاب إلى الخرائط والرسوم والسجلات، وأجهزة الإعلام: من مذياع وتلفاز، إلى الحاسب الآلي إلى غير ذلك من أدوات. والوسيلة ليست ذات شأن بسيط في إتمام عملية الاتصال، إنها قد تساعد عليها وقد تعوقها، بل بعض الخبراء وصل إلى درجة المزج بين الرسالة والوسيلة فيقولون: إن أداة الاتصال هي الرسالة ***(The medium is the message)***.

المُستقْبِل: ***(Receiver) Récepteur***

هو الجهَة التي تنتهي إليها الرسالة وقد تكون فرداً أو مجموعة أفراد، وهي التي تتولى فك رموز الرسالة وتفسيرها متخذة الموقف المناسب إزاءها، ويتوقف تفسير الرموز على عدة أمور.

الـرمـز او السَّنَن: *Code*

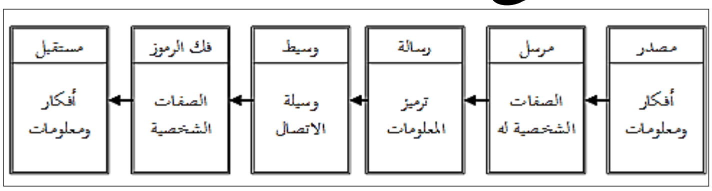
وهو يحيل على النظام الرمزي المشترك كليا أو جزئيا بين المرسل والمرسل إليه.

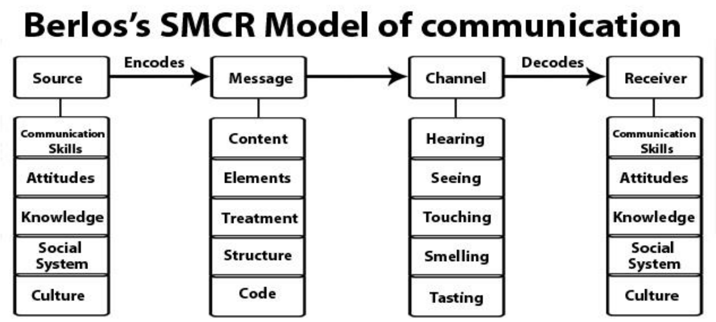
التغذية الراجعة أو "رَجْع الصدى": ***(Feedback)***

هي رَدّة الفعل المتوقعة من المتلقي أثناء تلقي الرسالة، بحيث يصبح المتلقي مُرسِلاً، ويضع فكرته في "رمزٍ" ثم ينقلها إلى المرسَل اليه، فيصبح المرسِل هنا مُتلقيا، ويكون رجع الصدى لفظيا وغير لفظي. وتختلف "عملية" رَجع الصدى بين أنواع الاتصال، فتكون في الاتصال الشخصي مباشرة وواضحة، وبذلك يكون للتغذية الراجعة أثر كبير في المتلقي، أما في الاتصال الجماهيري فرجع الصدى لا يتم أثناء عملية الاتصال. ولكن غياب عُنصر رجع الصدى في عدد من الاتصالات الجماهيرية لا يعني عدم أهميته أو عدم وجوده.

ويكون رجع الصدى إما إيجابيا وإما سلبيا، فالإيجابي يعبر عن تأييد المتلقي المرسِلَ وإعجابه به، عن طريق الاتصال اللفظي أو بواسطة الاتصال غير اللفظي؛ من إيماء بالرأس أو الابتسام او إشارة باليد أثناء عملية الاتصال أو التصفيق. أما رجع الصدى السلبي فالمتلقي يكون فيه معارضاً للمرسل وغير مؤيد له، ويظهر له أحيانا الإعراض والتنكير. [107]

## نموذج " دفيد بيرلو" للاتصال




---

107 للتوسع ينظر: "مدخل الى علم الاتصال"، ص/71 وما بعدها، دكتورة منال طلعت محمود، ج الإسكندرية، 2001م. و"مقدمة إلى علم الاتصال"، د. عبد الرحيم درويش، عالم الكتب، سنة 2012م

# مُقَوِّماتُ الاتِّصَالِ النَّاجِح

والمقصود بالمقومات: "مجموعة الشروط التي يعتبر توفرها أساساً لنجاح عملية الاتصال".

أ- من حيث الرسالة:

1- مراعاتها أكبرَ عدد ممكن من الجماهير المستقبلة، وأن تَشعر هذه الجماهير بحاجتها لموضوع الرسالة، وأن تُعالج مشاكلهم، وأن تتناول مختلف قضاياهم.

2- اعداد الرسالة بما يتناسب والظروف الخاصة التي تحكم كل وسيلة إعلامية، لأن الرسالة الإذاعية تتطلب شروطاً قد لا تتطلبها الرسالة التلفزية، فمُستقبل الرسالة الإذاعية لا يرى الحدثَ بعينه، كما لا يرى المذيع الذي ينقل له ذلك الحدَث، عكس مستقبل الرسالة المنقولة بواسطة التلفزة فهو يشاهد لَقطاتٍ من الحدث كما يرى المذيع.
والرسالة المطبوعة تسمح إلى حد ما بالإفاضة في شرح تفاصيل الموضوع الذي تنقله.
والرسالة الشفوية تختلف عن الرسائل السالفة، فعلى المرسل أن يفهم طبيعة كل وسيلة، وأصول استخدامها زماناً ومكاناً.

3- مراعاةُ مستويات الجمهور الفكرية المختلفة المستقبل للرسالة الإعلامية، فتُوجَّهُ الرسالة باللغة التي يفهمها ويتجاوب مع معانيها، فالرسالة الموجهة لمستويات تعليمية عليا تختلف عن الموجهة لمستويات شعبية قليلة الحظ من التعليم والثقافة، وكذلك الرسالة الموجهة للجمهور المحلي الداخلي تختلف عن الموجهة للجمهور الخارجي العالمي، وهكذا..

4- عدم تناقض الرسالة مع عادات المجتمع وتقاليده، فينبغي أن تأخذ في اعتبارها اهتمامات الجمهور المتلقي، ذلك أن الفرد لا يعرض نفسه إلا للموضوعات التي يرغب في التعرض إليها فعلاً، وهو ما يسمى بالتعرض الانتقائي، كما أنه لا يدرك هذه الموضوعات إلا بالشكل الذي يود إدراكها به، وهو ما يسمى بالإدراك الانتقائي، وأن

معظمنا يتذكر المواد الإعلامية التي تؤيد وجهة نظره، ونحاول أن نتجاهل المعلومات المخالفة لآرائنا، ويسمى التذكر الانتقائي.

5- يجب أن تتميز الرسالة الإعلامية باليسر والوضوح، وأن تستبعد منها العبارات والألفاظ المعقدة والغامضة، لأن الإعلام يعتمد على الكلام الواضح السهل، أياً كان نوع الرسالة الإعلامية الموجهة؛ وليست الرسالة الإعلامية الناجحة هي التي تصاغ عباراتها بمهارة أو طلاقة لغوية فائقة ثم تترك عالم الواقع وتحلق في أجواء الخيال والأحلام.

ب – من حيث المُرسِل

وضوح الفكرة في ذهنه. عمق خبرته بالموضوع الذي يعالجه. تنوع طريقته في عرض الأفكار. قدرته في اختيار الألفاظ المناسبة. وضوح صوته عند الحديث. إعادة عرض الأفكار بتفصيل أكثر. ضرب أمثلة تجعل الرسالة محسوسة وليست مجردة.

ج – من حيث الوسيلة (القناة)

دقتها في نقل الأصوات (بالنسبة للحديث). عدم وجود مؤثرات جانبية تشوش على الحديث.

وضوح الطباعة ودقتها وقلة الأخطاء. جاذبية الإخراج وحسن تنسيق الصفحة.

د- من حيث المستقبِل

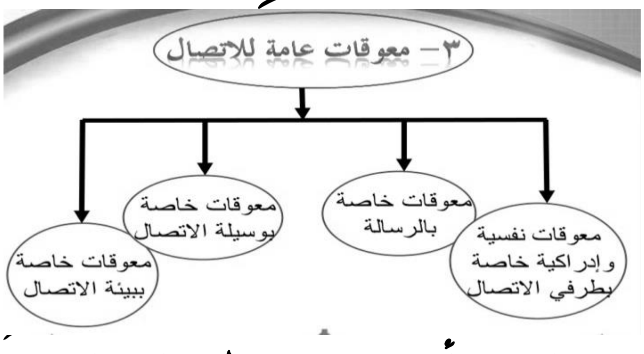
سلامة حواسه في استقبال الرسالة (الأذن والعين). قدرته على فك الرموز التي وصلت إليه.

درايته باللغة التي يستقبل بها الرسالة. خبرته بموضوع الرسالة. أُلفته بالمرسل ومعرفته لعاداته في الحديث أو الكتابة. اتجاهه نحو الموضوع وتحمسه لأفكاره. مفهومه نحو نفسه ونحو الآخرين.

**هـ- معالجة الرسالة *Decoding***

تشير معالجة الرسالة إلى القرارات التي يتخذها المصدر أو المرسِل بالنسبة للطريقة التي سيقدم بها مضمون الرسالة، فالمصدر قد يختار معلومة معينة ويتجاهل معلومة أخرى، وقد يكرر الدليل الذي يحاول أن يثبت به رأيه، وقد يلخص ما يقوله في البداية أو في النهاية، ويستطيع المصدر أن يذكر كل الحقائق في رسالته، وقد يترك للمتلقي مهمة تكملة الجوانب التي لم يذكرها في الرسالة. . ويتخذ كل فرد القرارات التي تحقق أهدافه بأفضل شكل.

## مُعَوِّقاتُ الاتِصَال




بناء على ما قلنا يحق لنا ان نسأل: متى يحدث الاتصال التام بين فردين؟

يحدث ذلك لو اتحد معنى الرموز عند المرسِل والمستقبل، واستطاع كل منهما تبادل الأفكار بنفس درجة الوضوح، وهذا أمر يندر أن يحدث بين البشر. ولنَتَصَوَّرْ مُعلماً يلقي درساً؛ المعلم هنا متغير واحد، ولكنه أمامَ عددٍ من الطلاب، ولنتصورْ أن عددهم عَشرةُ طلاب؛ ما الذي يحدث في هذا الموقف؟ إنه موقف اتصالي بلا شك؛ المعلم هو المرسِل هنا، والرسالة هي موضوع الدرس، والوسيلة هي الحديث الشفوي أو السبورة أو الكتاب أو هما معا، والمستقبل أخيراً هم الطلاب. نحن إذن أمام مرسل واحد ومستقبل متعدد. هل تعتقد أن المعلم عندما يلقي درسه أمام هذا العدد يكون قد بلّغ رسالة واحدة؟ الإجابة بلا شك هي لا. لقد بلغ عشر رسائل! إذ اختلف استقبال كل طالب للرسالة باختلاف المتغيرات التي سبق الحديث عنها.

حتى لو دار الأمر بين فردين؛ فلابد من وجود تفاوت بين المرسِل والمستقبِل في تصور الرسالة موضوع الاتصال.

هناك إذن معوقات للاتصال الكامل بين البشر، هذه المعوقات يمكن تصورها لو رجعنا إلى المقومات السابقة وتخيلنا عَدِم توفرها أو بعضها في "عملية" الاتصال؛ كأن تكون الرسالةُ مليئةً بالتجريدات، مُبهمةَ الأسلوب، أو تكون الفكرة غامضة في ذهن المرسِل، أو ليسِ ذا خبرة بالموضوع، أو عاجزاً عن التعبير الدقيق، أو غير ذلك، وكأن تكونَ الوسيلة غير دقيقة في نقل الرسالة، أو تكون عوامل التشويش المحيطة بالرسالة كثيرة، وكأن يكون المستقبل ضعيف السمع أو البصر، أو قليل الخبرة بالموضوع أو عاجزاً عن فك رموز الرسالة لأنه ليس ذا رصيد لغوي يسمح له بذلك، أو ذا اتجاه سلبي نحو المرسل أو نحو موضوع الرسالة. من هنا نقول إنه لا يوجد اتصال تام بين البشر، والأمر هنا نسبي. هذا بالطبع في حالة الاتصال بين الناطقين بلغة واحدة، ولنتصور حجم المشكلة في حالة الاتصال بين الناطقين بلغات مختلفة.

* فالمرسِل تنشأ لديه رغبة في توصيل رسالة معينة بلغة أجنبية بالنسبة للمستقبل، إما ردا على مثير واستجابة له، وإما رغبة في البدء بطرح مثير (الاتصال). فهو يتخيل هذه الرسالة، ويفترض أنه يعرف على وجه الدقة ما يريد توصيله، وكيف يريد توصيله. إلا أنه أحياناً، قد لا يعرف على وجه التحديد ذلك، ففي مجال الاتصال الشفوي مثلاً يخضع المرسل لسياق الحديث. فقد يضيف لما كان يود قوله شيئًا معيناً، وقد يعيد طرحه بشكل آخر، وقد يحذف منه شيئًا، فالمتكلم لا يستطيع في أحيان كثيرة التنبؤ بكفاءة ودقة شديدة بما سوف يصدر عنه، إذ أن السياق الذي يبث رسالته من خلاله لا يستهان به في محتوى وشكل الرسالة التي يود المرسل تبليغها، إلا أننا مع ذلك نتوقع أن المرسل قادر على بناء رسالته وتكوينها من العناصر الأساسية

للغة أصواتاً ومفردات وجملاً وتراكيب، فَضلاً عن الدلالات الثقافية لكل ما يقال، يقول هذا بلغته الأجنبية.

وقد تحدُثُ في أثناء عملية الاتصال أشياءٌ تَسبَّبُ في إحداث خَلل في عملية الاتصال نفسها، فتشوه على المرسل رسالته، فقد يَتلعثم بسببها، وقد لا يُكمل الجملة، وقد يخطئ في تركيبها . . كل هذه أشياء لا نضمن استبعادها من عملية الاتصال نفسها .

* والمستقبل من طرف آخر يحاول أن يفهم أشكال النطق التي صدرت من المرسِل محاولاً التنبؤ بمعاني ما غمض منها . هو يستقبل الرموز التي استمع إليها، ويرجعها إلى رصيده منها مفسرا إياها في ضوء خبرته السابقة بهذه الرموز. هذه العملية تسمى فك الرموز ***Décodage*** –وقد سبق الحديث عنها– وهي مهارة يتفاوت فيها الناس، والخلاف –كما يرى بعضهم– هو على درجة التمكن من المهارة، وليس على وجودها أو عدمه. فتبادل وجهات النظر أو التفاوض ***Négociation*** أمر يعتمد على نوع العلاقة بين المرسِل والمستقبِل.

## مَهارات الإقناع في الرسالة الاتصالية



يُعرَّف الإقناع بأنه: استخدام المتحدث أو الكاتب ألفاظاً وإشاراتٍ تمكّنه من التأثير في ميول و"سلوك" الافراد . أو هو: عمليات فكرية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير في الآخر وإخضاعه لفكرة أو رأي معين. ويرتبط محتوى الرسالة عادة بالقدرة على الإقناع، فقد كان أفلاطون يعرف البلاغة بأنها "كسب عقول الناس بالكلمات" . وكان

أرسطو يرى أن البلاغة هي: "القدرة على كَشف جميع السُّبل الممكنة للإقناع".
ويأخذ الإقناع أشكالاً مختلفة منها:
1- الاعتماد على السلطة: حيث تُساعد الأفرادَ على إحداث التغيير، فمن كانت سلطته أكبر تمكن من إحداث تغيير عند مَن له سلطة أقل. فمن السهل استعمال السلطة لتقييد سلوك الأفراد أو عقابهم، ولكن من الصعب شَرح رأي معين لهم وإقناعهم به.
2- الاعتماد على الإغراء: تعتمد الأنماط الإغرائية على العلاقة الحسنة أداةً للتّأثير. وتأخذ الأنماطُ الإغرائية النواحيَ النفسية في الحسبان، فنجدها تستغل حاجة الناس إلى الأمن والمحبة والعطف والنجاح والتقدير وغيرها مِن أجل التّأثير فيهم، وذلك بالتدريج.
3- الاعتماد على التعاون: في هذا النمط لا يتلقى المتَغَيِّر تعليمات لإغرائه على التغيير، إنما توضع أمامه الحلول المختلفة بمساعدة المغيّر، وهنا يقوم الطرف الآخر بدور إيجابي في إحداث الإقناع، والمغيّر يضع المتغيَّر في موقف معين يشعر فيه بعجز واضح ثم الاتجاه بعد ذلك للبحث عَن حلول لهذا الموقف. وهناك العديد من "الاستراتيجيات" التي تستخدم في الإقناع وهي: استراتيجية الابتكار، والتحصين، والمواجهة، والنوعية المتميزة، والعمل على زيادة الحلول.
ويعتمد الاقناع على ثلاث استمالات: استمالة الخوف، والعاطفة، والعقل، ويختار صاحب الاقناع التي تناسب الموقف المنشود، أو يوازن بين هذه الاستمالات في الموقف الواحد.
فاستمالات التخويف -مثلا- من الاستمالات الشائعة في تخطيط الرسائل الإقناعية، حيث يركز المحتوى في هذه الحالة على الإخطار أو النتائج غير المرغوبة إذا لم يستجب

المتلقي لتوصيات الرسالة الإقناعية، ويقوم استخدام استمالات التخويف أو التهديد على الفروض التالية:

☆ إن استخدام هذه الاستمالات سوف يؤدي إلى إحساس الفرد بالتوتر.

☆ الإحساس بالتوتر في هذه الحالة يحفز الفرد على تجنب الخطر أو النتائج غير المرغوبة.

☆ سيستجيب الفرد بتأثير الحافز إلى أي توصيات تجنبه هذا الخطر أو النتائج غير المرغوبة.

ومن خلال تجريب هذه الاستجابات أو تدعيمها تتحول بعد ذلك إلى عادات سلوكية تتفق مع أهداف القائم بالاتصال، ولذا فان الرسالة تعمل على إثارة التوتر العاطفي نتيجة استمالات التخويف أو التهديد، وفي الوقت نفسه يجب ان تتضمن توصيات تمكن الفرد من تجنب مصادر هذا التهديد، علما بان التهديد المعتدل يحقق نتائج أفضل من التهديد القوي، وذلك لأسباب:

– إن التهديد القوي يثير التحدي بدلا من الاستجابة أو الإذعان للتوصيات.

– قد يتجنب الفرد التعرض للرسائل التي تحتوي تهديدا قويا.

– استخدام الحشو والتطويل في الرسائل المحتوية على التهديد، واستخدام التفاصيل الدقيقة يؤدي إلى تخفيف التوتر واختفاء الحافز على الاستجابة إلى التوصيات.[108]



---

[108] لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يرجى الاطلاع على الكتب التالية:

– "علم النفس الإعلامي"، محسن خضانة واحمد عبد اللطيف ابو سعد، دار الميسرة، عمان.

– "الإعلام والاتصال قديماً وحديثاً"، محمد عبد الحميد، عالم الكتب بالقاهرة، الطبعة الأولى.

– "بلاغة الإقناع في المناظرة"، د. عبد اللطيف عادل، دار الأمان بالرباط ط/1 2013م.

# أساليبُ الإقناع في الرسَالة الاتصالية

إن جوهر الأهداف النفسية في الاتصال هو استخدام رسالة إعلامية فعالة، لها القدرة على تغيير الوظائف النفسية للأفراد؛ حتى يستجيبوا لهدف القائم بالاتصال؛ أي أن مفتاح الإقناع يكمن في تعلم شيء جديد من خلال معلومات يقدمها القائم بالاتصال حتى يتغير البناء النفسي الداخلي للفرد المستهدف (الاحتياجات – المخاوف – التصرفات)، مما يؤدي إلى السلوك العلني المرغوب فيه.

فمن بين المداخل المختلفة للإقناع: محاولة التغيير في البناء النفسي للفرد، بإثارة حاجياته أو دوافعه أو اتجاهاته، ومن ضمن الأنواع الشائعة في هذا المجال هو إثارة توقعات المتلقي بأن قيامه بسلوك معين سوف يجنبه أخطارا ما أو حرمانا، أو يؤدي إلى فقدانه القبول الاجتماعي، حيث يركز المحتوى في هذه الحالة على الأخطار أو النتائج غير المرغوبة إذا لم يستجب المتلقي لتوصيات الرسالة الإقناعية.

1- وضوح الأهداف مقابل استنتاجها ضِمنياً: الإقناع يكون أكثر فعالية عند ذِكر أهداف الرسالة أو نتائجها بوضوح، لذلك يجب ألا نترك للجمهور عبءَ استخلاص النتائج بنفسه. وقد أَسفرتْ نتائجُ البحوث التي أُجريتْ على الجمهور، فيما يتعلق بتغيير الاتجاهات، عن أنَّ الذين غيّروا اتجاهاتِهم بما يتوافق وأهدافَ الرسالة بلغت الضعف حينما قدّمَ المتحدثُ نتائجه بشكل محدد، مقارنة بنسبة الذين غيروا اتجَاهاتهم بعد أن تعرّضوا لرسالةٍ ترك المتحدثُ الجمهورَ يستخلص نتائجها . غير أن هذه الاعتبارات قد تتوقف على ظروف أخرى كثيرة مثل: مستوى تعليم وذكاء المتلقي، ودرجة أهمية الموضوع أو ارتباطه بالمتلقي، ونوع القائم بالاتصال.

2-تقديم الأدلة والشواهد: يسعى معظم القائمين بالاتصال إلى دعم رسائلهم الإقناعية بتقديم أدلة أو عبارات تؤيد ما يقولون. ويمكن تقديم تعميمات حول تأثير تقديم الأدلة:

- ✓ كلما زادت مصداقية المصدر قلت الحاجة إلى معلومات تؤيد ما يقوله.

✓ تحتاج موضوعات أدلة أكثر من غيرها، لعدم ارتباطها بخبرات المتلقي السابقة.
✓ يقلل التقديم الضعيف للرسالة من وقع وتأثير أي دليل.
✓ تقديمُ الأدلة يكون وقعُه أكبرَ على الجماهير ممن يتوقعون إثباتاً أوسع للأفكار.
✓ يتوقف تأثير الدليل على ما إذا كان المتلقون يعتبرونه صحيحاً أو غير صحيح.

3- عرض جانب واحد من الموضوع مقابل عرض الجانبين المؤيد والمعارض: حين يكون الجمهور متردداً فإن تقديم الجانبين يكون أقوى أثراً. ومن امثلته في القران قصة سجود الملائكة لآدم حيث اقتنعوا بالأمر الرباني، فحينما أمرهم بالسجود لم يترددوا، وأبى إبليس إذ لم يقتنع. وفي المقابل يكون التركيز على جانب واحد من الموضوع أكثرَ فعالية على تغيير آراء الأفراد الأقل تعليماً، أو الأفراد المؤيدين لوجهة النّظر المعروضة في الرسالة.

4- ترتيب الحجج الإقناعية: الرسالة التي تؤخر أقوى الحجج إلى النهاية تستخدم ترتيب الذروة، أو تأثير النهاية، أما التي تقدمها في البداية تتبع تأثير عكس الذروة أو تأثير البداية.. ويرى بعضهم أن تأجيل الحُجج الأقوى أفضل من تقديمها، كما في قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مع ملك زمانه "النمرود"، التي حكاها القرآن في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة/258) حيث جاءت الحجة القوية في نهاية الأمر وهي ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ . [109]

[109] للتوسع يُنظر المراجع الاتية: ◉ "من أساليب الإقناع في القرآن الكريم"، د. معتصم بابكر مصطفى، كتاب الأمة القطرية، 1424. ◉ "فن التحدث مع الآخرين بلباقة"، "دورثي ليدز" - *Power Speak* *Dorothy Leeds*، دار الفاروق للنشر والتوزيع، بيروت. ◉ "فن التواصل والإقناع"، ليلى شُحرور، الدار العربية للعلوم والنشر، بيروت، ط1/ 2009م.

# البابِ الثاني
# اللُّغةُ العَرَبيَّةُ
# تاريخها- مَكَانتُها
# عُلومُها

## الفَصلُ الأولُ: العربية وشيءٌ من تاريخها

المبحثُ الأول: كلَمة "عَرَب": اشتقاقُها وبعض معانيها

المبحث الثاني: قِسمَا العَربيَّة الجَنوبي والشَّمالي وأشهَرُ لَهَجاتهما

المبحثُ الثالث: العربيةُ البَاقية وأشهَر لهجاتها

المبحث الرابع: تَهْذيبُ اللغة العَربيَّةِ وأطوارُه

المبحثُ الخامس: جَمعُ اللغة العَربية وجُهود العُلماءِ في تَدْوينها

***

## الفصل الثاني: العَربيّة لُغةُ الدِّين وشِعَارُ الإسْلام

المبحث الأول: حاجة المُفَسّر إلى مَعرفة عُلوم اللِّسَان

المبحث الثاني: أَهَمّيةُ العَربيَّة في فَهْم الحَديثِ النَّبوي

المَبحثُ الثالث: حاجَةُ الفَقيه والأُصُوليّ إلى عُلوم اللسان

المَبَحَثُ الرابعُ العَربية: أَفضَلُ اللغاتِ وأوسَعُها مَذهبًا

***

## الفصل الثالث: العَربيَّة في العَصْر الحَديث

المَبحثُ الأول: حَرَكةُ الشُّعوبيَّة بين القَدِيم والحَديث

المبحَث الثَّاني: الشُّعوبية الجَديدةُ وصُوَرَها في العَصْر الحاضِر

المبحَث الثالثُ: دُعاةُ العامِّية وشُبُهاتهم

المبحث الرابع: الشُّعَراءُ واللغة العَربيَّة

# الفصل الأول

# العَربيّة تاريخٌ وتطور

## المبحث الأول

## اشتقاقُ لفظة "عَرَب" وبعض معانيها

جاء في لسان العرب (مادة عرب): "العُرْبُ والعَرَبُ: جيلٌ مِنَ النَّاس مَعْرُوفٌ، خِلافُ العَجَم، وَهُمَا واحدٌ، مِثْلُ العُجم والعَجَم، مؤنث. . والعَرَبُ العاربة: الخُلَّصُ مِنْهُمْ، وأُخِذ مِنْ لَفْظه فأُكِّدَ بِه، كَقَوْلِكَ لَيْلٌ لائِلٌ، تقولُ: عَرَبٌ عاربةٌ وعَرْباءُ: صُرَحاءُ. ومُتَعَرِّبة ومُسْتَعْرِبة: دُخَلاءُ، لَيْسُوا بخُلَّص. والعَرَبِيُّ مَنْسُوبٌ إِلى العَرَب، وإِن لَمْ يَكُنْ بَدَوِيًّا . والأَعْرابِيُّ البَدَوِيُّ. والعَرَبِيَّةُ: هِيَ هَذِهِ اللغة. واخْتَلَفَ الناسُ فِي العَرَب لِمَ سُمُّوا عَرَبًا فقال بعضهم: أَوَّلُ مَنْ أَنطقَ اللهُ لسانه بلغةِ الْعَرَبِ يَعْرُبُ بْنُ قحْطانَ، وَهُوَ أَبو اليَمن كلِّهمْ، وهمْ العَرَبُ العَارِبَة، ونشأَ إِسْمَاعِيل بنُ إِبراهِيمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مَعَهُمْ فتَكلم بِلِسَانِهِمْ، فَهُوَ وأَولاده العَرَبُ المستعربة" .

وجاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه من حديث طويل: «. . .فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ فنَزَلُوا (قبيلة جُرْهم اليمنية) وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ. . » . وفي حديث آخر: «أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً» . فقوله صلى الله عليه وسلم: (فتق لسانه بالعربية) أي أنطق الله بها لسانه، والفَتْق: الشق. . و(المبينة) أي الواضحة أو المُوضِحة الصريحة في معانيها .

قال الامام ابن حجر: "قَوْلُهُ (وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ منهم) فِيهِ إِشْعَار بِأَنَّ لِسَان أُمّه وَأَبِيه لَمْ يَكُنْ عَرَبِيًّا، وَفِيهِ تَضْعِيفٌ لِقَوْلِ مَنْ رَوَى أَنَّهُ أَوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ المطلقة ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيث اِبْن عَبَّاس عِنْد الْحَاكِم فِي "الْمُسْتَدْرَك" بِلَفْظِ: "أَوَّل مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيل". وَرَوَى الزُّبَيْر بْن بَكَّار فِي النَّسَب مِنْ حَدِيث عَلِيّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: «أَوَّل مَنْ فَتَقَ الله لِسَانه بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَة إِسْمَاعِيل». وَبِهَذَا الْقَيْد يُجْمَع بَيْن الْخَبَرَيْنِ فَتَكُون أَوَّلِيَّته فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ الزِّيَادَة فِي الْبَيَان لا الْأَوَّلِيَّة الْمُطْلَقَة، فَيَكُون بَعْد تَعَلُّمه أَصْل الْعَرَبِيَّة مِنْ جُرْهُم أَلْهَمَهُ الله الْعَرَبِيَّة الْفَصِيحَة الْمُبِينَة فَنَطَقَ بِهَا، وَيَشْهَد لِهَذَا مَا حَكَاهُ اِبْن هِشَام عَنْ الشَّرْقِيّ بْن قُطَامِيّ: "إِنَّ عَرَبِيَّة إِسْمَاعِيل كَانَتْ أَفْصَح مِنْ عَرَبِيَّة يَعْرُب بْن قَحْطَان وَبَقَايَا حِمْيَر وَجُرْهُم". وَيُحْتَمَل أَنْ تَكُون الْأَوَّلِيَّة فِي الْحَدِيث مُقَيَّدَة بِإِسْمَاعِيل بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَقِيَّة إِخْوَته مِنْ وَلَد إِبْرَاهِيم، فَإِسْمَاعِيل أَوَّل مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ وَلَد إِبْرَاهِيم، وَقَالَ اِبْن دُرَيْدٍ فِي "كِتَاب الْوِشَاح": أَوَّل مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ يَعْرُب بْن قَحْطَان ثُمَّ إِسْمَاعِيل. قلتُ: وهذا لا يوافقُ مَن قال إن العربَ كلها مِن ولد إسماعيل، وسيأتي الكلام فيه في أوائل السيرة النبوية ". [110]

والعَرب العارِبَة هم الذين تكلموا بلغة يَعْرُب بن قحطان وهو اللسانُ القديم، ويُسمَّوْن بالقحطانيين، والعَرب المستعرِبة هم الذين تكلموا بلسان عَدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويسمون العدنانيين، والعدنانية هي لغة أهل الحجاز وما والاها من القرى والأمصار. [111]

---

110 "فتح الباري بشرح البخاري"، 403/6، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية – مصر، الطبعة: السلفية الأولى، 1390 هج. ودار المعرفة – بيروت، 1379هـ

111 "التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ" لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، 341/4، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى 1432 هـ – 2011 م.

قال ابن منظور: "وَقِيلَ: إن أَولاد إسماعيل نَشَؤُوا بعَرَبَة، وَهِيَ مِنْ تِهامة، فنُسِبُوا إلى بَلَدِهم. ورُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ: "خمسةُ أَنبياءَ مِنَ العَرب، وَهُمْ: مُحَمَّدٌ، وَإِسْمَاعِيل، وَشُعَيْبٌ، وَصَالِحٌ، وهُودٌ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ". وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لسانَ العَرَب قَدِيمٌ. وَهَؤُلَاءِ الأَنبياء كُلُّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بلادَ العَرَب، فكَانَ شُعَيْبٌ وقومُه بأَرْض مَدْيَنَ، وكَانَ صَالِحٌ وقومُه بأَرْض ثَمُودَ يَنْزلون بنَاحِيَةِ الحِجْر، وكَانَ هُودٌ وقومُه عادٌ يَنْزلونَ الأَحْقافَ مِنْ رمال اليَمن، وكَانُوا أَهل عَمَدٍ، وكَانَ إِسْمَاعِيل بْنُ إبراهِيمَ والنَّبيُّ المصطفى مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ سُكَّان الحَرم". [112]

وكل مَن سَكَنَ بلادَ العَرَب وجَزيرَتَها ونطَقَ بلسانِ أَهلها فَهُمْ عَرَبٌ يَمَنُهم ومَعَدُّهم..

وَقَالَ إِسحاق بْنُ الفَرَج: عَرَبَة باحَةُ العَرب، وباحةُ دارِ أَبي الفصاحة إِسْمَاعِيل وَفِيهَا يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

وعَرْبَة أَرضٌ مَا يُحِلُّ حَرامَها مِنَ النَّاسِ إِلَّا اللَّوْذَعِيُّ الحُلاحِلِ

يَعْنِي النَّبيَّ ﷺ أُحِلَّتْ لَهُ مكة ساعَةً مِنْ نهار، ثُمَّ هِيَ حَرَامٌ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ. قَالَ: واضطرَّ الشَّاعِرُ إلى تَسْكِينِ الرَّاءِ مِنْ عَرَبَة، فسَكَّنَهَا، وأَنشد قَوْلَ الآخَر:

ورُجَّتْ باحةُ العَرَباتِ رَجًّا تَرَقْرَقُ فِي مَناكِبِها الدماءُ

قَالَ: وأَقامتْ قُرَيْشٌ بعَرَبَة فتَنَخَتْ بِهَا، وانتَشَرَ سَائِرُ العَرَب فِي جَزِيرَتِهَا، فنُسِبوا كلُّهم إِلى عَرَبَة، لأَنَّ أَباهم إِسماعيل ﷺ بِهَا نَشأَ، وربَل (أقام) أَولادُه فِيهَا، فكَثُرُوا، فلَمَّا لَمْ تَحْتَمِلهم البلادُ، انْتَشَرُوا وأَقامت قُرَيْشٌ بِهَا. وَرُوِيَ عَنْ أَبي بَكْرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه أَنه

---

112 لسانُ العرب لابن منظور (مادة عرب)، 586/1

و"مَدين" قرية من أرض مَعان على أطراف الشام من جهة الحجاز. و"الأحقاف" موضع باليمن بين عُمان وحضرموت. و"الحِجر" أرض بين الحجاز وتبوك. وفي القرآن سورتان باسم الموضعين الأخيرين.

وانظر: "الإحكام في أصول الأحكام"، لابن حزم، "الباب الرابع: في كيفية ظهور اللغات" 29/1، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

قَالَ: "قريشٌ هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ فِي العَربِ دَارًا، وأَحْسَنُه جوارا، وأَعْرَبه أَلْسنةً".
وَقَال قتادةُ: "كَانتْ قُرَيْشٌ تجْتَبِي (تختار) أَفضل لغاتِ العَرَب، حَتَّى صَارَ أَفضلَ لغاتها لغتُها، فنَزَلَ القُرْآنُ بهَا". قال الأَزهري: وجعل الله، عَزَّ وَجَل، القرآنَ المُنزَل عَلَى النَّبيِّ الْمُرْسَل مُحَمَّدٍ ﷺ عَرَبيّا، لِأنه نسَبه إلِى العَرب الَّذِينَ أَنزله بِلِسَانِهمْ، وَهُمُ النَّبيُّ وَالْمُهَاجِرُونَ والأَنصار الذِينَ صيغة لسَانِهِمْ لغة العَرَبِ فِي بَادِيَتِهَا وقُرَاهَا العَرَبِيَّة، وجَعَلِ النبيّ ﷺ عَربيّاً لأَنه مِنْ صَرِيحِ العَرَب، ولَوْ أَنَّ قوْماً مِنَ الأَعراب الذِّينَ يَسْكُنون البادية حضروا القُرَى الْعَرَبِيَّة وَغيْرَهَا، سُمُّوا عَرَبًا وليس أَعْرابًا.

## لسانُ حِمْير وأَقاصي اليَمن

قال ابن سَلاّم: وأَخبرني يُونُس عَن أَبِي عَمْرو بن الْعَلَاء، قَالَ: "الْعَرَب كلهَا ولد إِسْمَاعِيل إِلَّا حِمْير وبقايا جُرْهُم". وسئل أَبو عَمْرو عن لسان حِمْيَر، فقال: "ما لسانُ حِمْير وأَقاصي اليمن بلساننا، ولا عَربيتهم بعربيتنا" [113]، ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عُروبة حِمْير، ولا من عُروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخرَ مخالفٍ للساننا، بل عَدُّوهُمْ من صَمِيم العَرب ومن لُبِّها، ونحن هنا لا نستطيع أن نُنكِر على الأقوام العربية المنسيةِ عروبتَها لمجرد اختلاف لسانها عن لساننا، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغةٍ لا نفهمها، فلغتها هي لغة عربية، ما في ذلك شك ولا شبهة، وإن اختلفتْ عن لسان يَعْرُب بْن قَحْطَان –أو أي جدّ آخرَ- يزعم أهل الأخبار أنه كان أول من أَعْرَبَ في لسانه؛ فتكلم بهذه العربية التي أخذت تسميتَها من ذلك الإعراب.

## "العَربية" عند علماء اليونان والرومان

ولفظة "العربية" *arabae* عند اليونان والرومان، هي في معنى "بلاد العرب". وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام. وسكانها عَرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم،

113 "طبقات فحول الشعراء" 1/ 11، محمد بن سلام، ت/ محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية.

على سبيل التغليب؛ لاعتقادهم أن البداوةَ كانت هي الغالبةَ على هذه الأرضين؛ فأطلقوها من ثَمّ على الأرضين المذكورة. وتدل المعلوماتُ الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد شيخ المؤرخين والجغرافيين "هيرودوت" ***Hérodote*** (نحو 484–425 ق.م)، على تقدُّمٍ في معارفهم عن بلاد العرب، وعلى أن حدودَها قد توسعتْ في مَداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان؛ فصارت لفظة "***arabae***" عندهم علمًا علىِ الأَرَضِين المأهولة بالعرب، والتي تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية، وصارتْ كلمة "عربِي" عندهم علمًا للشخص المقيم في تلك الأرضين، من بدو ومن حضر؛ إلا أن فكرتهم عن حَضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدوي، بمعنى أنهم كانوا يتصوّرون أن العرب هم أَعْراب.[114]

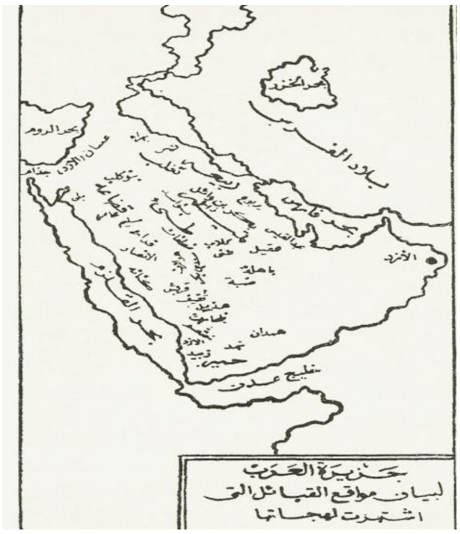
وقد عُرف البدو، أي سكان البادية، بالأعراب في عربية القرآن الكريم حيث ذُكروا في مواضع من كتاب الله، ونعتوا فيه بنُعوت سيئة –في الغالب–، تدل على أثر خُلق البادية فيهم كما في سور: التوبة، /97– 101، الفتح/ 11، الحجرات/ 14.

والنص الوحيد الذي وردتْ فيه لفظة "العرب" عَلَمًا على العرب جميعًا من حَضر وأعراب، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي هو القرآن الكريم. وقد ذهب "د. هـ. مولر" ***D.H Muller*** إلى أن القرآن الكريم هو الذي خَصّص الكلمة وجعلها عَلَمًا لقومية تشمل كل العرب. وهو يشك في صحة ورود كلمة "عرب" عَلَمًا لقوميةٍ في الشعر الجاهلي، كالذي ورد في شعر بعض الجاهليين. ورأي "مولر" هذا ضعيف لا يستند إلى دليل؛ إذ كيف تُعقل مخاطبة القرآن قومًا بهذا المعنى لو لم يكنْ لهم علمٌ سابق به؟ وفي الآيات دلالة واضحة على أن القوم كان لهم إدراك لهذا المعنى قبل الإسلام، وأنهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربي، وأنهم كانوا يقولون للألسنة الأخرى ألسنة

114 "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، 1/ 22 وما بعدها، جواد علي، دار الساقي، 1422هـ.

أعجمية، كقوله ﷻ ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ . وقوله ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ . وقوله ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ . وقوله ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ ففي هذه الآيات وغيرها دلالة على أن الجاهليين كانوا يطلقون على لسانهم لسانا عربيًا، وفي ذلك دليل على وجود الحس بالقومية العربية قبيل مجيء الإسلام. . .



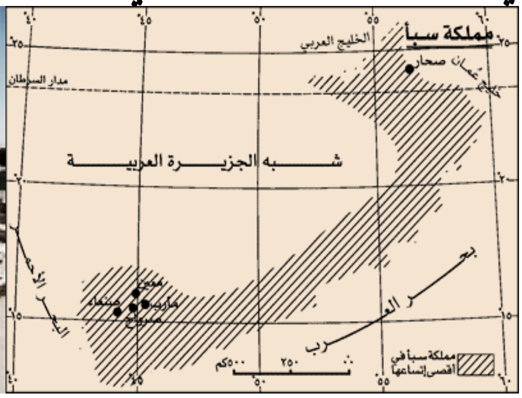
# المبحث الثاني
# قِسمَا العَربيَّة الجَنوبي والشَّمالي وأشهَرُ لَهجاتهما

قُسمتِ اللغة العربيةُ من قبل علماء الآثار إلى قسمين كبيرين: جنوبيٍ وشمالي.
والعلماء يطلقون على العربية الجنوبية اسم: "اليمنية القديمة" أو "القحطانية"، ويلقبها بعضهم أحياناً "بالسبئيَّة" تسميةً لها بإحدى لهجاتها الشهيرة التي تغلبت عليها في صراعها معها، وكثير من النقوش المدونة على التماثيل والقبور والأعمدة والصخور وجُدران الهياكل والنقود هَدَتنا إلى أصولِ هذه العربية الجنوبية القديمة، وإلى طريقة رَسمها وأسلوب تعبيرها، فعرفنا منها أن هذه اللغة بلهجاتها المتعددة تختلف عن اللغة العربية الشمالية –وهي المقصودة بالعربية عند الإطلاق– اختلافاً أساسيًّا في القواعد النحوية، والمظاهر الصوتية، والدلالات المعنوية.
وأهم اللهجات العربية الجنوبية أربعٍ: المعينية، والسبئيَّة، والحضرمية، والقتبانية، ومعها اللغات السامية في الحبشة، ولو تأثر معظمها باللهجات الحامية.
<u>والمعينية"</u>: هي اللهجة المنسوبة إلى المعينين الذين أسسوا في بلاد العرب، في القسم الجنوبي من اليمن، مملكةً قديمة لا يعرف على وجه التحديد متى كانت نشأتها، وإن كانت بعض الدلائل تشير إلى أنها دامت من 1200 إلى 650 ق م.
<u>والسبئيَّة:</u> هي اللهجة المنسوبة إلى السبئيين الذين أقاموا مملكتهم على أنقاض المملكة المعينية، ومدينة "مأرب" كانت عاصمة المملكة السبئيَّة (650-115 قم) التي كان لها في التاريخ شأن عظيم، وذُكرت قصتُها في القرآن الكريم في سورة تحمل اسمها، قال ﷻ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ

بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . . . ﴾[سبأ/15-16]، كما قص الله ﷻ طرفا مما وقع لملكتهم مع سيدنا سليمان في [سورة النمل/ 19-44] .

وظلت السبئية سائدة في بلاد اليمن خلال المدة الطويلة التي قبض فيها السبئيون على زمام الحكم؛ بل لدينا من الآثار والنقوش ما يؤكد بقاء هذه اللهجة حتى في أثناء الحكم الحبشي الأول لهذه البلاد "بين سنتي 375-400 بعد الميلاد" .






والحضرمية: هي اللهجة المنسوبة إلى حضرموت (450-155 ق م)، التي استمرت أمدًا غير قليل تنازل سبأ الحكم والسلطان، وكانت حضرموت مملكة عظيمة ذات حضارة زاهرة، ولكن سبأ كانت أقوى منها فغلبتها على أمرها وأزالتها من الوجود .

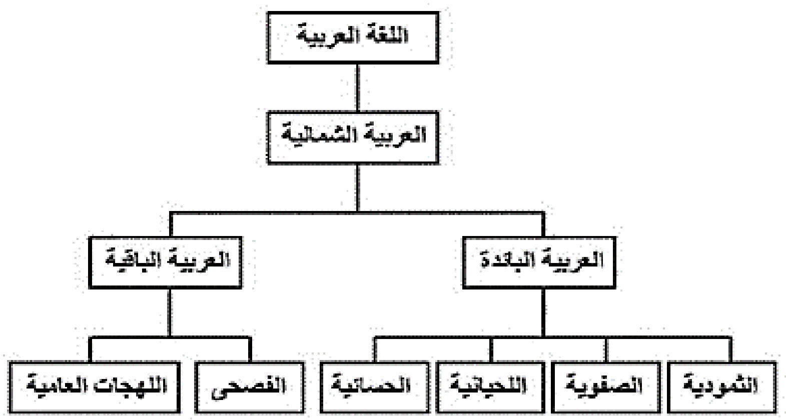
والقتبانية: هي اللهجة المنسوبة إلى قتبان (950-220 ق م) وهي مملكة عظيمة أنشئت في المنطقة الساحلية الواقعة شمال عدن، وكُتِبَ عليها أن تنقرض في أواخر القرن الثاني ق. م. بعد الحروب الكثيرة التي نشبت بينها وبين سبأ، وكان من نتائج هذه الحروب أن اندمجت القبائل القتبانية في السبئية التي غلبتها على أمرها .

والحبشية السامية: لغات أهمها الجَعزية، والأَمْهرية، والتيجرية، وأقدم هذه اللغات هي الجعزية، أو الحبشية القديمة، التي يرتد تاريخ آثارها إلى سنة 350م. وهي في بعض خصائصها قريبة من العربية، وحلت محلها الأمهرية سنة 1270م، ثم باتت منذ القرن التاسع عشر لغة الحبشة الرسمية. أما التيجرية فهي شديدة الشبه بالجَعزية وإن لم تتفرع منها .

من هذا العرض السريع للهجات العربية الجنوبية، يتضح أن السبئية –في صراعها معها– هي التي غلبتها جميعًا، فقوضت قبائلها مُلكَ المعينين والقتبانيين، وظلت لها السيادة في بلاد اليمن القديمة. وأكثر النقوش التي عُثِرَ عليها مدونة بهذه السبئية المتغلبة وُجدت في منطقة العُلا في الواحات الواقعة شمال بلاد الحجاز، ومنها ما عُثِرَ عليه في المناَطق الشمالية المتاخمة لبلاد كنعان، والخط الذي دُوِّنَتْ به هذه النقوشُ هو المعروف "بالمسند"، الذي تستند أكثر حروفه إلى ما يشبه الأعمدة، وهو خط هندسي الشكل لطيف منسق.[115]

## العربيةُ الشمالية: البائِدة والباقية وأهـم لهجاتهما

المراد من العربية البائدة "عربية النقوش" التي بادت لهجاتها قبل الإسلام، وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي، لبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز، ويقصد بالعربية الباقية هذه اللغة التي ما نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والأدب وأهم اللهجات العربية البائدة ثلاث: الثمودية، والصفوية، واللحيانية.

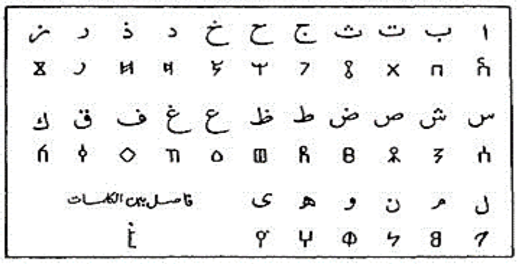



115 للاستزادة ينظر الكتب التالية: "فقه اللغة" د. علي عبد الواحد وافي –"دراسات في فقه اللغة" د. صبحي الصالح – "فقه اللغة وخصائص العربية" لمحمد المبارك – "دراسات في العربية وتاريخها" محمد الخضر الحسين.

فالثمودية: هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل ثمود، التي جاء في القرآن ذكرها وذكر مساكنها في مواضع كثيرة، وكيف أنهم كانوا يقطعون الصخر وينحتون من الجبال بيوتا، وتاريخ معظم النقوش المدونة بهذه اللهجة يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، ويبلغ تعداد هذه النقوش ما يزيد عن ألف وسبعمائة عُثِرَ عليها فيما بين الحجاز ونجد وفي شبه جزيرة سيناء وبالقرب من دمشق، وقد دُوّنت بخط جميل أنيق مشتق من "المسند" يتجه من أعلى إلى أسفل، ولا يثبت على حال واحدة، وإذا أمعنَّا النظر في النقوش الصفوية، وجدنا فيها كلمات غير مألوفة في العربية، أُخذت من العِبرية والسُّريانية.

والصَّفَوية: هي اللهجة المنسوبة إلى منطقة "الصفا"، وإن كانت نقوشها قد عثر عليها في مواطن مختلفة في الحَرَّة الواقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز، ويزيد عدد هذه النقوش حتى هذا التاريخ على ألفين، ولعل تاريخ تدوينها يرجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين.

واللحيانية: هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل "لحيان" التي يرجح أنها كانت تسكن شمال الحجاز قبل الميلاد، وقد عُثِرَ على نقوش كثيرة تذكر أسماء ملوك لحيان، وأغلب الاحتمالات أن تاريخ هذه النقوش يعود إلى ما بين سنة 400 وسنة 200 قبل الميلاد، والخط الذي دونت به مشتَقٌ كذلك من المسند، غير أنه آنق، وألطف وأثبت نظامًا، وأكثر رونقا من الخطين الثمودي والصفوي، فهو يكتب مستعرضاً من اليمين إلى الشمال.



# المبحث الثالث

## العربيةُ الباقيةُ وأشهرُ لَهَجاتها

اللغة العربية الباقية هي التي ما نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والأدب، وهي التي وصلتنا عن طريق الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والسنة النبوية؛ لذلك تنصرف إليها "العربية" عند إطلاقها، والواقع أن الإسلام صادف –حين ظهوره– لغة مثالية مصطفاة موحدة، جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم، فزاد من شمول تلك الوحدة وقوّى من أثرها بنزول قرآنه بلسان عربي مبين هو ذلك اللسان المثالي المصطفى، وكان تحدّيه لخاصة العرب وبلغائهم أن يأتوا بمثله، أو بآية من مثله، أدعى إلى تثبيت تلك الوحدة اللغوية، على حين دعا العامة إلى تدبر آياته وفقهها وفهمها، وأعانهم على ذلك بالتوسعة في القراءات، ومراعاة اللهجات، في أحرفه السبعة المشهورة.

والوحدة اللغوية التي صادفها الإسلام حين ظهوره، وقوّاها قرآنه بعد نزوله، لا تنفي ظاهرة تعدد اللهجات عمليًّا قبل الإسلام وبقاءها بعده، بل من المؤكد أن عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة، وإنما كانوا يعبرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفات لهجاتهم، قال ابن هشام: "كانت العرب يُنشدُ بعضهم شعرَ بعض، وكلٌ يتكلم على مقتضى سَجيته التي فُطر عليها، ومن ههنا كثُرتِ الرواياتُ في بعض الأبيات" . [116]

---

117 بتصرف من: "دراسات في فقه اللغة" للدكتور صبحي الصالح، ص/ 52-62، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة 2009م.

# تَاريخٌ حَافلٌ بالمَجْد

يتضح مما تقدم ان اللغة العربية الفصحى تمتاز –من بين لغات العالم الكبرى– بتاريخها الطويل المتصل، وثروتها الفكرية والأدبية، وحضارتها التي وصلت قديم الإنسانية بحديثها، ورابطتها –التي لا تنفصم– بكتاب مقدس، ودين يزيد معتنقوه عن خمس سكان العالم. وهذه الحقيقة يؤيدها التاريخ تأييدا قاطعاً، فإن حياة الأمة العربية منذ نشأتها في شبه الجزيرة الى الآن ارتبطت بالعربية الفصحى ارتباطا وثيًقا في كل أدوار تاريخها الطويل، فاستندت إليها في مَهدها، واعتصمتْ بها في فترات انكماشها، واستمدت منها القوة والإلهام في يقظتها الحديثة.

لقد ظل عرب شبه الجزيرة زمًنا في جاهليتهم قبائل متفرقة، لكل منها لهجتها وخصائص لسانها، ثم أخذت تلك اللهجات تتقارب وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتنقيح والاختيار حتى برزت من بينها لغة موحدة، اصطنعها كبار الشعراء في المواسم والأسواق العامة، وتناقل الرواة أجود الشعر بها في سائر أنحاء الجزيرة، وأصبح ذلك الأدب الموحَّدُ اللسان ديواًنا للعرب في معارفهم، وفي نماذج أخلاقهم ومثلهم الفردية والاجتماعية، وكان ذلك إيذانًا بمولد الشخصية العربية، وإرساءً للحجر الأساس في بنائها، وتمهيداً ضروريا للانطلاقة الكبرى التي حققها العربُ تحت راية الإسلام.

وقد ظهر فيهم في أوائل القرن السابع الميلادي رسول منهم، حَرَّرهم من الأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية الفاسدة، وجمعهم على عقيدة التوحيد، وجاءت آيته الدالة على صدق رسالته كتاباً عربياً مُبينا، مُعجزا في نَظمه، بالغاً في روعته وتأثيره، جامعاً لما تتطلبه الحياةُ الفاضلة والدعوةُ المرشدة من أصول الإيمان، ومبادئ التشريع، وقواعد السلوك، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء والرسل، فوجد العربُ في هذا الكتاب صورةً مثالية عن عبقرية لغتهم الموحدة، وضمِنَ بها الانتشارَ والخلودَ لهذه اللغة التي أصبحتْ لسانَ الرسالة السامية، وحاملة شعلتها إلى جميع الألسنة

والأجناس، فاكتسبت بذلك قُدسية أبدية لم تكن لها في الأصل. وقد حرص صاحبُ الدعوة ﷺ على أن يُعطي العروبة في هذا المجتمع المثالي مفهوما جديدا، فنبّه ﷺ -فيما رُوي عنه- إلى أنها عُروبة لسان لا عروبة جنس أو عَصبيّة، فمَن رَضِيَ العربية لسانا فهو من العرب، وإن كان في حِساب السلالات حَبَشياً أو فارسيا.

«عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: جَاءَ قَيْسُ بْنُ مُطَاطِيَّةَ إِلَى حَلْقَةٍ فِيهَا سُلَيْمَانُ وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ وَبِلالٌ الْحَبَشِيُّ فَقَالَ: هَذَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ قَامُوا بِنُصْرَةِ هَذَا الرَّجُلِ، فَمَا بَالُ هَذَا؟ فَقَامَ إِلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَقَالَتِهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ قَائِمًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ نُودِيَ أَنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ، فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّبَّ رَبٌّ وَاحِدٌ وَالْأَبَ أَبٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِأَحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلَا أُمٍّ وَإِنَّمَا هِيَ» لِسَانٌ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ". فَقَامَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَهُوَ آخِذٌ بِتَلْبِيبِهِ، قَالَ "فَمَا تَأْمُرُنَا بِهَذَا الْمُنَافِقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ دَعْهُ إِلَى النَّارِ" فَكَانَ قَيْسٌ مِمَّنِ ارْتَدَّ فَقُتِلَ فِي الرِّدَّةِ». [117]

وبهذا تَحققت الخطوةُ الأساسيةُ في نمو الشخصية العربية، واتساع كيانها، وأُعِدَّ المسرحُ لظهور أمة مؤمنة مُوحّدَة المشاعر واللسان، وتحررت الطاقاتُ الروحية والعقلية للعرب -تحت راية التطور الجديد- فانطلقوا يَنشرون دعوةَ التوحيد، ويحررونَ شعوبَ

---

[118] قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (925): "هذا سند ضعيف جدا، أبو بكر الهذلي متروك، كما قال الدارقطني والنسائي و غيرهما و كذبه غندر. ثم رأيت الحديث في موضع آخر من "تاريخ ابن عساكر" (8/ 190 – 191) من هذا الوجه"، وقال: "هذا حديث مرسل، وهو مع إرساله غريب، تفرد به أبو بكر سلمى بن عبد الله الهذلي البصري، ولم يروه عنه إلا قرة". قلت: ولم أجد من ترجمه، فهذه علة أخرى. ومثله الراوي عنه: العلاء. وعلى الصواب ذكره ابن تيمية في" الاقتضاء" (169- طبع الأنصار) من رواية السّلفي، ثم قال ابن تيمية: " هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركب على مالك، لكنّ معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه ".

الأرض من سُلطان العقائد الفاسدة، وَيبيعون أرواحَهم في سبيل الدفاع عن الدين الحق، ويُسجلون أروعَ ما عَرَفت البشرية من صفات البطولة والنُّبل والمروءة والتسامح والإخاء والعدالة بين الناس..

وأقبلَ المسلمون وأقبلتِ الشعوبُ المُستظِلة بظِل حُكمهم على القرآن الكريم يَدرسونه ويستنبطون منه ما استطاعوا من دراسات، وعلى لغة الفصحى يَنهضون بفنونها وعلومها، ويُسجلون بها روائعَ الفكر والأدب، وشَهد العالمُ نشأةَ حضارة عالمية شاملة، تفسح صدرها لجميع الثقافات، وتوفر حرية الاعتقاد لكل مواطن، وتتخذ من لغتها الفصحى رابطةً إنسانية مَكينة، تُوحد بين شعبها فِكرا وحياةً، وتُسهم في رقي البشرية في كل الميادين العلمية. [118]



## دِراسَةُ العَربيّةِ ومُقارَنَة لهَجاتها

يرى الأستاذ الرَّافِعي (1881–1937 م) أن أهل العلم في أوروبا عُنوا –منذ القرن التاسع عشر للميلاد– بالبحث في مظاهر العَقل الإنساني بحثًا علميا مَبنيا على قواعدَ وأُصول مُقررة كسائر العلوم الأخرى، فدرسوا الأديانَ والعاداتِ، ولما أرادوا مُقابلة ذلك بَعضه ببعض لتعيين المواضع المتداخلة منه، اضطروا إلى مراجعة اللغات والبحث فيها؛ فنشأ من ذلك علمان، أحدهما: سمَّوه علم اللغات "*La Philologie*" والثاني: "علم الأساطير ومعارضتها" "*La Mythologie Comparée*"، وبذلك وضع الأستاذان "كريم" *Jakob Grimm (1785-1863)* و"بوب" *Franz Bopp (1791-1867)* علمًا يبين

119 بتصرف من: "التواصل اللغوي والتعليم" د. فتحي علي يونس، ص/17 وما بعدها.

أصلَ اللغات وتحوُّلَها . ثم لما وَقفوا على لغات الشعوب الصينية وقابلوها بلغات الأمم الفطرية التي درسها "المرسلون" المنبثون في كل قاصية، وضع الأُستاذ "همبولت" *Humboldt* [119] علمًا سماه دراسة اللغات "*La Linguistique*"، وأول المشتغلين بهذه العلوم وأشهرهم من الألمان، وإن كان قد فكر فيها قبلهم بعض الفرنسيين.

ثم قال الرافعي: "ولم نجد لأحدٍ من علماء العربية في التاريخ الإسلامي كله بحثًا يُشبه ما وُضع من تلك العلوم، حتى ولا في لهجات العرب أنفسهم ومُعارضة بَعضها ببعض؛ لأنهم لم ينظروا إلى اللغة بالعين الزمنية "التَاريخ" التي تَطمح إلى كلِ أفق، بل أخذوها على المعنى الدينيِ الثابت الذي لا يتغير، وجعلوا عاليَها سافِلها، فاعتبروا أصلَ الفصاحة إسماعيل عليه السلام، وإن لغته دَرَستْ مِن بعده، ثم كانت في القرآن الكريم والبلاغة النبوية وهما أفصحُ ما عُرف من الكلام، إلا أن قليلًا منهم؛ كأبي علي الفارسي، وتلميذه ابن جني، والزمخشري؛ قد أصابوا من ذلك مَحزّاً جرتْ فيه أقلامهم؛ وكان أسبقَهم إلى الغاية ابنُ جني؛ فإنه بحثَ في وَضع اللغة ونشأتها وحكم اشتقاقها ومُقابلة موادها بَعضها ببعض. . . ". [120]

---

119  فريدريك فلهيلم فون همبولت *Wilhelm von Humboldt* 1767–1835 . دبلوماسي، فيلسوف، لغوي مؤسس جامعة هامبولت ببرلين، عاصمة ألمانيا الحالية. وهو صديق الشاعرين الألمانيين "جوته" *Goethe* و"شيلر" *Schiller* . وهو واضع أساسيات نظام التعليم في بروسيا *Prussia* القديمة، النظام الذي أخذته أمريكا واليابان أسوة في نظاميهما التعليميين .

120 "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي، 46/1، وما بعدها، طبعة دار الكتاب العربي .

# المبحث الرابع

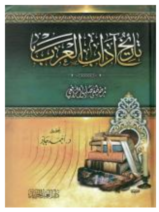
## تَهْذِيبُ اللغةِ العَربيّةِ وأطوارُهُ

يرى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن العربيةَ في مسيرتها الطويلة مرت بأدوار ثلاثة من التهذيب، "والعرب قوم مَلكوا الأرض ولم تملكهم، فلم يُؤْثر عنهم شيء في جاهليتهم الأولى من أنواع الدلالة الثابتة: كالكتابة والآثار ونحوها، ولا دخلوا في تاريخ أمة من أمم الحضارة فيكون لهم نوع من تلك الدلالة؛ وعلى ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضاً قد مَلكت التاريخَ ولم يملكها؛ وهي لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من الإصلاح وجرت على مناح من التهذيب".

الطور الاول: تهذيب إسماعيل ﷺ

وعلماء العرب في أمر اللغة وتهذيبها مجمعون على أن إسماعيل عليه السلام أصل العربية المُضرية؛ ولذلك قال صاحب "المخصص" (علي بن إسماعيل، ت/ 458 هـ) في موضع من كتابه: "وَصَارَت لغتهم الأَصْل لِأَن العَرَبِيَّة أَصْلُها إسماعيل عَلَيْهِ






مصطفى صادق الرافعي عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا بمصر. أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقيّ الديباجة، على جفاف في كثير منه، ونثره من الطراز الأول. له (ديوان في ثلاثة أجزاء)، و (تاريخ آداب العرب) و (تحت راية القرآن) و(رسائل الأحزان) و (على السفود)، و (وحي القلم)، و (ديوان النظرات) و (السحاب الأحمر) و(حديث القمر)، و (المساكين) و (أوراق الورد). و(رسائل الرافعي) وهي رسائل خاصة، مما كان يتبادله مع ابي رية، اشتملت على كثير من آرائه...

السَّلَام وَكَانَ مَسْكَنه مَكَّة". [121] وعندهم أن العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة! وهذه هي التي نزل بها القرآن، وقد انفتق بها لسانُ إسماعيل، قالوا: وعلى هذا يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحًا بينه وبين "جرهم" النازلين عليه بمكة، وإما أن يكون توقيفًا من الله تعالى، وهو الصواب".

الطور الثاني: انتشار القبائل العربية وتنوع لهجاتهم

«خرج أولاد إسماعيل عليه السلام، ومنه انشعبت القبائل بعد أن كانت لغتهم قد اشتدت وقطعت مسافة بعيدة من الفرق بينها وبين أصلها الذي اشتُقت منه، فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال. ومن شأن الكمال في الاستقلال اللغوي استعمال القوى الكامنة في اللغة نفسها وإعطاؤها الحياة والنمو في باطنها، لا تهيئة هذا الكمال بما يتناول من قوى غيرها، فإن ذلك تبعية لا استقلال؛ وقد كان هذا الاستعمال الذي أشرنا إليه أصل التهذيب الثاني الذي أحدثته القبائل بعد انشعابها، فإن أعظم الأسباب في تكوين العربية على هذا النحو من اللين والمطاوعة على التغير الذي تعاورها في كل عصورها قبل الإسلام، إنما هو عدم كتابتها؛ لأن ما كُتب لا يتغير. . . وهي قد صادفت من العرب قومًا كما علمتَ في وصفهم من التركيب الخلقي الصحيح، والفطرة البدوية السليمة، والطبيعة العربية السامية؛ إذا كنا نرى اختلاف صورة الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن، فأَحر بذلك أن يكون في الإنسان وفي اللغة المقوّمَة له. . . ولما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تتنوع؛ والعرب إنما تهجم بهم طبائعهم على حقائق الكلام، وبذلك لا بد أن تكون قد تعددت طرق الوضع في

---

121 "المخصص"، 4/333، ت: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ

اللغة بطول المدة واتساع الاستعمال وتقليب الكلام على وجوهه المستحدثة؛ ومن ثم نشأت اللغات الكثيرة التي تشير إلى تاريخ هذا النّوع؛ لأنها مادته الحقيقية. . .

وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة، فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتّين لغة ثالثة، كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه، حتى كأن ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم؛ فكل منهم يُفصل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خُلق فيه ورُكب في طبعه وكان مظهر قريحته؛ ومن هذه الجهة نشأ بينهم التنافس في إحكام اللغة، والمفاخرة بالبيان، وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خَلقيًا في الألسنة الشاذة، وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مما هو من طبيعة المخالطة. . . » [122]

الطور الثالث: عَمل قُرُيْش وَحدَها

«وذلك أن قريشًا كانوا ينزلون من مكة بوادٍ غيرِ ذي زرْع، لا يستقل أهله بتكاليف الحياة، ولا يرزقون إذا لم تَهْوِ إليهم أفئدةٌ من الناس، وكانت الكعبة شرّفها الله وجهة العرب وبيتَ حجهم قاطبةً في الجاهلية. . .وكانت تلك القبائل بطبائعها متَباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائرِ القبائل ما فعلوه، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألَانَ مِن طباعهم وكسر من صلابتهم، فاتفقت في حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة

122 "تاريخ آداب العرب" 1/61-62 بنوع من التصرف. وانظر للاستزادة المرجعين التاليين:
-"دراسات في العربية وتاريخها"، محمد الخضر الحسين، ص/ 120 وما بعدها، المكتب الإسلامي، 1960م.
-"الفصحى لغة القرآن"، للأستاذ أنور الجندي، ص/19-44، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1982م.

بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس. فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد حَتى رقتْ أذواقهم، وسَمَت طبائعهم، وقوِيَت سلائقهم؛ وحتى صاروا في آخر أمرهم أجودَ العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما في النفس. وكانت لهم رحلتان في التجارة كل عام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بُصرى في حوران، وهي حاضرة ذلك الجبل؛ وكذلك كانوا يضربون في الأرض إلى فارس وإلى الحبشة، فسمعوا مناطق الناس وتدبروا وجوه العذوبة في أعذبها، وتناولوا كثيرًا من ألفاظ تلك الأمم، فداخلت كلامهم وأعربوها من الرومية والفارسية والعبرانية والحبشية والحميرية؛ وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة ويقوم عليها ويشد أزرها ويرفع من شأنها ويزيد في ثروتها، وبالجملة يحقق فيها كل معاني الحياة اللغوية.

ولا يسع المتأمل في الأدوار التي تعاقبت على قريش في تهذيبها اللغة، إلا أن يستسلم للدهشة، ويحار من أمر هذا التعاقب، فإنه كالسلم المدرجة: تنتهي الدرجة منها إلى درجة، على نمط متساوق من الرقي إن لم يكن عجيبًا في تاريخ أمة متحضرة، فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب، ولا سيما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة إلى مائة وخمسين على الأكثر؛ فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش، وهو أفصح الأساليب العربية بلا مِراء؛ والله يحكم ما يشاء ويقدر».

## العربيةُ لغةُ حَضارةٍ ضارِبَةٍ في القِدَم

العربية إذن لغة العرب، إنها لغة حَضارة امتَدت عشرات القرون، بكل ما زخرت به من تنوّع معرفي أو ديني كان لها بمثابة الحِصن الحصين؛ ذلك أنها قدّمتْ

نتاجاً دينياً وحضارياً ومعرفياً لا يُستهان به، فشكّلت ذاكرةَ الأمة وخزّان تراثها، وكانت لغة القرآن ولغة الحديث، فجمعت المجد من طرفيه: العروبة والإسلام.

ولكن لم تكن للغة العربية قبل الإسلام مكانة عالمية أو أثر ذو بال، إلا أنها كانت بين أهلها أوسعَ وأكبرَ وسيلة اتصال، وكانت لها مكانة عظيمة في نفوسهم حتى إنهم أقاموا أسواقًا أدبية من أجل نشر علومها . لقد نظر العربُ الى الشاعر نظرتهم الى المَلِك والأمير، وكلما كان الشعرُ وفيّاً للمبادئ والقيم كان وقعُه أشدَّ في مجتمع يَعتبِرُ الشعرَ ديوانا، وهي مكانة مرموقة أكّدها النبي الكريم ﷺ حين قال: (إنَّ مِنْ الشّعْر حِكَمًا) . ومِنْ في الحديث تَبْعيضِيَّة، يُرِيدُ أَنَّ الشّعْرَ لا دَخْلَ لهُ فِي الْحُسْنِ وَالْقبْحِ . . وَالْمَدَارُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى المَعَانِي لا عَلَى كَوْنِ الْكَلَامِ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا، فَإِنَّهُمَا كَيْفِيَّتَانِ لِأَدَاءِ الْمَعْنَى وَطَرِيقَانِ إِلَيْهِ، وَلَكِنِ المَعْنَى إِنْ كانَ حَسَنًا وَحِكْمَةً فَذَلِكَ الْشّعْرُ حِكمَةٌ، وَإِذَا كَانَ قبيحًا فَذَلِكَ الْشّعْرُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُذمُّ الشّعْرُ شَرْعًا بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ غَالِبًا يَكُونُ مَدْحًا لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلِهَذا لَمَّا قَالَ تَعَالَى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتبعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ أَثْنى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿إِلَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ " .[123]

ويروى الحديث: «وإن مِن الشعر حُكما»، قال ابن الأثير في "النهاية": أي: إن من الشعر كلاما نافعاً يمنع من الجهل والسَّفَه، وينهى عنهما، قيل: أراد بها المواعظ والأمثال التي يِنتفع بها الناس، والحُكمُ: العلمُ والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر: حَكَم يَحْكم، ويروى: «إن من الشعر لحِكمة» وهي بمعنى الحكم.

ورُوي عن عُمر ﷺ قوله: «كان الشّعرُ علمَ قوم لم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه».

وقال أبو فِراس الحَمداني:

123 "كفاية الحاجه في شرح سنن ابن ماجه"، 410/2، محمد بن عبد الهادي السندي، دار الجيل بيروت، ب ت ط .

الشِعرُ ديوانُ العَرَب		أَبداً وَعُنوانُ الأَدَب

ولقيمة الشعر السامية أعلى العربُ مكانته لِتوارى الخطابةُ والخطيبُ بحضور الشعرِ والشاعر؛ وتتجلّى مظاهرُ هذه المكانة الرفيعة باعتِباره مصدرا ثقافيّاً مُعتمداً وحُكماً مقدَّماً لديهم، "وكانت القبيلةُ من العرب إذا نبغ فيها شاعرٌ أتت القبائلُ فهنّأتها، وصنعتْ الأطعمة، واجتمع النساءُ يلعبن بالمزاهر (العيدان)، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه (الشاعر) حماية لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذِكرهم. وكانوا لا يهنّئون إلا بغلام يُولد أو شاعر يَنبغُ فيهم أو فرس تنتج" .[124]

وكانت تُعقد المجالسُ لسماع الشعر وإنشاده، وتُقام الأسواقُ من أجل المفاخرة والمباراة بين القبائل عن طريق سلاح الشعر، بل إن القبائل التي لا ينبغ فيها الشعراءُ كانت تشعر بالنقص والضعَة، وخُمول الذكر والهوان! ومن أشهر أسواقهم في الجاهلية "سوق عُكاظ"، التي كانت تعقد في وادٍ بين مكة والطائف، في قبيلة هَوازن. وكانت العربُ تأتيه من أول ذي القعدة إلى عشرين منه، ثم تسير إلى سوق مِجَنّة –بأَسْفَلِ مَكَّةَ، من قبيلة كِنانة– فتقضي فيه العشر الاواخر من ذي القعدة، ثم تسير إلى "سوق ذي المَجاز" – بِنَاحِيَةِ عَرَفَةَ، وتحميه هُذيل– فتقضي فيه الأيامَ الثمانية الأولى من ذي الحجة، ثم تسير إلى حَجّها . ولبثَ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ يَتبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ بِمَجِنَّة وَعُكَاظٍ يُبَلّغ رِسَالَاتِ رَبّه. [فتح الباري، 594/3]

---

124 "العمدة "، لابن رشيق القيرواني، 1/ 65، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، الطبعة الخامسة سنة 1981 م.




ثم توارت أهميةَ هذه الأَسواق في الإسلام، وبرز "سوق المِرْبَد"، قرب البصرة، وسوق الكُناسة قرب الكوفة. ويُضاف إليهما المساجدُ التي كانت تقام فيها المجالسُ الشعرية أيضاً، فعل ذلك رسول الله ﷺ مع عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير، رضي الله عنهما، وحسّان بن ثابت رضي الله عنه الذي كان ينشد الأشعار في المسجد النبوي ينافح بها عن النبي ﷺ ودعوة الإسلام.

---

والشعر -كما قَالَ عمر بن الْخطاب رضي الله عنه - كَانَ علمَ قوم لم يكن لَهم علمٌ أصحّ مِنْهُ" [125]، والجيد منه هو السحر الحلال، والعذب الزلال. وكان يقال: "لا تدع العربُ الشعر حتى تدعَ الإبلُ الحنين". وعن ابْنَ عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُونِي عَنْ عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ، فَالْتَمِسُوهُ بِالشِّعْرِ فَإِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ الْعَرَبِ» [126].

---

125 "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلّام الجمحي (ت/ 232هـ)، المحقق: الأستاذ محمود محمد شاكر، الناشر: دار المدني بجدة والقاهرة.

126 "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" 198/2، أبو بكر الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، المحقق: الدكتور محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً» [127] .

والنبي ﷺ وإن قال في حقه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، غير أنه كان يحب سماع الشعر الرصين ويستنشده بعض الصحابة أحيانا، فعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيئًا؟" قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: "هِيهِ" فَأَنْشَدْتُهُ بَيتًا. فَقَالَ: "هِيهِ" ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيتًا. فَقَالَ: "هِيهِ" حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيتٍ"».

وقد النبي ﷺ يرتجز البيت أو البيتين، لأن الممتنع عليه كان إنشاء الشعر لا إنشاده.

وعند البخاري أن النبي ﷺ قال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ"، وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ». [حديث/ 3841].

وعند الترمذي: «عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ: قِيلَ لَهَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ ويقول "وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ"» [128].

## ارتقاءُ العربيّة في صدر الإسلام وأهم أسبابه

ارتقتِ اللغةُ العربية في صدر الإسلام إلى طورها الأعلى، ودخلتْ أهمَّ دَورٍ يَحق لنا أن نسمّيَه عصرَ شبابها، فنمتْ عروقها وأثمرتْ غصونها بألوان مختلفة من الأساليب.

---

127 "مسند الإمام أحمد بن حنبل" 14/35، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

128 "سنن الترمذي"، 139/5، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر. والبيت لطَرَفَة بنِ العَبْدِ، وصدره: ستُبدي لك الأيّامُ ما كنتَ جاهِلًا

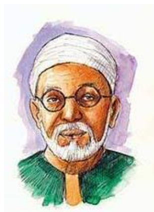
ومِن مآثِر هذه الحياة الراقية أَنْ كان كلامُ الناشئِين في الإسلام من العرب أحلى نَسقًا وأصفى ديباجةً من كلام الجاهلية في أدبهم ومحاوراتهم. والأسباب التي ارتقتْ بها العربية حتى بلغتْ أشُدَّها وأخذتْ زخْرُفَها أمورٌ ثلاثة: [129]

أحدها: ما جاء به القرآن الحكيم من صورة النَّظم البديع، والتَّصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول؛ فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء قاطبة –وإن لم يخرج عما تقتضيه قوانينُ اللغة– واتفق كبراؤهم على إصابته في وضع كلِ كلمة وحرف موضعه اللائقَ به وإنْ تفاضل الناس في الإحساس بلطف بيانه تفاضلهم بسلامة الذوق وجَودة القريحة.

كما أن القرآن الكريم أفضلُ ما يُحتج به في تقرير أصول اللغة، لأنه نزل بلسان عربي مبين، ولا يمتري أحدٌ في أنه بالغ في الفصاحة وحسن البيان الذروةَ التي ليس بعدها مُرتقى، فيُأخذ بالقياسِ على ما وردتْ عليه كِلمُه وآياتُه من أحكام لفظية، ولا فرقَ بين ما وافق الاستعمالَ الجاريَ فيما وصلَ إلينا من شعر العرب ومَنثورهم، وما جاء

---

129 "دراسات في العربية وتاريخها"، ص/ 120، المكتب الإسلامي بدمشق، الطبع الثانية، 1960م.





الشيخ محمد الخضر حسين (1876م – 1958م) عالم تونسي. تنقل بين بلاد المغرب والمشرق وتركيا الى أن حصل على عضوية هيئة كبار العلماء بمصر برسالته "القياس في اللغة العربية" (1950م)، ثم اختير شيخا للأزهر (سبتمبر 1952م) . ثم استقال في 1954م احتجاجاً على إلغاء القضاء الشرعي ودمجه في القضاء المدني. من مؤلفاته: رسائل الإصلاح – بلاغة القرآن – أديان العرب قبل الإسلام – دراسات في العربية وتاريخها– الحرية في الإسلام – الخيال في الشعر العربي – نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم" – "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" لطه حسين. . .

على وجهٍ انفردَ به، ولا تتبعُ سبيلَ مَن يحيدون عن ظاهره ويذهبون به مذهبَ التأويل ليوافق آراءهم النحوية.

قال الفخر الرازي (ت/606هـ) مبيناً جواز استعمال "إذ" مكان "إذا" في قوله تعالى: ﴿. . وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ. . ﴾: "قَالَ قُطرب: كلمة «إذ» و"إذا"، يَجُوز إِقَامَة كُل وَاحِدَة مِنْهُمَا مَقَامَ الْأُخْرَى، وَأَقُول: هَذَا الَّذِي قَالَهُ قُطْرُبٌ كَلَامٌ حَسَنٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا جَوَّزْنَا إِثْبَاتَ اللُّغَةِ بِشِعْرٍ مَجْهُول مَنْقُول عَنْ قَائِل مَجْهُول، فَلَأَنْ يَجُوز إِثْبَاتُهَا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيم كَانَ ذَلِكَ أَوْلَى، أَقْصَى مَا فِي الْبَاب أَنْ يُقَال «إِذَا» حقيقة في المستقبل، ولكن لم لا يجوز اسْتِعْمَالُهُ فِي الْمَاضِي عَلَى سَبِيل الْمَجَاز لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِمَة «إِذْ» مِنَ الْمُشَابَهَةِ الشَّدِيدَة؟ وَكَثِيرًا مَا أَرَى النَّحْوِيِّينَ يَتَحَيَّرُونَ فِي تَقْرِيرِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا اسْتَشْهَدُوا فِي تَقْرِيرِهِ بِبَيْتٍ مَجْهُول فرحُوا بِهِ، وَأَنَا شَدِيدُ التَّعَجُّب مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا جَعَلُوا وُرُودَ ذَلِكَ الْبَيْتِ الْمَجْهُولَ عَلَى وَفْقِهِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّتِهِ، فَلَأَنْ يَجْعَلُوا وُرُودَ الْقُرْآنِ بِهِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّتِهِ كَانَ أَوْلَى. ". [130]

ولم تكن اللغة العربية موحدةً قبل نزول القرآن الكريم، بل كانتْ لهجاتٍ مُتباعدة مُتصارعة لاتساع الجزيرة العربية، وبينها اختلافات في اللفظ والتركيب، كلغات تميم وربيعة وأسد وقيس وهُذيل وطيّء وقُضاعة وغيرها. . . فساعد القرآن على توحيدها وحفظها من الانقراض حينما نزل بلغة نموذجية مُوحّدة هي لغة قريش، التي تغلبتْ من قبل على اللهجاتِ العربية الأخرى لأسباب سياسية ودينية وتجارية؛ حيث كان العربُ يلتقون في الأسواق الأدبية -كسوق عُكاظ قرب مكة- وينصرفون بعد قضاء مآربهم المادية إلى المفاخرة و المنافرة -بالشعر والخطابة- في الحسَب والفصاحة والشجاعة والنَّجدة والكرم. . قال الفراء (ت/207 هـ) : "كانت العربُ تحضرُ الموسِمَ

---

130 انظر: "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، 401/9، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3 1420

في كل عام، وتحجُّ البيتَ في الجاهلية، وقريشٌ يَسمعون لغاتِ العرب فما استْحسنوه من لغاتهم تكلموا، به فصاروا أفصحَ العرب، وخلتْ لغتُهم من مُسْتْبشَع اللغات ومُستَقبَح الألفاظ". فزادها القرآن والحديث تألقاً وتثبيتاً. [131]

والعربُ أمة شاعرة، تَطربُ للقولِ البليغ، وتَعدُّ الشاعرَ والخطيبَ إذا نبغا فيها مِن مَفاخرها، كما رأينا، حتى إن القرآن شهد لهم بذلك فقال ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وقال ﴿. .فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ. .﴾(الأحزاب/19) وقال ﴿. .مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(الزخرف/58).

---

131 وحول اللهجات المذمومة في العربية يقول السيوطي، في "الباب الحادي عشر: معرفة الرديء من اللغات" من كتابه "المزهر": . . . من ذلك:

-"الكَشْكَشة" وهي في ربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فيقولون: رَأَيتُكش وبكَش وعَلَيْكَش. فمنهم من يُثبتها حالةَ الوقف فقط وهو الأشهر، ومنهم من يُثبتها في الوصل أيضا، ومنهم من يَجعلها مكانَ الكاف ويكسرها في الوصل ويُسكنها في الوقف فيقول: مِنْش وَعَلَيْش.

–ومن ذلك: "الكَسْكَسة" وهي في ربيعة ومُضرَ، يجعلون بعد الكافِ أو مكانها في المذكر سينا على ما تقدم وقصدوا بذلك الفَرْقَ بينهما.

– ومن ذلك: "العَنْعَنة" وهي في كثيرٍ من العرب في لغة قيس وتميم" تجعل الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون في أنك عَنك، وفي أسْلم عَسْلم وفي أذنٍ عُذن.

– ومن ذلك: الوكم في لغة ربيعة (من كلب) يقولون: عليكِم وبكِم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة.

– ومن ذلك "العَجْعَجَة" في لغة قضاعة، يجعلون الياء المشدَّدة جيما يقولون في تميمي تميمجّ.

– ومن ذلك: الاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار تجعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء كأنْطي في أعْطي.

ومن ذلك: "الوتْم" في لغة اليمن تجعلُ السّين تاء كالنات في الناس. . . الخ.

(المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، 1/175، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.)

ولكن لمّا نزل القرآنُ الكريمُ سحرَ ببيانه القلوبَ، وسَجَدتْ لبلاغته العقولَ، وانحنتْ لَنظمه الفريد جباهُ الفصحاء، وأعجزَ الجميع على أن يأتوا بمثله حين تحداهم بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الاسراء/88) . ذلك أنه أتى بأنماط من فنّ القول لم يَعهدوه، وضروبٍ من نظم الكلام لم يألفوه، حتى حاروا في وصفه. . فكان مجيء القرآنِ خيرا عظيما للفصحى: زادَها ثراءً ونماءً وتهذيبا، فهجر الشعراءُ والخطباء ألفاظاً جاهلية حُوشِيّة غريبة، ومعاني قبيحة كالغلو في الفخر والهجاء، والفُحش في الغزل، ووصف الخمر والمَيْسر، وذكر أعمال الشرك كالتطير والنياحة عند الموت، وغيرها . واستعاضوا عن ذلك بألفاظ ومعان وصور جديدة استلهموها من القرآن والحديث، لم تكن معروفة من قبل. ونضرب لذلك مثلاً الألفاظ التي تُعرف ب"الإسلامية" –وهي كثيرةٌ جدا– حيث تغيرتْ معانيها اللغوية واكتسبت بفضل الإسلام معاني جديدة، واستعملها الناسُ في مضامين جديدة. يقول ابن فارس في ذلك:[132]

"كَانَتْ العربُ فِي جاهليتها عَلَى إرثٍ من إرثِ آبائهم فِي لُغاتهم وآدابهم ونَسائِكهم وقَرابينهم. فلما جاءَ اللهُ جلّ ثناؤه بالإسلامِ حالت أحوالٌ، ونُسِخت دِيانات، وأُبطِلت أمورٌ، ونقِلت من اللغة ألفاظ مِن مواضعَ إِلى مواضعَ أُخَر بزيادات زيدتْ، وشرائع شُرِعت، وشَرائط شُرِطت، فعفى الآخرُ الأوّل. . . " . ومن أمثلة ذلك عنده:

---

[132] انظر تفصيل هذه المعاني في الكتب التالية:
– "الصاحبي في فقه اللغة" لابن فارس، ص/44، محمد علي بيضون، الطبعة الأولى 1418هـ–1997م.
–"المزهر في علوم اللغة وأنواعها "، لجلال الدين السيوطي، 1/ 235، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية –بيروت، 1418هـ.
– "أثر القرآن الكريم في اللغة العربية"، ص/26 وما بعدها، لأحمد حسن الباقوري، دار المعارف بالقاهرة.

- أن العرب إنما تَعرف المؤمنَ من الأمان والإيمانِ وهو التصديق، ثُمَّ زادت الشريعةُ شرائط وأوصافاً بهَا سُمِيَ المؤمن بالإطلاق مؤمنا .
- وكذلك الإسلام، إنما عَرَفت منه إسلامَ الشيء، ثُمَّ جاء فِي الشَّرع من أوصافه مَا جاء . .
- وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسَّتْر .
- والمنافق اسمٌ جاء بِهِ الإسلام لقوم أَبطنوا غير مَا أَظهروه، وكَانَ الأصل من نافِقاء اليَرْبوعِ (دابة تشبه الفأر تعيش في الصحراء) .
- ولَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاّ قولهم: "فَسَقَتِ الرُّطبة" إذا خرجت من قِشرها، وجاء الشرعِ بأن الفِسق الإفحاش فِي الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه.
- وَقَدْ كانوا عَرفوا الركوعَ والسجودَ، وإن لَمْ يكن عَلَى هَذِهِ الهيئة . . فإن العرب لَمْ تعرفه بمثل مَا أَتت بِهِ الشريعة من الأعداد والمواقيت والتحريم للصلاة، والتحليل منها .
- وكذلك الصيامِ أصله عندهم الإمساكُ . . ثم زادت الشريعة النّية، وحظَرَت الأكلَ والمُباشَرَة وغير ذِلكَ من شرائع الصوم. وكذلك الحَجُّ، لَمْ يكن عندهم فِيهِ غير القصد، ثم زادت الشريعة مَا زادته من شرائط الحجِ وشعائره.
- وكذلك الزّكاة، لَمْ تكن العرب تعرفها إلاَ من ناحية النّماءِ، وزاد الشرع مَا زاده فِيهَا . . . وَعَلَى هَذا سائر مَا تركنا ذِكرَه من العُمْرة والجهاد وسائر أبواب الفِقه.

ثانيها: ما تفجَّر في أقوال الرسول ﷺ من ينابيع الفصاحة، وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والإبانة عن الغرض بدون تكلف. وإنما أغضى علماءُ اللسان النظرَ عن الاستشهاد بالحديث لأن رواته لم يجمعوا عِنايتهم على ضبط ألفاظه كما كانوا يَتثَبَّتون في نقله على المعنى، ولو تحقق أهل العربية من رواية حديث بلفظِه، كالأحاديث المنقولة للاستشهاد على فصاحته ﷺ لاستندوا إليه في وضع أحكامها يقينًا .

ثالثها: ما أفاضه الإسلامُ على عقول العرب بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية، وبما نتج عن تعارف الشعوب والقبائل، والتّئام بعضها ببعض من الأفكار ومُطارحة الآراء، ومعلومٌ أن اتساع العقول وامتلاءها بالمعارف مما يُرَقي مَداركها ويزيد في تهذيب أَلْمعيَّتها، فتقذف بالمعاني المبتكرة وتبُرزها في أساليب مستحدثة، فإن كثرة المعاني ودقتها تبعث على التفنن في العبارة..



# المبحثُ الخامس

## جَمعُ اللغةِ العَربيةِ وجهُودِ العُلماءِ في تَدْوينها

أنزل الله تعالى القرآن بلسان عربي مبين، وتكفّل له بالحفظ والبيان كما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 17-19] وكان طبيعياً أن يفهمه النبي ﷺ جملة وتفصيلاً، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحابه ﷺ القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردةٌ ولا واردةٌ منه، فهذا غير مَيسور لهم بمجرد معرفتهم لغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظرِ والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يُشكل عليهم فهمُه، وذلك لأن القرآن فيه المُجمَل والمُشكِل والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أُخرى يُرجعَ إليها .[133]

روى البخاري عن عَلقَمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام/ 82] شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» .[134]

وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى احتكم الصحابة – في فهم ألفاظ القرآن

---

131 بتصرف من "التفسير والمفسرون" د. محمد حسين الذهبي، 29/1، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

134 "الإتقان" 214/4-257، طبعة دار التراث بالقاهرة. وختم الإمام السيوطي كتابه «الإتقان في علوم القرآن» بروايات متعددة تتضمن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من ألفاظ القرآن الكريم، ورتبها على حسب سور القرآن، وجاءت هذه الروايات في حوالي أربع وأربعين صفحة.

الكريم– إلى لغة العرب. فقد كانوا يخشون القول في كتاب الله بغير علم، فهذا سيدنا أبو بكرٍ رضي الله عنه يُسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾. فيقول: «أيُّ سماء تظلني وأي أرض تقلني، إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم». وسيدنا عمر رضي الله عنه قرأ الآية نفسها على المنبر، فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو الكَلَفَ يا عمر».

وعبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول: كنت لا أدري ما (فاطر السماوات) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا بدأتها. ويقول: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعتُ قول بنتِ ذي يَزَن: تعالَ أُفاتحك، تقول: تعال أُخاصِمْك.

كان الصحابة إذن يجهلون معاني بعض ألفاظ القرآن الكريم، لكنهم كانوا يسألون مَن له علمٌ بذلك. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ جل جلاله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [135]، فَسَكَتَ النَّاسُ، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْ بَنِي هُذَيْلٍ: هِيَ لُغَتُنَا يَا أَمِيرَ

135 من سورة النحل وقبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ (47)﴾. جاء في تفسير الامام الطبري: "يعني: أو يهلكهم بتخوّف، وذلك بنقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال منه: تخوّف مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه، ونحو تخوّفه من التخوّف بمعنى التنقص..."

والتامك: في البيت: المكتنز. والقرد: المتراكم بعضه فوق بعض. والنَّبعة: شجرة يتخذ منها القِسي. والسَّفَن: الحديدة التي تبرد بها القِسي، أي تنقص السيرُ سَنام هذه الناقة كما تأكل هذه الحديدة خشب القسي. ونسب البيت في لسان العرب: (مادة خوف) لابن مقبل. قال الفراء في التفسير بأنه التنقيص. قال: والعرب تقول: تحوفته أي تنقصته من حافاته. ويجوز أن يكون معناه: أو يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي تليها.. ومن معاني (تخوف) تخوّن، وخوّن وخوّن منه: نقصه. يقال: تخونني فلان

الْمُؤْمِنِينَ، التَّخَوُّفُ التَّنَقُّصُ. فَخَرَجَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، مَا فَعَلَ دَيْنُكَ؟ قَالَ: تَخَوَّفْتُهُ، أَيْ تَنَقَّصْتُهُ، فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ: أَتَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ شَاعِرُنَا أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ يَصِفُ نَاقَةً تَنَقَّصَ السَّيْرُ سَنَامَهَا بَعْدَ تَمْكِهِ وَاكْتِنَازِهِ:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عودَ النبعةِ السَّفَنُ

## مَسائِلُ نافِعِ بنِ الأَزْرَق الخَارِجيّ

ومن هذا النوع –الاحتكام إلى لغة العرب في فهم معاني ألفاظ القرآن الكريم– مسائلُ نافِع بن الأزرق الخارجي (ت/56 هـ) [136] التي ألقاها على حَبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت/68 هـ)، فكان يشرح معنى اللفظ، ثم يؤيد شرحه ببيت من شعر العرب، يروي ذلك الامام السيوطيُّ (849 -911 هـ) [137] في "الإتقان"

---

حقي إذا تنقصك. .

134 هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، البكري الوائلي، الحَروري، رأس الأزارقة، واليه نسبتهم. كان امير قومه وفقيههم، من أهل البصرة. صحِبَ في أولِ أمره عبد الله بن عباس ﷺ. وكان هو وأصحاب له مِن أنصار الثورة على عثمان ﷺ، ووالوا علياً ﷺ إلى أن كانت قضيةُ التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فاجتمعوا في "حَروراء" وهي قرية من ضواحي الكوفة، ونادَوا بالخروج على عليّ ﷺ، وعُرفوا لذلك هم ومن تبعَ رأيهم بالخوارج. وكان نافعٌ يَذهب إلى سوق الأهواز، ويعترض الناس بما يحير العقل (كما يقول الذهبي) ... وكان جبارا فتاكاً، قاتله المهلب بن أبي صُفرة ولقي الأهوال في حربه. وقتل يوم (دولاب) على مَقربة من الاهواز.

135 هو عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: إمام حافظ مؤرخ أديب. نشأ في القاهرة يتيما، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويا عن أصحابه جميعا، فألف أكثر كتبه، وهي نحو 600 مصنف، منها في القران وعلومه: (الإتقان في علوم القرآن) و (إتمام الدراية لقراء النقاية)، وله في العربية: (المزهر) و(الأشباه والنظائر) و(الاقتراح) و(بغية الوعاة). . . وله في الحديث:

و"المزهر" فيقول:

«بَيْنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ قَدِ اكْتَنَفَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ لِنَجْدَةَ بْنِ عُوَيْمِر: قُمْ بِنَا إِلَى هَذَا الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. فَقَامَا إِلَيْه فقَالَا: إِنَا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَكَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللهِ فَتُفَسِّرَهَا لَنَا وَتَأْتِيَنَا بِمُصَادَقَةٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، فقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلَانِي عَمَّا بَدَا لَكُمَا، فقَالَ نَافِعٌ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾، قال العِزون: الحِلَق الرِّقَاق، قال: وَهَلْ تَعْرِفُ العَرَبُ ذِلَكَ؟ قال: نَعَمْ أَمَا سَمِعْتَ عُبَيْدَ بْنَ الْأَبْرَصِ:

فجاؤوا يُهرَعُون إليه حَتى ... يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَة﴾ قَال: الْوَسِيلَةُ الحَاجَةُ، قَالَ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذِلَكَ؟ قَال: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ عَنْتَرَةَ وَهُوَ يَقول:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ ... إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخَضَّبِي

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِه: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قَالَ: الشِّرْعَةُ: الدِّينُ، وَالْمِنْهَاجُ: الطَّرِيقُ. قَالَ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذِلَكَ؟ قَال: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ أَبَا سفيان وَهُوَ يَقول:

لَقَدْ نَطَقَ الْمَأْمُونُ بِالصِّدْقِ والهدى ... وبَيَّنَ للإسلام دِيناً ومِنْهاجا

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِه ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ قَالَ: نضجه وَبَلَاغِهِ. قَالَ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذِلَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

إِذَا مَا مَشَتْ وَسْطَ النِّسَاءِ تَأَوَّدَتْ ... كَمَا اهْتَزَّ غُصْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ يَانِعُ

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِه تعالى: ﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ورِيشًا﴾، قَال: الرِّيشُ الْمَالُ،

---

(الألفية في مصطلح الحديث) و(تدريب الراوي) و(الجامع الصغير والكبير) . . . وفي التفسير: (الدر المنثور) و(تفسير الجلالين)، وفي التاريخ: (تاريخ الخلفاء) و(حسن المحاضرة) . . .

قَالَ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ الشَّاعِرَ وهو يَقُولُ:

فرِشْنِي بخيرٍ طالما قَدْ بَرَيْتَنِي　　　وَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي

قَالَ أَخْبِرْنِي: عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، قَالَ: فِي اعْتِدَالٍ وَاسْتِقَامَةٍ، قَالَ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ لَبِيدَ بْنَ رَبِيعَةَ يَقُولُ:

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ　　　قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ[138]

وظل نافع يسأل، وابن عباس يجيب، مؤيِّدًا إجابته ببعض ما ورد من شعر العرب.

«وكانت هذه المحاورة إحدى المقدمات الأولى لنشأة علم التفسير، كما كانت بعضَ المادة التي ساقها علماء اللغة الأُوَل لنشأة المعجم العربي، غير أنها لم تكن مُدَوَّنة، بل كانت رواية يصيبها النقصُ والتعديل من راوٍ لآخر. ومن هذه المحاورة يتضح لنا أن طليعة تدوين اللغة وصناعة المُعجم العربي جاءت مع رسالة الإسلام، وأول من حمل رايتها عبد الله بن عباس رضي الله عنه، فقد كان يؤدي ما تؤديه المعجمات للسائلين، ولا

138 "الإتقان في علوم القران" للسيوطي 2/ 68-105.

وهذه المسائل التي تنسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما توجد منها عدة نسخ مخطوطة، كما توجد منها قطعة في "الكامل" للمبرد 185/2. وفي كتاب: "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية" لأحمد بن حمدان الرازي: 1/ 125. وفي كتاب: "إيضاح الوقف والابتداء" لأبي بكر بن الأنباري:76/1. كما أخرجها الطبراني في المعجم الكبير، والزركشي في برهانه 293/1 عند حديثه عن غريب القرآن، وإن لم يأت بها. وجلال الدين السيوطي في "الإتقان" و"المزهر"...

وقد أخذ منها كثير من المفسرين واللغويين عند تفسيرهم بعض غريب القرآن. وتناولها بعض المعاصرين بالدراسة والتحليل، منهم: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي في معجمه؛ والدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في كتابها "الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق"، والأستاذ محمد الدالي، وابراهيم السامرائي، وأشار إليها مساعد الطيار في تفسيره اللغوي... الخ.

وقد تكلموا في بعض اسانيد هذه المسائل وضعّفوا بعض رجالها.. لكن شهرتها وتداول كبار العلماء لها كما رأينا مَنحتها القبول عبر القرون.

(منقول بتصرف كبير من: "مسائل ابن الازرق لابن عباس"، موقع "الألوكة").

عجب في ذلك فهو القائل: «الشعر ديوان العرب، فإذا خَفِي علينا الحرفُ من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا مَعرفة ذلك منه» . [139]

## رِوايةُ اللغةِ عن الأعراب وأسبابُ ذلك



يرى الأستاذ الرافعي أن رواةَ اللغة لم يُدونوا اللهجاتِ العربيةَ على مناطق العرب قبل تهذيب قريش اللغة، ولكنهم تناقلوا من ذلك أشياءَ كانت لِعهد الإسلام، وأشياءَ أصابوها في أشعار العرب مما صحَّتْ روايتُه قُبيل ذلك؛ أما أغلبُ ما كتبوه فقد سمِعوه من العرب في بواديها، وهو من بقايا اللهجات الأولى التي كانت لعهد الجاهلية. على أنهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كِفاية الحاجة في تصاريف الكلام، أو ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين: كالبصريين والكوفيين؛ أما تدوين اللهجات على أنها أصلٌ من أصول الدلالة التاريخية في اللغة فهذا لم يُنتبه إليه –حسب الرافعي– لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يَرجع إلى علوم القرآنِ والحديث، ولغتهما قرشية؛ وهذه يَقل الاختلافُ فيها لأنها حَضرية مُهذبة، والتحضرُ شيء ثابت، فكأنها في حكم المدونة. [140]

انطلق العلماء إلى البوادي رغبةً في مُشافهة الأعرابِ وتَلَقِّي اللغة عنهم، فجمعوا ثروة هائلة من ألفاظ اللغة. وكان الباعثُ إلى ذلك سلامةَ النص القرآني من أن يتطرق إليه اللَّحنُ الذي فَشا بعد الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام، ودخول الأعاجم فيه، فانتشر على ألسنة العامة والخاصة حتى العرب أنفسهم. يقول أحمد أمين: [141]

---

139 "الإتقان للإمام السيوطي"، 2 / 55، و"المزهر في علوم اللغة" له كذلك، 302/2.

140 "تاريخ آداب العرب"، 76/1.

141 "ضحى الإسلام"، 320/1. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة. ب ت ط

«وكان المُدَوِّنون الأولون للغة في هذا العصر يُدونون المفرداتِ حيثما اتفق، وكما يتيسرُ لهم سماعُها، فقد يَسمعون كلمةً في الفَرس، وأُخرى في الغَيث، وثالثة في الرجُل القصير، وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب. وكانت الخطوة الثانية: أنْ جمعوا الكلماتِ الخاصة بموضوع واحد، وأظهرُ ما كان ذلك في كتب الأصمعي، فله كتاب "الأَنواء"، وكتاب "خَلق الفرس"، وكتاب "الإبل"، وكتاب "الشاء" وهكذا، يجمع ما وردَ من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد ويسميه كتابًا أو رسالة، وقد يكون الكتابُ بِضعَ وَرَقات. ثم كانت الخطوة الثالثة: عَملَ المعاجم...».

ولما كانَ الحفاظُ على لغة القرآن الكريم والسنة النبوية هدفًا وضعَه العلماءُ نَصب أعينِهم، وبذلوا جهودًا مُضنِية في سبيل تحقيقه، رأينا كثيرًا من الكتب التي أُلفتْ تحمل اسم "غريب القرآن"، أو "غريب الحديث". وقد أُلف في غريب القرآن كثير من العلماء منهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عمر الزاهد، وابن دُرَيْد، وابن قتيبة، والسجستاني، والراغب الأصفهاني، وأبو حيان، وغيرهم كثير حتى قال السيوطي: "أفردَهُ بالتصنيف خلائق لا يُحصَون". كما ألف من العلماء في غريب الحديث: أبو عبيدة، والنَّضر بن شُميل، وأبو عمرو الشيباني، وقُطرُب، وأبو زيد الأنصاري، وابن قتيبة، والخطّابي، والهَروي، وغير هؤلاء كثير. [142]

## جهودُ عُلَماءِ اللغة في القرنين الثاني والثالث

يكاد يكون القرن الثاني الهجري بداية النشاط الفعلي لجمع اللغة، والتأليف فيها؛ ذلك أن دخول كثير من الأعاجم في دين الإسلام أحدث ما سمي باللّحْن حيث سرى ذلك إلى الألسن؛ فأصابها الخطأ والفساد؛ فهب اللغويون يجمعون اللغة ويدونونها–كما قلنا سالفا– فارتحلوا إلى البوادي التي لم يختلط أهلها بالأعاجم، وشافهوا الأعراب، ودونوا

142 "المعجم العربي"، د. حسين نصار، 1/42- 54.

عنهم اللغة. وقد حفظت لنا المصادر أسماءَ عددٍ من الأعراب الذين سَمِع عنهم اللغويون، كما عُرف في تلك الفترة كثير من اللغويين الذين عنوا بجمع اللغة وتدوينها، لعل من أبرزهم: عبد الله بن إسحاق الحضرمي، "(ت/117هـ) . وعيسى بن عمر، (ت/149هـ) . وأبو عمرو بن العلاء، (ت/154هـ) . والخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت/170هـ) . وعمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بـ: سيبويه، (ت/180 هـ) . ويونس بن حبيب، "ت/182هـ" . وعلي بن حمزة الكسائي، (ت/189هـ) . والنَّضر بن شميل، (ت/202هـ) . والفرَّاء، (ت/207هـ) . وأبو عبيدة معمر بن المثنى، (ت/210هـ) . وإسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني (ت/206هـ) . وعبد الملك بن قُريب الأصمعي (ت/213هـ) . وأبو زيد القرشي، (ت/215هـ) .

وألف أولئك العلماء عدداً من الكتب، كل واحد منهم له طريقته في التأليف:

فمنهم من كان يجمع الألفاظ تحت باب واحد كالوحوش، أو السيوف، أو النخل. ومنهم من يجمع في كتاب عدة أبواب. ومن تلك المؤلفات ما يتناول إحدى ظواهر اللغة كالهمز، أو الأضداد. ومنها ما يتناول الغريب ككتب غريب القرآن، أو غريب الحديث أو غريب اللغة. ومنها ما كان على شكل نوادر أو أَمَالٍ. . .

ونذكر من تلك التآليف على سبيل المثال: كتاب اللغات، وكتاب الخيل، والنوادر المعروف بكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني. ورسائل: الشاء، والإبل، والخيل، وخلق الإنسان للأصمعي. والنوادر، والهمز، والمطر لأبي زيد القرشي. ومعاني القرآن، والمنقوص، والممدود، والأيام، والليالي والشهور والمذكر والمؤنث، للفراء. وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام. ومعاني القرآن للأخفش. . . ومثل ذلك كثير من الكتب والرسائل اللغوية التي وصلتنا من القرنين الثاني والثالث للهجرة.

## كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (170/100هـ) أحدُ الكبار

العباقرة الذين هم مَفخرة الحضارة العربية الاسلامية، وهو مُبدع مبتكر، والابداع عنده متمثل في عناصر عدة منها: أنه واضِع علم العروض، وَواضع أول مُعجم للعربية، فلم يستطع أحد ممن تقدمه أو ممن عاصره أن يهتدي إلى شيء من ذلك.

"إن صنعة أول معجم في أية لغة من اللغات على نحو وترتيب جديدين لا سابق لهما، لهو من أعمال الصفوة العباقرة الخالدين. ولا أريد أن أعرضَ للرأي القائل إن الخليل قد اهتدى إلى شيء من علمِه اللغوي والنحوي بسبب ما أفاده مما تُرجم من العِلم الاغريقي. ذكرٌ هذا جماعةٌ من المستشرقين ثم خَلَف مِن بعدهم آخرون من المشارقة فأعادوا هذه المَقولة التي تَفتقرُ كل الافتقار إلى الدليل التاريخي.

سمّى الخليل معجمه باسم معجم العين، وهو من باب تسمية الكل بالجزء، أي مجاز مرسل علاقته الجزئية كما يقول علماء البلاغة.

إن الخليلَ أحصى العربية إحصاءً تاماً، وبذلك هيّأ مادةً مُصنَّفة مَعروفة لمن جاء بعده من اللغويين الذين صَنفوا مُعْجَمات. لقد اتبع في كتابه منهجًا عبقريًا في ترتيب الألفاظ تبعًا لمخارج الحروف؛ حيث بدأ بالحروف الحلقية، ثم رتّب حروف الحلق أيضا بحسب عمق المخرج ابتداءً من الهمزة والهاء ثم العين والحاء انتهاء بالغين والخاء.

وكان يُفترض أن يبدأ معجمه بحرف الهمزة لكنّ الخليل رأى أنها قد تتعرض إلى التسهيل والتخفيف، وهي صوت ضعيف مهموس فانتقل إلى المخرج الثاني من حروف الحلق، وبدأ بحرف العين، لأنه صوت قوي مجهور. فأصبح معجم العين مرتبًا ترتيبًا صوتيًا، فضلا عن تجَرّده من أي زيادة في الألفاظ ورُدّت جميعها إلى جذرها اللغوي.

وهذا تأليفه للحروف: ع ح هـ خ غ – ق ك – ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ث ذ – ر ل ن – ف ب م – وي – أ. وقد تبعَه على هذه الطريقة علماءُ كثيرون لعل أشهرهم: أبو علي القالي في معجمه "البارِع في اللغة"، وأبو منصور الأزهري (ت/370 هـ) في "تهذيب اللغة"، وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت/458

هـ). في معجمه "المحكم والمحيط الأعظم". وممن أخذ بهذه الطريقة كذلك ابن دريد (ت/ 321 هـ) في معجمه "جمهرة اللغة" حيث راعى نظام التقليبات الأبجدي، ولم يتبعه أحد على هذه الطريقة.

ومن ناحية أخرى اهتدى الخليلِ إلى طريقة "التقليب" التي استطاع بها أن يعرفَ المُستعمَل من العربية والمُهمَل، فعقدَ الكتابَ على المُستعمل وأهمل ما عداه. حتى إذا تمّ احصاء اللغةِ من الثنائي إلى الثلاثي فالرباعي فالخماسي كان ذلك إيذانا ببدء مرحلة التّدوين العلمي للعربية. ومع ذلك لم يستطع معاصروه أو من خَلَفوه أن يُضيفوا شيئًا لعمله. فكان كل جُهدهم أن يُفيدوا من نظام العين، فيصنفوا مُعجماتٍ اتخذ أصحابها منه أساسا لهما، كما فعل ابن دُرَيد في "الجُمهرة" والأزهري في " التهذيب".

إن عملية إحصاء العربية وحدَها تعد العملية الكُبرى التي هيأتْ لجميع أصحاب المعجمات المطوّلة المادةَ التي عَقدوا عليها أبوابَهم وفصولهم. ونستطيع أن نؤكد أنَ إضافة هؤلاء إلى ما جاء به الخليل لا تتناول المواد الأساسية، بل هي اضافاتٌ ثانوية، كالزيادة في الشواهد مِن شعر وقرآن وحديثٍ أو نسبة أبيات إلى أصحابها لم تُنسب في "العين"...". [143]

## "الكتاب" لعمرو بن عثمان "سيبويه"

أبو بِشر عمرو بنِ عثمان بن قنبرِ الفارسي الأصل الحارثي بالولاء (148 – 180 هـ)، مِن مشايخه: الخَلِيل بنُ أحمدَ الفرَاهِيدي، وعِيسَى بن عُمَر، ويُونُس بِن حَبيب، وأبو الخطّاب (الأخْفش الكبير). ومِن تلامِذتِه: سعيدُ بنُ مَسْعَدة (الأخْفش الأوْسَط)،

---

143 بتصرف من مقدمة كتاب "العين"، 8/1، بتحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

ومحمَّدُ بنُ المُسْتَنِير قُطْرُب. وقيل عن سبب تَعَلُّمِه النَّحوَ انه كان ذاتَ يومٍ يَسْتملي على حمّادِ بنِ سَلَمةَ (المحدث) يوما: قال رسول الله ﷺ «ما أحدٌ من أصحابي إلا وقد أخذتُ عليه، ليس أبا الدَّرداء». فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء"، فقال: لحنت يا سيبويه، فقال سِيبويه: لا جرمِ! لأطلبنّ علما لا تُلَحِّنُني فيه أبدا". فطلبَ النحو ولم يزل يلازم الخليل بن أحمدَ، فبَرَعَ في النحو، وصار الغاية فيه. وكان الخليلُ إذا أقْبَل عليه سِيبَوَيهِ قال: "مرحبًا بزائرٍ لا يُمَّلّ!".

وعِلمُ مؤلفه "الكتاب" مقتبس في كثيرٍ من قضاياه من كتاب الخليل، ويعدّ "الكتاب" دستورَ النحو العربي كما يقال، اتخذه العلماء بعد سيبويه أساساً لمؤلفاتهم شرحاً وتحليلاً، وكل ما أضيف إلى النحو العربي بعد هذا المؤلف لا يقارن بالكتاب. عالج سيبويه في كتابه القضايا النحوية، والصرفية، كما تحدث عن الأصوات: مخارجها، وصفاتها في آخر الكتاب. واشتمل أيضا على مسائل في التقديم والتأخير، ومعاني الحروف، ومحاسن العطف، ونحوها؛ فهو يعد عملاً لغوياً متكاملاً، بل عمدة كثير من البلاغيين من بعده؛ فأصبح ذا منزلة مرموقة.

قال الجاحظ: "لم يَكْتُبِ النَّاسُ في النَّحْوِ كِتَابًا مِثْلَه، وجَمِيعُ كُتُبِ النَّاس عليه عِيَالٌ".

وكان سيبويه لشهرته وفضله عَلَما عند النحويّين، وكان يقالَ بالبصرة: قرأ فلان "الكتاب"؛ فيعلم أنه كتاب سيبويه، ولا يشك أنه كتاب سيبويه.

وقال الجاحظ أيضا: "أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات، ففكّرت في شيء أهديه إليه فلم أجد شيئًا أشرف من كتاب سيبويه...".

وقال ابن جني: "ولما كان النحويونَ بالعرب لاحِقينَ، وعلى سَمتهم آخذين، وبألفاظهم مُتَحلّين، ولمعانيهم وقصودهم آمِّين- جاز لصاحب هذا العلم الذي جمعَ شُعَاعه، وشَرَعَ أوْضاعَه، ورَسم أشكالَه، ووَسَمَ أغفاله، وخَلَجَ أشطانه، وبَعَجَ أحضانه، وزمَّ شواردِه، وأفاء فواردَه – أن يرى فيه نحواً مما رأوا، ويحذوه على أمثلتهم التي حَذوا،

وأن يَعتقد في هذا الموضع نحوًا مما اعتقدوا في أمثاله لا سيما والقياسُ إليه مُصْغٍ وله قابِل وعنه غيرُ مُتثاقِل. فاعرِفْ إذًا ما نحن عليه للعرب مذهبًا، ولمن شرح لغاتِها مُضطرِبًا، وأن سيبويهٍ لاحق بهم وغير بَعيد فيه عنهم.." . [144]

وقال الزمخشري مثنيا على سيبويه وكتابه:

أَلَا صَلّى الإِلَهُ صَلَاةَ صِدْقٍ على عَمْرِو بنِ عُثْمَانَ بنِ قَنْبَرْ
فَإِنَّ كِتَابَه لَم يُغْنِ عَنْهُ بَنو قَلَمٍ وَلَا أَبْنَاءُ مِنْبَرْ

ان علماءَنا السابقين المبرزين في اللغة أمثال ابن جني وسيبويه، في دراستهم أحوال هذا اللسان كانوا مُدركين إدراكا لا يلتبس عليهم، أنهم يبحثون في السليقة اللغوية لهذه الأمة، ومنازعِها في الإبانة واستشفاف القواعد والقوانين التي انطوت عليها هذه السليقة، وكأنّه ضرب من التحليل النفسي للّغة، أو ضرب من مدارسة الفكر والمنطق الكامن وراء هذه اللغة، فالفكر والكلام أمران لا ينفكان في دراسة هذه الطبقة، وكل ظاهرة من ظواهر اللغة مرتبطة عندهم بظاهرة من ظواهر التفكير، وبمنهج من طريقة الإحساس بالأشياء، والإبانة عنها، وقواعد النحو والتصريف والبلاغة والاشتقاق وغير ذلك اشتقاق لضوابط السليقة، ولما انفصلتْ هذه القواعد عما التبست به – وهو طريقة القوم في التفكير ومنزعهم في الإبانة– جَمَدتْ لأنها صارتْ كلاماً فحسب، يعني دراسة ألفاظ، وكانتْ قبلاً كلاما مُرتبطاً بأحوال الفكر والنفس. [145]

---

144 لمزيد من التفصيل عن حياة سيبويه ومنزلة كتابه ينظر على سبيل المثال:
–"إنباه الرواة على أنباء النحاة" علي بن يوسف القفطي، 351/2، المكتبة العصرية، بيروت. ط1 1424
–"وفيات الأعيان" وأنباء أبناء الزمان" ابن خلكان، 463/3، ت: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.
–"الخصائص"، لابن جني، 309/1. تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 4.
– وانظر أيضا "فقه اللغة: مفهومه – موضوعاته – قضاياه"، لمحمد بن إبراهيم الحمد. ص/11-12.
145 "دلالات التراكيب، دراسة بلاغية"، محمد أبو موسى، ص/24. مكتبة وهبة، ط2، 1987م.

# الفصل الثاني

# العَربيّةُ لُغةُ الدِّينِ وشِعَارُ الإِسْلام

## تمهيد

كانت دعوةُ رسولِ الإنسانية محمّد ﷺ على ترتيبِ حكيم بديع لا يمكن أن يتم إصلاحٌ –إنسانياً أو شعبياً– إلا بمراعاته، فكان أولُ دعوته ﷺ لعشيرته، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهم عامة العرب، فكان يَعرض نفسه على قبائلِ العربِ في مواسمِ الحجِّ وما يتصل بها من أُسواقهم، ثم عَمَّم دعوته لقوله تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ فكاتب ملوك الأُمم.. عمَّت دعوته ﷺ العربَ وتهيأ أمرُهم لعموم دخولهم في الإسلام، وكان ذلك أيام هُدنته مع قريش قُبيل فتح مكة... فكان أول الإصلاح متوجها إليهم ومَعنيا بهم حتى يُنتشلوا من وَهدة جَهلهم وضلالهم وسوء حالهم، وتستنيرَ عقولُهم، وتتطهرَ نفوسُهم، وتستقيمَ أعمالُهم، فيَصلحوا لتبليغ دين الله وهُدى رسوله ﷺ للأمم بالقول والعمل، ثم لأجل أن يَشعروا بأن القرآنَ كتابُ هداية لهم كلهم، وأن الرسول ﷺ لهم كلهم، أُنزل عليه القرآنُ على سَبعة أحرف، فعمَّ جميعَ لهجاتهم، وكان النبي ﷺ يخاطبهم بتلك اللهجات ويَنطق بكلمات منها ليس من لهجة قريش، و هذا ما أَشْعَرَهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركزٍ واحدٍ ينتهون كلهم إليه ويَشتركون فيه.

وقد نبّه على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه، نزل بلغتهم ونهض بهم من كَبوتهم، وأخرجَهم من الظلمات إلى النور، وهيأهم لهداية الأمم التي تدين بالإسلام، وتتكلم بلسانه، وهو

لسان العرب، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مِثلها بهَدْي الإسلام، فبيَّن أن مَن تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم يتحَدّر من سُلالة العرب -كما بينا- فكان هذا من عنايته بهم لينهضوا بما رُشّحوا له.. [146]

## مِن أَقوالِ الأَئمَّة في هَذا الشَّأن

قال الإمام الشافِعي (150-204هـ): [147]

«على كل مسلمٍ أن يتعلمَ مِن لسان العرب ما بلغَه جُهدُه، حتى يَشْهَد به أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله، وينطقَ بالذكر فيما افترِض عليه مِن التكبير، وأُمِر به من التسبيح والتشهد وغيرِ ذلك. وما ازدادَ من العلمِ باللسان الذي جعله اللهُ لسانَ مَنْ خَتم به نبوته وأُنزِل به آخر كتبه: كان خيراً له... وإنما بدأتُ بما وَصفتُ، من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يَعلم مِن إيضاح جُمَل عِلم الكتاب أحدٌ جهل سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وُجوهه، وجماعَ معانيه، وتفرُّقَها. ومَن عِلمَه انتفتْ عنه الشُّبَه التي دخلتْ على مَن جهل لسانها».

ولما كان العلم بالقرآن ضرورياً لطالب العلم، قال الشافعي رحمه الله: "والناسُ في العلم طبقات، موقعُهم مِن العلم بقدْر دَرجاتهم في العلم به (القرآن). فحقَّ على طلبة العلم

146 بتصرف من "مجالس التذكير من حديث البشير النذير" للشيخ عبد الحميد بن باديس (ت/ 1359هـ)، الناشر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة الأولى سنة 1403هـ – 1983م.

147 "الرسالة"، ص/49، تحقيق: الأستاذ أحمد شاكر، الناشر: مكتبة الحلبي بمصر، ط1/ 1940م.

والشافعي هو محمد بن إدريس الشافعيّ المطَّلِبيّ القرشيّ. نشأ يتيماً في حجر أمه، يقول: "وُلِدْتُ بِعَسْقَلانَ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيَّ سَنَتَانِ حَمَلَتْنِي أُمِّي إِلَى مَكَّة، وَكَانَتْ نَهْمَتِي فِي شَيْئَيْنِ: فِي الرَّمْيِ وَطَلَبِ العِلْمِ.." والشافعي ثالثُ أئمة الفقه الأربعة عند أهل السنة، ومؤسس علم أصول الفقه، إمام في علمي التفسير والحديث.. كان فصيحا شاعرا، ورحّالة مسافراً. قال عنه تلميذه الامام أحمد: "كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس». وقال «ما أحدٌ أمسكَ في يده محبرة وقلماً إلا وللشافعي في عنقه مِنَة». ومن كتبه "الرسالة" في أصول الفقه، و"الأُم" في الفقه، و"اختلاف الحديث"...

بلوغَ غاية جهدِهم في الاستكثار مِن علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبه، وإخلاصُ النية لله في استدراك علمه نصّا واستنباطا، والرغبةُ إلى الله في العَون عليه، فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه. فإن مَن أدرك علمَ أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفّقه اللهُ للقولِ والعملِ بما عَلِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفتْ عنه الرِّيَبُ، ونوَّرتْ في قلبه الحكمة، واستوْجبَ في الدين مَوضعَ الإمامة". [148]

وكان الامام الشافعي حُجّة في العربية، وفضلا عن حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية، اتجه إلى التفصح في اللغة العربية، فخرج في سبيل ذلك إلى البادية، ولازم قبيلة هُذيل. قال رحمه الله : «ثم إني خرجتُ عن مكة فلزمتُ هذيلاً في البادية، أتعلم كلامَها وآخذُ طبعَها وكانتْ أفصحَ العرب. قال: فبقيتُ فيهم سَبعَ عشْرةَ سنة أرحل برحِيلهم وأنزلُ بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مكة جعلتُ أُنشِد الأشعارَ وأذكرُ الآدابَ والأخبارَ وأيامَ العرب، فمرّ بي رجل من الزُّبيريين مِن بني عمي، فقال لي: يا أبا عبد الله، عَزَّ عليَّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقهٌ، فتكون قد سُدْتَ أهلَ زمانك، فقلت: فمَن بقي ممن يُقصَد ؟ فقال لي: مالكُ بنُ أَنس سيدُ المسلمين يومئذ، قال: فوقعَ ذلك في قلبي، فعمدتُ إلى «الموطأ» فاستُعرْتُه من رجلٍ بمكة فحفظتُه في تِسع ليال ظاهرا». [149]

وقد بلغ من حفظه أشعارَ الهذيليين وأخبارَهم أن الأَصمَعِيّ (ت/213 هـ) –اللغوي المشهور– قال: «صحَّحْتُ أشعارَ هُذيل على فتىً من قريش يُقال له محمدُ بن إدريس». وقال مُصْعب بن عبد الله الزُّبيري: قرأ عليَّ الشافعيُّ رضيَ الله عنه أشعارَ هُذيل حِفظاً ثم قال: «لا تخبِرْ بهذا أهلَ الحديثِ فإنهم لا يحتملونَ هذا !»،

148 المصدر السابق، ص/ 19.

149 إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)"، 2395/6، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت/ إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1993 م.

قال مُصعب: وكان الشافعي رضيَ الله عنه يَسمرُ مع أبي من أَول الليل حتى الصباح ولا يناماں، قال: وكان الشافعي رضيَ الله عنه في ابتداء أمره يَطلبُ الشعرَ، وأيامَ الناس، والأدبَ، ثم أخذ في الفقه بعدُ، قال: وكان سببَ أخذه أنه كان يَسيرِ يوما على دَابة له، وخَلَفه كاتبٌ لأبي، فتمثَّل الشافعيُّ رضيَ الله عنه ببَيت شعر، فقرعَه كاتبُ أبي بِسوَطه ثم قال له: «مِثلُك يَذهبُ بمروءته في مثل هذا، أين أنتَ من الفقه؟»، فهزَّه ذلك، فقصدَ لمجالسة الزَّنجي مُفتي مكة، ثم قدِمَ علينا فلزمَ مالكَ بن أنس رحمه الله ". [150]

وقال الإمام ابن الجَوزي (ت/ 508/ 597هـ):"النحو واللغة من علوم الإسلام، وبهما يُعرف معنى القرآن العزيز، ولَعَمْري إنّ هذا لا يُنكر، ولكنْ معرفةَ ما يلزم مِن النحو لإصلاح اللسان، وما يُحتاج إليه من اللغة في تفسيرِ القرآن والحديثِ أمرٌ قريب، وهو أمرٌ لازمٌ، وما عدا ذلك فضلٍ لا يُحتاج إليه، وإنفاقُ الزمان في تحصيل هذا الفاضل -وليس بمهم مع ترك المهم- غلط، وإيثارُه على ما هو أنفعُ وأعلى رُتبة كالفقه والحديث غبْن، ولو اتسعَ العمْرُ لمعرفة الكلِ كان حَسنا، ولكنّ العُمرَ قصيرٌ فينبغي إيثارُ الأهمّ. . . " [151]

---

150 "مناقب الشافعي" 96/1، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (384 - 458 هـ)، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الأولى 1390 هـ – 1970 م.

151 "تلبيس إبليس" ص/117، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م .

وابن الجوزي هو عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي، أبو الفرج: علاّمة عصره في التّاريخ والحديث وعلم الوعظ. . مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مَشرعة الجوز) مِن محالها. كثير التصانيف، له نحو ثلاث مئة مؤلف، منها سوى "التلبيس": (مناقب عمر بن عبد العزيز) و (المُدهش) و(الأذكياء) و (فُنون الأفنان في عيون علوم القرآن) و (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) و (صيد الخاطر)، و(الضعفاء والمتروكين) (تقويم اللسان) و(التبصرة) . . .

وقالِ الامامِ ابِن تَيمية (661 - 728 هـ): "فإن الله لما أنزلَ كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مُبلغاً عنه للكتابِ والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفتُه من الدين، وصار اعتبارُ التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله وأقربَ إلى إقامة شعائر الدين، وأقربَ إلى مُشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم ". [152]

وقال مرة أخرى: "وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ؛ وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إيجَاب أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَاب أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظَ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالعَرَبِ فِي خِطابِهَا . فَلَوْ ترِكَ النَّاسُ عَلَى لَحْنِهِمْ كَانَ نَقْصًا وَعَيْبًا؛ فَكَيْفَ إذَا جَاءَ قَوْمٌ إلَى الْأَلْسِنَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَالْأَوْزَانِ الْقَوِيمَةِ فَأَفْسَدُوهَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ وَالْأَوْزَانِ الْمُفْسِدَةِ لِلسَانِ النَّاقِلَةِ عَنْ الْعَرَبِيَّةِ الْعَرْبَاءِ إلَى أَنْوَاعِ الْهَذَيَانِ الَّذِي

---

152 "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم"، لابن تيمية، 354/1 – المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، 1419هـ.

وابن تيمية هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الدمشقيّ. ولد في حَرّان وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. مات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجتْ دمشقُ كلها في جنازته. كان كثيِر البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيحَ اللسان، قلمُه ولسانه متقاربان. ناظرَ العلماءَ واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرَّس وهو دون العشرين. أما تصانيفه فكثيرة جدا، منها: (السياسة الشرعية) و (الفتاوى) أربعون جزءا أو تزيد، و (الإيمان) و (منهاج السنة النبوية)، و (الواسطة بين الحق والخلق) و (الصارم المسلول على شاتم الرسول)، و(القواعد النورانية الفقهية) و (مجموعة الرسائل والمسائل) . . . وغيرها .

لَا يَهْذِي بِهِ إِلَّا قَوْمٌ مِنْ الْأَعَاجِمِ الطَّمَاطِمِ الصُّمَّان ". [153]

وقال رحمه الله: [154] "وأما اعتِيادُ الخطابِ بغير اللغة العربية – التي هي شِعارُ الإسلام ولغةُ القرآن – حتى يصيرَ ذلك عادةً للمِصر وأهله، أو لأهل الدار، أو للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم.. ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرضَ الشام ومِصر –ولغةُ أهلهما روميّة– وأرضَ العراق وخراسان –ولغةُ أهلهما فارسية– وأهل المغرب –ولغةُ أهلها بربرية– عَوّدوا أهلَ هذه البلاد العربية، حتى غلبتْ على أهل هذه الأمصار: مُسلِمهم وكافرهم، وهكذا كانت خُراسان...

واعلم أن اعتِيادَ اللغة يؤثّرُ في العقل والخُلق والدين تأثيراً قويا بيّنا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتّابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والدينَ والخُلق. وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية، وهذا ما رُوي أن عُمرَ رضي الله عنه كتبَ إلى أبي موسى الأشْعري رضي الله عنه: "أما بعد: فتفقهوا في السُّنة، وتفقهوا في العربية، وأعْرِبوا القرآن، فإنه عَربي".

وفي حديث آخر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "تعلموا العربيةَ فإنها مِن دينكم، وتعلموا الفرائِضَ فإنها من دينكم". وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية

---

153 "مجموع الفتاوى"، 256/32، تحقيق: عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، 1416هـ.

وَالطَّمَاطِمُ: العُجْمُ. والطُّمْطَمَةُ: العُجْمَةُ. ورَجُلٌ طُمَاطِمٌ: أَعْجَمَ لَا يُفْصِحُ.

وصُمَّان جمع أَصَمّ، وكذلك صُمٌّ.

154 "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم"، 526/1.

وفقه الشريعة، يجمع ما يُحْتَاجُ إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، فِفِقْهُ العربية هو الطريق إلى فِقه أقواله، وفقهُ السُّنة هو فقه أَعماله".

وقال العلامة ابن خلدون (ت/808 هـ) عن علوم اللسان العربي:

"أركانه أربعة وهي اللّغة والنّحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضروريّة على أهل الشّريعة إذ مأخذ الأحكام الشّرعيّة كلّها من الكتاب والسّنّة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصّحابة والتّابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم. فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللّسان لمن أراد علم الشّريعة. وتتفاوت في التّأكيد بتفاوت مراتبها في التّوفية بمقصود الكلام حسبما يتبيّن في الكلام عليها فنّا فنّا. والّذي يتحصّل أنّ الأهمّ المقدّم منها هو النّحو، إذ به تتبيّن أصول المقاصد بالدّلالة، فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حقّ علم اللّغة التّقدّم لولا أنّ أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغيّر، بخلاف الإعراب الدّالّ على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تغيّر بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النّحو أهمّ من اللّغة، إذ في جهله الإخلال بالتّفاهم جملة وليست كذلك اللّغة ". [155]

[155] "المقدمة" 753/1.

# المبحث الأول

# حاجةُ المُفَسّرِ إلى مَعرِفَةِ عُلومِ اللّسَانِ

أشار جار الله الزمخشريّ (ت/538 هـ) في مقدمة "الكشاف" إلى أهمية البراعة في علم البلاغة، وبذل الجُهد في معالجة مَسائلها لمن يُريد تفسيرَ كتاب الله تعالى والوقوفَ على أسراره فقال: [156]

"إنَّ أملأَ العلوم بما يَغمرُ القرائح، وأنهضَها بما يُبهر الألبابَ القوارِح (الناضِجة)، مِن غرائبَ نُكت يلطفُ مَسلكُها، ومُستودعاتِ أسرار يَدِقّ سَلكها عِلمُ التفسير . . . لا يتصدى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يَغوصُ على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برِعَ في علمين مختصين بالقرآن وهما: علمُ المعاني وعلمُ البيان، وتمهّلَ في ارتيادهما آونة، وتعبَ في التنقير عنهما أَزمنة، وبعثَه على تتبُّع مَظانهما هِمّة في مَعرفة لَطائف حُجة الله، وحِرصٌ على اسْتيضاح مُعجزة رسول الله، بعد أن يكونَ آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين: تحقيق وحِفظ، كَثيرَ المطالعات، طويل المراجعات . . . فارسا في علم الإعراب، مقدَّمًا في جملة الكُتّاب، وكان مع ذلك مسترسلَ الطبيعة مُنقادها، مشتعلَ القريحة (الذهن) وَقّادها، يَقظانَ النَّفس، دَرّاكاً لِلّمْحة وإن لَطُف شأنُها، منتبهاً الى الرَّمزة (الإشارة) وإن خَفِي مكانُها، لا كَزّا

---

[154] "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، ص/3، دار الكتاب العربي – بيروت – ط3 /1407 هـ والزمخشري (467 – 538 هـ) هو محمود بن عمر، أبو القاسم: من أئمة العلم بالتفسير واللغة والأدب. ولد في زمخشر وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها. وكان معتزلي المذهب، مجاهراً . . من كتبه: (أساس البلاغة) و(المفصّل) و(المقامات) و(الفائق) في غريب الحديث. و(المستقصى) في الأمثال و (القسطاس) في العروض. و (أطواق الذهب) و (أعجب العجب في شرح لامية العرب) . . .

جاسياً، ولا غليظاً جافياً، مُتصرّفاً ذا دُربة بأساليب النَّظم والنثر، مُرتاضاً غير ريّضٍ (صَعب) بتلقيح بناتِ الفكر، قد علمَ كيف يُرتبُ الكلامَ ويُؤلِف، وكيف يَنظم ويَرصِف. . . ".

## أَكثَرُ تَفاسير المتقدّمين غُفْلٌ عن بَيان بلاغَة القرآن

قال عبد الرحمن بن خلدون: [157]

«واعلمْ أنّ ثمرة هذا الفنّ (البلاغة) إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مُقتضيات الأحوال؛ منطوقةً ومفهومةً، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلامِ فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنّما يُدرِكُ بعضَ الشّيء منه مَن كان له ذوق بمخالطة اللّسانِ العربيّ وحصولِ مَلَكته فيدرِكُ مِن إعجازه على قَدر ذوقه. فلهذا كانت مَدارِكُ العرب الذين سمعوه من مُبلّغه أعلى مقاماً في ذلك لأنّهم فُرسانُ الكلام وجَهابذتُه، والذّوق عندهم موجود بأَوْفَر ما يكونِ وأصحّه. وأحوجُ ما يكون إلى هذا الفنّ المفسّرون، وأكثرُ تفاسير المتقدّمين غُفْلٌ عنه حتّى ظهر جار الله الزّمخشريّ، ووضع كتابه في التّفسير، وتتبّع آيَ القرآن بأحكام هذا الفنّ بما يُبدي البعضَ من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل. . . ».

وذِكرِ أبو حيان الاندلسي (ت/745هـ) في مقدمة تفسيره أن النَّظَرَ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى يَكُونُ مِنْ وُجُوهٍ سبعة، أربعةٌ منها عائدة الى العربية وهي: [158]

---

157 "تاريخ ابن خلدون" 67/1، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطبعة: الثانية، 1408 هـ.

158 "البحر المحيط في التفسير": أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، 17/1، المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ.

الْأَوَّلُ: عِلْمُ اللُّغَةِ اسْمًا وَفِعْلًا وحرفا. الثَّانِي: مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الَّتِي لِلْكَلِمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةِ إِفْرَادِهَا وَمِنْ جِهَةِ تَرْكِيبِهِ. الثَّالِثُ: كَوْنُ اللَّفْظِ أَوِ التَّرْكِيبِ أَحْسَنَ وَأَفْصَحَ؛ وَيُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ. السَّابِعُ: اخْتِلَافُ الْأَلْفَاظِ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، أَوْ تَغْيِيرِ حَرَكَةٍ، أَوْ إِتْيَانٍ بِلَفْظٍ بَدَلَ لَفْظٍ، وَذَلِكَ بِتَوَاتُرٍ وَآحَادٍ؛ وَيُؤْخَذُ هَذَا الْوَجْهُ مِنْ عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ. ثم بعد أن فصّل أبو حيان الحديث في هذه الأوجه ختمها بقوله:

"فَهَذِهِ سَبْعَةُ وُجُوهٍ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلَى تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَ بِجُمْلَةٍ غَالِبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مِنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَرْتَقِي مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ ذِرْوَتَهُ، وَلَا يَمْتَطِي مِنْهُ صَهْوَتَهُ، إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي عِلْمِ اللِّسَانِ، مُتَرَقِّيًا مِنْهُ إِلَى رُتْبَةِ الْإِحْسَانِ، قَدْ جُبِلَ طَبْعُهُ عَلَى إِنْشَاءِ النَّثْرِ وَالنَّظْمِ دُونَ اكْتِسَابٍ، وَإِبْدَاءِ مَا اخْتَرَعَتْهُ فِكْرَتُهُ السَّلِيمَةُ فِي أَبْدَعِ صُورَةٍ وَأَجْمَلِ جِلْبَابٍ، وَاسْتَفْرَغَ فِي ذَلِكَ زَمَانَهُ النَّفِيسَ، وَهَجَرَ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ وَالْأَنِيسَ، ذَلِكَ الَّذِي لَهُ فِي رِيَاضِهِ أَصْفَى مَرْتَعٍ، وَفِي حِيَاضِهِ أَصْفَى مَكْرَعٍ، يَتَنَسَّمُ عَرْفَ أَزَاهِرَ طَالَ مَا حَجَبَتْهَا الْأَكْمَامُ، وَيَرْتَشِفُ كُؤُوسَ رَحِيقٍ لَهُ الْمِسْكُ خِتَامٌ، وَيَسْتَوْضِحُ أَنْوَارَ بُدُورٍ سَتَرَتْهَا كَثَائِفُ الْغَمَامِ، وَيَسْتَفْتِحُ أَبْوَابَ مَوَاهِبِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، يُدْرِكُ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ بِالْوِجْدَانِ لَا بِالتَّقْلِيدِ، وَيَنْفَتِحُ لَهُ مَا اسْتَغْلَقَ إِذْ بِيَدِهِ الْإِقْلِيدُ. وَأَمَّا مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى غَيْرِ هَذَا مِنَ الْعُلُومِ، أَوْ قَصَّرَ فِي إِنْشَاءِ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ، فَإِنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ فَهْمِ غَوَامِضِ الْكِتَابِ، وَعَنْ إِدْرَاكِ لَطَائِفِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ، وَحَظُّهُ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ إِنَّمَا هُوَ نَقْلُ أَسْطَارٍ، وَتَكْرَارُ مَحْفُوظٍ عَلَى مَرِّ الْأَعْصَرِ.

وَلِتَبَايُنِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي إِدْرَاكِ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ، وما به تكون الرّجاحة فِي النِّظَامِ، اخْتَلَفُوا فِيمَا بِهِ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ: فَمَنْ تَوَغَّلَ فِي أَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ وَأَفَانِينِهَا، وَتَوَقَّلَ (تصعّد) فِي مَعَارِفِ الْآدَابِ وَقَوَانِينِهَا، أَدْرَكَ بِالْوِجْدَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَتَى فِي غَايَةٍ مِنَ الْفَصَاحَةِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا، وَنِهَايَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَامَ عَلَيْهَا، فَمُعَارَضَتُهُ عِنْدَهُ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا دَاخِلَةٍ تَحْتَ الْقَدَرِ. وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ هَذَا الْمُدْرَكَ، وَلَا سَلَكَ

هَذَا الْمَسْلَكَ، رَأَى أَنَّهُ مِنْ نَمَطِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ مَقْدُورٌ لِمُنْشِئِ الْخُطَب. فَإِعْجَازُهُ عِنْدَهُ إِنَّمَا هُوَ بِصَرْفِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَمُنَاضَلَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى مُمَاثَلَتِهِ" . (أي المعتزلة القائلون بالصَّرْفة)

## عُلومُ المفسّرِ نصفها عائدٌ إلى اللّغة

جاء في "الإتقان في علوم القرآن" للإمام للسيوطي:

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ هَل يَجُوز لِكُلِّ أَحَدٍ الْخَوْضُ فِيهِ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَجُوز لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَاطَى تَفْسِيرَ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ عَالِمًا أَدِيبًا متسما فِي مَعْرِفَةِ الْأَدِلَّةِ وَالْفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالْأَخْبَارِ وَالْآثَار، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجُوز تَفْسِيرُهُ لِمَنْ كَانَ جَامِعًا لِلْعُلُومِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُفَسِّرُ إِلَيْهَا وَهِيَ خَمْسَةَ عَشَرَ عِلْمًا:

أَحَدُهَا: اللغة. لِأَنَّ بِهَا يُعْرَفُ شَرْحُ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَدْلُولَاتِهَا بِحَسَبِ الْوَضْعِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: "لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِلُغَاتِ الْعَرَبِ" . وَلَا يَكْفِي فِي حَقِّهِ مَعْرِفَةُ الْيَسِيرِ مِنْهَا، فَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُشْتَرَكًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَحَدَ الْمَعْنَيَيْنِ وَالْمُرَادُ الْآخَرُ.

الثَّانِي: النَّحْوُ. [159] لِأَنَّ الْمَعْنَى يَتَغَيَّرُ وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ، فَلَا بُدَّ مِنَ اعْتِبَارِهِ. أَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَتَعَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ يَلْتَمِسُ بِهَا حسنَ الْمَنْطِقِ وَيُقِيمُ بِهَا قِرَاءَتَهُ، فَقَالَ: "حَسَنٌ، فَتَعَلَّمْهَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَقْرَأُ الْآيَةَ فيعيى بِوَجْهِهَا فَيَهْلِكُ فِيهَا" .

الثَّالِثُ: التَّصْرِيفُ. لِأَنَّ بِهِ تُعْرَفُ الْأَبْنِيَةُ وَالصِّيَغُ. قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: "وَمَنْ فَاتَهُ عِلْمُهُ

---

159 للكلمات العربية حالتان: حالةُ إفرادٍ وحالة تركيب. فالبحثُ عنها، وهي مُفردةٌ، لتكون على وزن خاص وهيئة خاصة هو ما يبحث فيه "علم الصرف أو التصريف" . والبحثُ عنها وهي مُركبة، ليكونَ آخرُها على ما يَقتضيه مَنهجُ العرب في كلامهم (من رفع، أو نصب، أو جرّ، أو جزمٍ، أو بقاءٍ على حالةٍ واحدة، من تغيُّر) هو ما يبحث فيه علم النحو (أو علم الإعراب) .

فَاتَهُ الْمُعْظَمُ، لِأَنَّ "وَجَدَ" مَثَلًا كَلِمَةٌ مُبْهَمَةٌ فَإِذَا صَرَّفْنَاهَا اتَّضَحَتْ بِمَصَادِرِهَا".

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِمَامَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، جَمْعُ "أُمّ"، وَأَنَّ النَّاسَ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأُمَّهَاتِهِمْ دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهل بالتَّصْرِيفِ فَإِنَّ "أُمًّا" لَا تُجْمَعُ عَلَى "إِمَام".

الرَّابِعُ: الِاشْتِقَاقُ. لِأَنَّ الِاسْمَ إِذَا كَانَ اشْتِقَاقُهُ مِنْ مَادَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَى بِاخْتِلَافِهِمَا كَالمَسِيحِ هَل هُوَ مِنَ السِّيَاحَةِ أَو الْمَسْحِ!

الْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ: الْمَعَانِي وَالْبَيَانُ وَالْبَدِيعُ. لِأَنَّهُ يَعْرِفُ بِالْأَوَّلِ خَوَاصَّ تَرَاكِيبِ الْكَلَامِ، مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهَا الْمَعْنَى وَبِالثَّانِي خَوَاصَّهَا مِنْ حَيْثُ اخْتِلَافُهَا بِحَسَبِ وُضُوحِ الدَّلَالَةِ وَخَفَائِهَا، وَبِالثَّالِثِ وُجُوهَ تَحْسِينِ الْكَلَامِ وَهَذِهِ الْعُلُومُ الثَّلَاثَةُ هِيَ عُلُومُ الْبَلَاغَةِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الْمُفَسِّرِ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَاعَاةِ مَا يَقْتَضِيهِ الْإِعْجَازِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ.

وقَال أبو يعقوب السَّكَّاكِيُّ (ت/660هـ): "اعْلَمْ أَنَّ شَأْنَ الْإِعْجَازِ عَجِيبٌ يُدْرَكُ وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ كَاسْتِقَامَةِ الْوَزْنِ تُدْرِكُ وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهَا وَكَالْمَلَاحَةِ وَلَا طَرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهِ لِغَيْرِ ذَوِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ إِلَّا التَّمَرُّنُ عَلَى عِلْمَيِ الْمَعَانِي والبيان".

وقال ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ (ت/656هـ): "اعْلَمْ أَنَّ مَعْرِفَةَ الْفَصِيحِ وَالْأَفْصَحِ وَالرَّشِيقِ وَالْأَرْشَقِ مِنَ الْكَلَامِ أَمْرٌ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالذَّوْقِ، وَلَا يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ جَارِيَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا بَيْضَاءُ مُشْرَبَةٌ بِحُمْرَةٍ، دَقِيقَةُ الشَّفَتَيْنِ، نَقِيَّةُ الثَّغْرِ، كَحْلَاءُ الْعَيْنَيْنِ، أَسِيلَةُ الْخَدِّ دَقِيقَةُ الْأَنْفِ مُعْتَدِلَةُ الْقَامَةِ، وَالْأُخْرَى دُونَهَا فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالْمَحَاسِنِ لَكِنَّهَا أَحْلَى فِي الْعُيُونِ وَالْقُلُوبِ مِنْهَا، وَلَا يُدْرَى سَبَبُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يُعْرَفُ بِالذَّوْقِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَلَا يُمْكِنُ تَعْلِيلُهُ، وَهَكَذَا الْكَلَامُ. نَعَمْ يَبْقَى الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ أَنَّ حُسْنَ الْوُجُوهِ وَمَلَاحَتَهَا، وَتَفْضِيلَ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ يُدْرِكُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ عَيْنٌ صَحِيحَةٌ، وَأَمَّا الْكَلَامُ فَلَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالذَّوْقِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ اشْتَغَلَ بِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْفِقْهِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ

الذَّوْقِ وَمِمَّنْ يَصْلُحُ لِانْتِقَادِ الْكَلَامِ، وَإِنَّمَا أَهْلُ الذَّوْقِ هُمُ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِعِلْمِ الْبَيَانِ وَرَاضُوا أَنْفُسَهُمْ بِالرَّسَائِلِ وَالْخطبِ وَالْكِتَابَةِ وَالشّعْرِ، وصارت لهم بذلك دُربة وَمَلَكَة تَامَّة، فَإِلَى أُولَئِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُرْجَعَ فِي مَعْرِفَةِ الْكَلَامِ وَفَضْلِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ".

وَقَالَ غَيْرُهُ: "مَعْرِفَة هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِأَوْضَاعِهَا هِيَ عُمْدَةُ التَّفْسِيرِ الْمُطلع عَلَى عَجَائِبِ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى وَهِيَ قَاعِدَةُ الْفَصَاحَةِ وَوَاسِطَة عِقْدِ الْبَلَاغَةِ». [160]

وإذا كانت العربية وسيلة لفهم الكتاب والسنة، فإن تعلمها واجب على طلاب علوم الشريعة، لأن الوسائل لها نفس أحكام المقاصد، كما قيل: "إن المجتهد لا يلزمُه الاجتهادُ في شيء من علوم الوَسائل إلا علوم اللغة العربية". ولذلك قد يخفى على طالب العلم أو القارئ المتعجل معاني كلمات كثيرة في القرآن الكريم من مثل:

◈ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: مِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِمَامَ هنا جَمْعُ "أُمٍّ"، وَأَنَّ النَّاسَ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأُمَّهَاتِهِمْ دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهل بِالتَّصْرِيفِ فَإِنَّ "أُمًّا" لَا تُجْمَعُ عَلَى "إِمَام". قال الطبري: اختلف أهلُ التأويل في معنى "الإمام" الذي ذكر اللَّهُ جل ثناؤه أنه يَدْعو كلَّ أُناس به؛ فقال بعضهم: هو نبيُّه ومَن كان يَقتدِي به في الدنيا ويأْتَمُّ به. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يَدْعُوهم بكُتُب أعمالِهم التي عَمِلوها في الدنيا.

◈ قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل/ 60] يعدلون في الآية تعني يعدلون عن الحق ويقصدون الباطل، وليس يقومون بالعدل.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ [البقرة/ 20] معنى (قاموا): وقفُوا وثَبَتوا في مكانهم،

---

[160] "الإتقان في علوم القرآن" 213/4، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية، 1394هـ

ومنهُ قامتِ السُّوقُ: إذا ركَدتْ، وقامَ الماءُ: إذا جَمَدَ. وليس معنى ذلك أنهم كانوا جالسين فقاموا مثلا. . .

◈ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل/ 10] كلمة "جان في الآية عند أغلب المفسرين نوع من الحيات الصغيرة شديدة السرعة، وليس معناها الجِن.

◈ فعل "كاد" في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النّور: 35] وفي قوله عَزَّوَجَلَّ في آخر سورة "الطارق": ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فمعنى الأول: المقاربة، أي يدل على وقوع مقاربة الفعل بعدها، وإذا دخل عليه حرف نفي دل على أن الفعل بعدها وقع، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. ومعنى الثاني: مصدر الكيْد أي المكر. والأول فعل ناقص التصرف ويحتاج إلى مرفوع ومنصوب. والثاني تامّ التصرف ويكتفي بالفاعل وينصب المفعول به. .

◈ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف/ 32] سخريا هنا تعني لِيَسْتسخِرَ هذا هذا في خدمتِه إيّاه، وفي عَوْدِ هذا على هذا بما في يدِه من فضل، فجعل تعالى بعضاً لبعض سببًا للمعاش في الدنيا. وليس معنى الكلمة السخرية والاستهزاء كما قد يفهم قليلُ العلم بالعربية.

◈ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان/ 19] "اقصد" هنا تواضعْ في مشيك إذا مَشَيْتَ، ولا تَسْتكبِرْ ولا تستعجل، ولكن اتئدْ، وليس معناها تحديد الاتجاه في السير.

◈ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف/

[57] قال الامام الطبري: اختلف أهل العلم بكلام العرب في فرقِ ما بين ذلك، إذا قُرِئَ بضم الصادِ، وإذا قرئ بكسرها؛ فقال بعض نحويي البصرة، ووافقهم عليه بعضُ الكوفيين: هما لغتان بمعنى واحدٍ، مثل يَشِدُّ ويَشُدُّ، ويَنِمُ ويَنُمُ من النميمة.

وقال آخرُ منهم: مَن كسر الصادَ فمجازها: يَضِجُّون (يصخبون)، ومَن ضمَّها فمَجازُها: يَعْدِلون. وقال بعضهم: مَن كسرها فإنه أرادَ يَضِجُّون، ومَن ضمَّها فإنه أراد الصدودَ عن الحقِ. وليس معنى "يصدون" بالضم يمنعون هنا.

## أمثلةٌ مِن أَخطاءِ المُفسرين سَبَبُه عَدمُ ضَبْط العربية

جاء في "الاعتصام" للإمام الشاطبي (ت/790هـ): [161]

«... كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْكِتَاب وَالسُّنَّةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْكَلَامَ الَّذِي بِهِ أُدِّيَتْ، وَأَنْ لَا يُحْسِّنَ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ الشَّهَادَةِ لَهُ مِنْ أهل علم العربية بأنه ممن يَسْتَحِقُّ النَّظَرَ، وَأَنْ لَا يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ فِي الْمَسَائِلِ الْمُشْكِلَةِ الَّتِي لَمْ يُحِطْ بِهَا عِلْمُهُ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهَا مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهَا، فَإِنْ ثَبَتَ عَلَى هَذِهِ الْوَصَاةِ كَانَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُوَافِقًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام».

ثم أورد الشاطبي أمثلة لما وقع من تحريف معاني الكتاب والسنة بسبب آفة الجهل

---

161 "الاعْتِصَام في أهل البدع والضلالات"، 264/3، ت: الشقير وغيره، دار ابن الجوزي، ط1/ 2008م.
والشاطبي هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، ولد بغرناطة وتوفي بها سنة 790هج. وكان شغوفاً بالعلم طالباً له من أهله، باحثاً عن كنوزه، حيث جمع أصول العلوم الشرعية وعلوم العربية وفنونها...
من مؤلفاته –سوى "الاعتصام"–: كتاب "الإفادات والإنشادات"، فيه طُرف وتحف ومُلَح أدبية وإنشاءات. وكتاب "الموافقات في أصول الشريعة". وكتاب "المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية (ألفية ابن مالك) في عشر مجلدات. وله "عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق"، و"أصول النحو"، ذكرهما معًا في شرح الألفية، ولعلهما اتلفا في حياته..

بلسان العرب، نذكر منها على سبيل التمثيل:

* قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يجوز نكاح تسع من الحرائر مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ لِأَنَّ أَرْبَعًا إِلَى ثَلَاثٍ إِلَى اثْنَتَيْنِ تِسْعٌ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِمَعْنَى فُعَالَ وَمَفْعَلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ فَانْكِحُوا إِنْ شِئْتُمُ اثْنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، أَوْ أَرْبَعًا أَرْبَعًا عَلَى التَّفْصِيلِ لَا عَلَى مَا قَالُوا.

* قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنَ الْخِنْزِيرِ إِنَّمَا هُوَ اللَّحْمُ، وَأَمَّا الشَّحْمُ فَحَلَالٌ لِأَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّحْمَ دُونَ الشَّحْمِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّحْمَ يُطْلَقُ عَلَى الشَّحْمِ أَيْضًا بِخِلَافِ الشَّحْمِ لَمْ يَقُلْ ذلك.

* قَوْلِ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» إِنَّ هَذَا الَّذِي فِي الْحَدِيثِ هُوَ مَذْهَبُ الدَّهْرِيَّةِ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ الْمَعْنَى: لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ إِذَا أَصَابَتْكُمُ الْمَصَائِبُ، وَلَا تَنْسُبُوهَا إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَصَابَكُمْ بِذَلِكَ لَا الدَّهْرُ، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَبَبْتُمُ الدَّهْرَ وَقَعَ السَّبُّ عَلَى الفاعل في الحقيقة لَا عَلَى الدَّهْرِ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ مِنْ عَادَتِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ تَنْسُبَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ فَتَقُولُ: أَصَابَهُ الدَّهْرُ فِي مَالِهِ، وَنَابَتْهُ قَوَارِعُ الدهر ومَصَائِبُهُ، فينسبون كُلَّ شَيْءٍ تَجْرِي بِهِ أَقْدَارُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ إِلَى الدَّهْرِ، فَيَقُولُونَ: لَعَنَ اللَّهُ الدَّهْرَ، وَمَحَقَ اللَّهُ الدَّهْرَ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ وَإِنَّمَا يَسُبُّونَهُ لِأَجْلِ الْفِعَالِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا الْفَاعِلَ وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ.

ثم عَلَّق الشاطبيُّ على ما تقدم: «فَقَدْ ظَهَرَ بِهَذِهِ الْأَمْثِلَةِ كَيْفَ يَقَعُ الْخَطَأُ فِي الْعَرَبِيَّةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسنة نبيه ﷺ وأن ذلك قد يُؤَدِّي إِلَى تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَيْهِمْ بُرَآءُ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَبٌ لَمْ يَحْتَاجُوا فِي فَهْمِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَدَوَاتٍ وَلَا تَعَلُّمٍ، ثُمَّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ بِعَرَبِيِّ اللِّسَانِ تَكَلَّفَ ذَلِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، وَحِينَئِذٍ دَاخَلَ الْقَوْمَ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ وَتَنْزِيلِهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي فِيهَا كسلمان الفارسي رضي الله عنه وَغَيْرِهِ، فَكُلُّ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى

الْعَرَبِيَّةِ . إِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ . فَهُوَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ دَاخِلٌ فِي سَوَادِهِمُ الْأَعْظَمِ، كَائِنٌ عَلَى ما كانوا عليه، فانتظم في سلك الفرقة الناجية" .

التبحُّر في علم اللغة ومَعرفة الأوجه الإعرابية –إذن– ضرورية للمفسر، لأنَّ المعنى يتغيرُ بتغير الإعراب، ويظهر ذلك مثلا في الأمثلة الاتية:

◉ فلو أنَّ قارئًا قرأ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ برفع "كفو" ونصب "أحد" لكان أثبتَ كفوًا لله (ندا ومثيلا له في القدرة والحكم)، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا . فالحركة لها أهمية بالغة في المعنى ولو لم تكن إعرابًا .

◉ ويدلُّ على ذلك أيضا ضرورة كسر "الخاء" في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد/3] ، وكسر الواو في قوله : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحشر/24] فإنَّ فتحها في كلمة "الْمُصَوَّرُ" يؤدّي إلى الكفر لا محالة.

◉ ولو أن أحدَهم قرأَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/28]، فغيّرَ الحركاتِ من ضمة إلى فتحة ومن فتحة إلى ضمة، فقرأ: " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ"، لفسد المعنى وأصبح كفراً، ولو غُيِّرت العبارةُ –مثلاً– "خلقَ اللهُ الناسَ" إلى: "خلقَ اللهَ الناسُ" لكانت كفراً أيضا، وقس على ذلك . . . [162]

◉ ولو غيِّر الحرفُ في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ، فقلنا : "في صلاتهم"، لم ينجُ أحدٌ من الويل، لأنَّ كل الناس يسهون في الصلاة، حتى رسولُنا ﷺ أُثر عنه ذلك في أكثر من مناسبة، قال أنسٌ رضي الله عنه : "الحمدُ لله على أن

162 "على طريق التفسير البياني"، 1/ 10، د . فاضل السامرائي، جامعة الشارقة، سنة 2002م.

لم يقلْ في صلاتهم" .[163]

◉ وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا . . ﴾ [الأعراف/172] قال ابْنِ عَبَّاس وَغيره: لو أنّ بني آدم قَالُوا "نَعَم" لكفروا . ووَجهه أَن نعم تَصْدِيقٌ للمخبر بِنَفْيٍ أَو إِيجَاب. وَلذَلِك قَالَ جمَاعَة من الْفُقَهَاء: لَو قَالَ المدين "أَلَيْسَ لي عَلَيْك ألف" فَقَالَ الدائن: بلَى: لزمته، وَلَو قَالَ نعم لم تلْزمهُ.[164]

## مَعرفة القراءات وأهميتها في توجيه المعاني

ومن تمام آلة المفسر معرفة القراءات، فبها يترجّح بعض الوجوه على بعض. وقد تكون القراءتان أو القراءات مما يدل على كمال البلاغة أو تمامها، لأن "من العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى القراءات القرآنية –مشهورها وشاذها– هي أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية، واللغوية بعامة في مختلف الألسنة واللهجات، بل إن من الممكن القول بأن القراءاتِ الشاذةَ هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساسا للدراسات الحديثة، والتي يَلمح

163 تفسير سورة الماعون في "الكشاف" للزمخشري. قال المحقق: وَرَدَ ذلك (ذكر السهو) في خمسة أحاديث «الأول» قصة ذي اليدين، متفقٌ عليها من حديث أبى هريرة من طُرق عنه، ومُحصّله أنه صلى ركعتين في الظهر أو العصر ثم سلم سهواً . «الثاني» حديث عبد الله بن بجينة. متفق عليه أيضا في قيامه بغير تشهد أولٍ وسجوده للسهو قبل السلام. . .

164 "مُغني اللبيب عن كُتب الأعاريب"، ص/154، لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد، ابن هشام (المتوفى: 761هـ)، المحققان: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر بدمشق، الطبعة السادسة، 1985م.

فيها المرءُ صورةَ تاريخ هذه اللغة الخالدة. . " [165]

يقول الحسين بن أحمد بن خالويه، (ت/ 370هـ) –أحد أئمة اللغة– وهو يبين هذا المسلك، في مقدمة كتابه "الحجة في القراءات السبع": [166]

"فإني تدبّرتُ قراءة الأئمّة السّبعة من أهل الأمصار الخَمسة المعروفين بصحة النقل، وإتقان الحفظ، المأمونين على تأديةٍ الرواية، واللفظ، فرأيت كلّا منهم قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حَرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يُدفع، وقصد من القياس وجها لا يُمنع، فوافقَ باللفظ والحكاية طريقَ النقل والرواية، غير مُؤثر للاختيار على واجب الآثار. وأنا بعون الله ذاكر في كتابي هذا ما احتج به أُهل صناعة النحو لهم في معاني اختلافهم، وتارك ذكرَ اجتماعهم وائتلافهم، معتمدٌ فيه على ذكر القراءة المشهورة، ومُنَكّب عن الروايات الشاذة المنكورة. . . "

وننقل على سبيل المثال ما قاله ابن خالويه في اختلاف اهل اللغة في فاتحة الكتاب:

- قوله تعالى: "مالِكِ يَوْمِ الدِّين". يقرأ بإثبات الألف، وطرحِها. فالحجة لمن أثبتها: أن الملك داخل تحت المالك. والدّليل له: قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ. والحجة لمن طرحها: أن الملك أخص من المالك وأمدح؛ لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكا. (أي جمع تعالى لنفسه بين كمال الامرين: الحكم (مالك) والتّملك (مَلك). وهو نظير قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ. . . ).
- وقوله تعالى: "الصِّراطَ". تُقرأ بالصاد والسّين وإشمام الزّاي. فالحجة لمن قرأ بالسّين: أنه جاء به على أصل الكلمة. والحجة لمن قرأ بالصّاد: أنه أبدلها من السّين لتؤاخي

---

165 بتصرف من: "القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث"، ص/ 7، للدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي بمصر، ب ت ط

166 "الحجة في القراءات السبع"، ت/ عبد العال سالم مكرم، دار الشروق – بيروت، ط/4، 1401 هـ

السّين في الهمس والصّفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق، لأن السين مهموسة والطاء مجهورة. والحجة لمن أشمّ الزّاي: أنها تؤاخي السّين في الصفير وتؤاخي الطّاء في الجهر.

◉ قوله تعالى: "عَلَيْهِمْ". يُقرأ بكسر الهاء وضمها وإسكان الميم وضمها وإلحاق واو بعدها. فالحجة لمن كسر الهاء: أنها لما جاورت الياء كره الخروج من كسر إلى ضم، لأن ذلك مما تستثقله العرب، وتتجافاه في أسمائها. والحجة لمن ضم الهاء: أنه أتى بها على أصل ما كانت عليه قبل دخول حرف الخفض عليها. والحجة لمن ضم الميم وألحقها الواو: أنه جعل الواو علما للجمع كما كانت الألف علما للتثنية. والحجة لمن أسكنها وحذف الواو: أنّ الواو لما وقعت طرفا وقبلها حركة حذفها إذ لم يمكنه قلبها، ونابت الميم عنها، لأنها زائدة. وليس قولك: قاموا كقولك: عليهمو.[167]

ومن أمثلة تنوع قراءات القرآن الكريم وبعض توجيهاتها وبيان الراجح منها أحيانا:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة/125].

قال الإمام أبو جعفر الطبري (224-310 هـ): اختلفت القراء في قراءة ذلك:

◉ فقرأه بعضهم: "واتَّخِذوا" من مقام إبراهيم مصلى" بكسر "الخاء"، على وجه الأمر باتخاذه مصلى. وهي قراءة عامة المِصرين الكوفة والبصرة، وقراءة عامة قراءة أهل مكة وبعض قراءة أهل المدينة. قالوا: فإنما أنزل الله تعالى هذه الآية أمرا منه نبيه ﷺ باتخاذ مقام إبراهيم مصلى. فغير جائز قراءتها –وهي أمر– على وجه الخبر.

وقد زعم بعض نحويي البصرة أن قوله: " وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" معطوف على قوله: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي" و "اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى". فكان الأمر بهذه الآية، وباتخاذ المصلى من مقام إبراهيم –على قول هذا القائل– لليهود من

---

167 المرجع نفسه، 62-63.

بني إسرائيل الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأويل قائل هذا القول: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال، إني جاعلك للناس إماما، وقال: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

قال أبو جعفر: والخبر الذي ذكرناه عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قبل (قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ المقام مصلى! فأنزل الله: "واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى")، يدل على خلاف الذي قاله هؤلاء، وأنه أمرٌ من الله تعالى ذكره بذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين به وجميع الخلق المكلفين.

◉ وقرأه بعض قراء أهل المدينة والشام: (واتخَذوا) بفتح "الخاء" على وجه الخبر. ثم اختلف في الذي عطف عليه بقوله: "واتخذوا" إذ قرئ كذلك، على وجه الخبر، فقال بعض نحويي البصرة: تأويله، إذا قرئ كذلك: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، [وإذ] اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى". وقال بعض نحويي الكوفة: بل ذلك معطوف على قوله: "جعلنا"، فكان معنى الكلام على قوله: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس، واتخذوه مصلى".

قال أبو جعفر: والصواب من القول والقراءة في ذلك عندنا: "واتخِذوا" بكسر"الخاء"، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، للخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه آنفا. [168]

اختلافهم في لفظ "نكدا" من قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأنعام/58]

يقول تعالى ذكرُه: والبلدُ الطيبةُ تربتُه، العذَبةُ مشاربُه، يخرجُ نباته إذا أَنزَل اللهُ به الغيثَ، وأرسَل عليه الحيا بإذنِه، طيبًا ثمرُه في حينِه ووقتِه، والذي خَبُث فردُؤَت

---

[168] بتصرف من "جامع البيان"، 2/30-33، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1، 1420هـ.

تربتُه، ومَلُحَت مشاربُه، لا يَخْرُجُ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ . يقولُ: إلا عَسِرًا في شدَّةٍ، كما قال بعض الشُعراء:

لا تُنْجِزُ الوعدَ إِنْ وَعَدْتَ وإن أَعْطَيتَ أَعْطَيتَ تَافِهًا نَكِدَا

يعني بـ "التَّافِه" القليل، وبـ "النَّكِدِ" العَسِرَ. يقالُ منه: نَكِدَ يَنْكَدُ نَكَدًا ونَكْدًا، فهو نَكَدٌ ونَكِدٌ، والنَّكْدُ المصدرُ. ومن أمثالِهم: "نَكْدًا وجَحْدًا" . و: "نُكْدًا وجُحْدًا"، والجُحْدُ الشدَّةُ والضيقُ. ويقالُ: [قد نُكِد]. إذا شُفِه وسُئِل. وقد نَكَدُوه، يَنْكُدُونه نَكْدًا . كما قال الشاعرُ:

وأَعْطِ ما أَعْطَيْتَه طَيِّبًا لا خيرَ في الْمَنْكُودِ والنَّاكِدِ

قال الطبري: واخْتَلَفت القراء في قراءةِ ذلك؛ فقرأه بعضُ أهلِ المدينة: (إِلَّا نَكَدًا) بفتح الكافِ. وقرأه بعضُ الكوفيّين بسكون الكافِ: (نَكْدًا) . وخالفهما بعدُ سائرُ القرأَةِ في الأمصار، فقرءوه: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ بكسر الكافِ.

وكأن مَن قرَأه: (نَكَدًا) بنصب الكافِ أرادَ المصدرَ، وكأن مَن قرأه بسكون الكافِ أرادَ كسرَها، فسكَّنَها على لغةِ مَن قال: هذه فِخْذ وكِبْدٌ. وكان الذي يجبُ عليه إذا أرادَ ذلك أن يكسِرَ النونَ من "نِكْدٍ" حتى يكونَ قد أصابَ القياسَ.

<u>والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنَا قراءةُ مَن قرأَه ﴿نَكِدًا﴾</u> بفتح النونِ وكسرِ الكافِ؛ لإجماعِ الحجةِ مِن قرأَةِ الأمصار عليه. [169]

وقوله ﷻ ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقْنِي﴾ و﴿يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص/34] ، بضم القاف وسكونها، حيث جمعت القراءتين الوصفية والشرطية والاستئناف. فبرفع الفعل يكون المعنى: " فأرسله (سيدنا هارون) معي (سيدنا موسى) ردءاً (مقويا) مُصَدِّقاً لي"، فتكون جملة "يصدقني" نعتاً . أو يكون المعنى: " فأرسله معي

---

169 "جامع البيان في تأويل القرآن"، 495/12، ت/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1 1420هـ

رداءاً إنه يصَدِّقُني" فتكون الجملة استئنافية. وبالجزم تكون المعنى: "إن تُرسْله يصدقْني. فجمعت القراءتان المعاني جميعاً.

ومن هذا آية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم/22]، قُرِئت (لِلْعَالِمِينَ) بكسر اللام: جمع "عالِم" من العلم، وقرئت بفتحها: جمع "عالَم"، فجمعتْ المَعنيين. [170]



## القراءات سنَدُ الفقهاء في استنباط كثير من الأحكام

وعلم القراءات سند لكثير من استنباطات الفقهاء، وحجة العديد من القضايا الفقهية، حيث إن الاختلاف في الأحكام يكون أحياناً مرده إلى اختلاف القراءات، ونكتفي بمثال واحد هو: قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء/43- المائدة/6] حيث بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءات في "لامستم"، فقد حكى القاضي أبو بكر ابن العربي (ت/ 543هـ) الخلاف في هذه الآية فقال: "فِيهَا خِلَافٌ كَثِيرٌ، وَأَقْوَال مُتَعَدِّدَةٌ لِلْعُلَمَاءِ، وَمُتَعَلِّقَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ، وَهِيَ مِنْ مَسَائِلِ الْخِلَافِ الطَّوِيلَةِ. . ." ثم فصل الحَديث. [171]

وجاء في "تيسير البيان لأحكام القرآن": [172]

واختلف الناسُ في حكم اللَّمْسِ والملامسة بحسب اختلافِهم في معناهما في الآية. ولا شَكَّ أنهُ يُكنى بهما عن الجماع في عُرْفِ الشرع. وأما حقيقة وَضْعِهما، فهي اللَّمْسُ باليدِ، ومنه نهيهُ - صلى الله عليه وسلم - عن بَيْعِ المُلامَسةِ.

---

170 "على طريق التفسير البياني"، 1/ 10.

171 "أحكام القرآن"، 564/1، ت: م. عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424 هـ.

172 محمد بن علي الخطيب اليمني الشافعي المشهور بـ «ابن نور الدين» (المتوفى: 825 هـ) بعناية: عبد المعين الحرش، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1433 هـ.

- فقال قومٌ: المُراد به في الآيةِ الجماعُ، وهو قولُ ابن عباس، والحسَن، ومجاهدٍ، وقَتادةَ، فهو لا يلزمُ من قولهم جوازُ التيَمُّمِ عن الجَنابة؛ كما هو مَذهبُ الجُمهور، ولا يلزمُ من قولهم عدمُ انتقاض الوضوءِ باللَّمْس باليدِ، ولكنه هو الظاهرُ عنهم؛ لكونِ الجنابةِ لم يتقدمْ ذكرُها إلا في حُكمِ المُرور، ويجوز عنهم خلافُه. وبهذا المعنى قال أَبو حنيفة، فلم يوجب الوُضوءَ من مَسّ الرجلِ المرأةَ، إلا أن يكونَ معهُ انتشارٌ؛ لما روى حبيبُ بنُ أبي ثابت، عن عروةَ، عَن عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبيِّ ﷺ أنه قبَّلَ بعضَ نسائِه، ثم خرجَ إلى الصلاة، ولم يتوضَّأْ.

- وقال قومٌ: المرادُ به اللمسُ باليد، وهو قولُ عمرَ وابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو لا يلزم من قولهم انتقاضُ الوضوء باللمسِ، ولا يلزمُ من قولهم منعُ التيمُّم عن الجنابة، وإن كانَ المشهورُ عنهما منعَ التيمم عن الجَنابة، وهو الملزم لهما حمل اللمسِ على لمسِ البشرة.

## مُناظرةٌ في خَلْق القرآن بين الكِناني وبين المِرّيسي



لما قال بِشرٌ بن غِياث المرّيسي (ت/ 218هـ) بخلق القرآن -وكان من رؤوس المعتزلة ومن دُعاة هذه الفتنة- ردَّ عليه عبد العزيز الكِناني المكيّ (ت/240هـ) -وكان فقيهاً مناظراً من تلاميذ الإمام الشافعيّ- بمجلس المأمون، بأنه أُوتي من عُجْمَتِه إذ استدل على بِدعته بمثل قوله تعالى: ﴿إنا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف/3]، وزعم أن معنى جعلناه "خلقناه".

قال عبد العزيز الكناني: [173]

"يا أمير المؤمنين إن القرآن مُنَزّل بِلسانكَ وبلسان قومك، وأنتَ أَفهَمُ أهلِ الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها، وبِشْر رجلٌ من أبناء الأَعاجم، يَتأوّل كتَابَ اللهِ على غير ما عَناه الله عز وجل، ويحرِّفه عن مَواضعه ويُبدّل معانَيه، ويقول ما تُنكره العربُ ولا تتعارفه في كلامها ولغاتها، وأنت أعلم خَلق الله بلغات قومه، وإنما يُكفِّرُ بشرٌ الناسَ ويُبيح دماءهم بتأويل التنزيل. . .

قال عبد العزيز لبشر: أخبرْني بإجماع الخلق –بزعمك– على أن "جعلَ" و"خَلَق" واحدٌ لا فرق بينهما في هذا الحرف وحدَه، أو في سائر القرآن من الجَعل. قال [بشر]: بل في سائر القرآن من ذلك، وفي سائر الكلام والأخبار والأشعار!

جَعَل في العربية تأتي لمعنيين: الخَلق والتّصيير

ثم أورد الكِناني شواهدَ كثيرة جداً من القرآن لفظُ "الجَعل" فيها كلها لا تُفيد الخلقَ ألبتة، وأن من اعتقد ذلك فهو كافر بإقرار بِشْر نفسِه. ثم ذكر شواهدَ أُخرى لفظ جَعل فيها يفيد التّصيير. ومن النوع الاول قوله ﷻ: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل/ 91] وقوله

---

173 "الحَيْدَة والاعتذارُ في الردّ على مَن قال بخَلق القرآن "، ص/59 وما بعدها، عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، تحقيق أستاذنا علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط2، 1423هـ/2002م.

وأصلُ الكتاب مناظرة عبد العزيز الكناني لبشر المريسي بين يديْ الخليفة المأمون، وتضمن الأدلة القوية الصريحة في الرد على القائلين بخلق القرآن من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم. . . ونقل المحقق عن ابن الاثير في "الكامل" أن الذي نشر مَقالة خلق القرآن وحمل لواءها الجهمُ بن صَفوان (توفي سنة 128هـ مقتولا)، وقد أخذ مقالته في نفي صفات الله تعالى عن الجَعد بن درهم، والجعد أخذ التعطيل عن أبان بن سمعان، وأخذ أبان عن طالوت، وأخذ طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم الساحر اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ وكان زنديقا يقول بخلق التوراة.

سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة/224]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل/57] وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ. . ﴾ الخ.

قال عبد العزيز: لما كان "جعل" على معنى "صيَّر" -لا على معنى الخلق- خاطب الله به العباد بالأمر والنهي، فقال: اجعلوا ولا تجعلوا، ولما كانَ جعل كلمة تحتمل معنيين: معنى "خلق" ومعنى "صيَّر" لم يَدعُ الله في ذلك اشتباهاً على خلقه، ولُبساً على عباده، فيُلحِدُ الملحدون في ذلك ويُشبِّهون على خلقه كما فعل بِشرٌ وأصحابُه. . .

فأما الجعل الذي هو على معنى الخلق فإنّ الله عز وجل جعله من القولِ المُفْصل (عكس المُوصَل)، والقول المفصل يستغني به السامع إذا أُخبر به قبل أن توصَل الكلمة بغيرها من الكلام، إذ كانت قائمة بذاتها تدل على معناها، فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فسواء عند العرب قال "جعل" أو قال "خلق"، لأنها قد علمتْ أنه أراد بهذا الجعل الخلقَ، لأنه من القولِ المُفْصل. وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وقال ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، وهذا في القرآن كثير.

وأما "جعل" الذي هو بمعنى التصيير -الذي هو غير "خَلَق"- فإن الله عز وجل أنزله من القول المُوصَل، الذي لا يدري المخاطَب به حتى توصل الكلمة بالكلمة التي بعدها فيعلم ما أراد بها، وإنْ تركها مفصولة -لم يصلها بغيرها من الكلام- لم يعقل السامع لها ما أراد بها . . .

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ فلو قال: إنا جعلناك، ولم يصلها بما بعدها لم يعقل داود عليه السلام، ولا أحدٌ ممن سمع هذا

الخطاب ما أراد الله به. وكذلك حين قال الله عز وجل لأم موسى: ﴿ . . .إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فلو لم يصل جاعلوه بالمرسلين لم تعقل أم موسى ما خاطبها به ولا ما عَنى بقوله، إذ كان خلقُ موسى عليه السلام قد تقدم لرده إليها . وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ . وكذلك قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ . وكذلك قول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ فوصله بآمنا، ولو لم يصله ما عَقل أحدٌ ممن سمع ذلك ما عَنى بدعوته، إذ كان بلد مكة مخلوقاً قبل ذلك، ومثل هذا كثير في القرآن جداً . . .

والذي تتعارفه العرب، وتتعامل به في لغاتها وخطابها، ومعنى كلامها ومخارج ألفاظها، هو الذي جَرتْ به سُنة الله عز وجل في كتابه، إذ كان إنما أُنزل بلسانها وكُتب على تبيانها، فخاطبهم الله عز وجل بما عقلوه وعَرفوه ولم يُنكروه، ولم يكونوا يعرفون سواه وهو القول الموصل والمفصل.

## قصة عَمْرو بن عُبَيد مع أبي عَمرو بن العَلاء

قال الخطيب البغدادي: "جاَء عَمرو بن عُبيد (80-144 هـ) [174] إلى أبي عَمرو بن العلاء (ت/154)، فقال: يا أبا عمرو، يُخلفُ الله وعدَه؟ قال: لا، قال: أفرأيتَ إنْ أَوْعدَه على عَمل عِقاباً، يُخلِف وعده؟ فقال أبو عمرو: مِن العُجْمَة أُتيتَ يا أبا عثمان، إن الوعدَ غيرُ الوعيد؛ إن العرب لا تعُدُّ خُلفاً ولا عاراً أن تَعِد شرا ولا

174 جاء في الجزء العاشر من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (في أحداث سنة 143هج): عمرو بن عبيد بن ثوبان، ويقال ابن كيسان التيمي، مولاهم، أبو عثمان البصري، من أبناء فارس، شيخ القدرية، والمعتزلة. قال الإمام أحمد بن حنبل: ليس بأهل أن وقال علي بن المدنيي ويحيى بن معين: ليس بشيء، وزاد ابن معين وكان رجل سوء، وكان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع.

تفعلَه؛ ترى ذاك كرماً وفضْلاً، إنما الخُلف أن تَعِد خيراً ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام العرب، قال: أما سمعت إلى قول الأول:

ولا يَرْهَبُ ابنُ العمّ ما عِشتُ صَوْلَتي ولا أَخْشَى مِن خَشيةِ المتَهَدّدِ
وإني وإنْ أَوْعَدْتُه أو وَعَدْتُه لَمُخلِفُ إيعادي ومُنجزُ مَوْعِدي

وقولِ المعتزلة في الوعد والوعيد مشهور، ولعله انفرد به عمرو، ولم يقُل بها واصِل بن عطاء مِن قبل.

وجاء ابن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء مرة أخرى، وقرأ: ﴿وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء/ 164] بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول وموسى فاعل؛ حتى يكون المتكلم هو موسى، وليس الله ! لِتُوافق مَذهبه في نفي الصفات أو تأويلها . قال ابنِ العلاء: هَبْني قرأتُ ذلك، فما تصنع بقوله تعالى: ﴿ولَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف/143] وما تصنع بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة/253] . فبُهت المعتزِلي الذي يرى ان الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة، لكن حقيقة ذلك عند المعتزلة أنه خلق كلاما في غيره، إما في شجرة وإما في هواء، وإما في غير ذلك، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلامٌ ولا عِلم، ولا قدرة ولا رحمة، ولا مشيئة ولا حياة، ولا شيء من الصفات. ولو كان تكليمه لموسى إنما هو صوتٌ خلقه في الهواء لكان وحيُ الأنبياء أفضل منه؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة، وموسى عرفه بواسطة؛ ولهذا كان غُلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حَصل لموسى ! وهذا من أعظمِ الكفر باتفاق المسلمين. [175]

وحُكي عن بعض المعتزلة ان معنى "كلم" في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

---

173 بتصرف من "مجموع فتاوى ابن تيمية – الجزء الثاني عشر.

من الكَلْم؛ أي: الجرح، قالوا: ويكون المعنى: "وجَرحَ اللهُ موسى بأظافر المِحَن ومَخالب الفِتَن" ! والذي ألجأهم إلى حمل "كلّم" بالتشديد على "كلَم" المخففة الدالة على الجرح هو فرارهم من إثبات صفة الكلام لله، فوقعوا في التحريف. [176]

قال ابن تيمية:

"وَلِهَذا تجِدُ الْمُعْتَزِلَةَ وَالْمُرْجِئَةَ وَالرَّافِضَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ وَمَعْقُولِهِمْ وَمَا تَأَوَّلُوهُ مِنْ اللغَةِ؛ وَلِهَذا تجِدُهُمْ لا يَعْتَمِدُونَ عَلَى أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى العَقْلِ وَاللُّغَةِ، وَتجِدُهُمْ لا يَعْتَمِدُونَ عَلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورَةِ وَالْحَدِيثِ وَآثَارِ السَّلَفِ وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى كُتُبِ الْأَدَبِ وَكُتُبِ الْكَلَامِ الَّتِي وَضَعَتْهَا رُءُوسُهُمْ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَلَاحِدَةِ أَيْضاً؛ إنَّمَا يَأْخُذُونَ مَا فِي كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ وَكُتُبِ الْأَدَبِ وَاللغَةِ، وَأَمَّا كُتُبُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْآثَارِ فَلَا يَلْتَفِتُونَ إلَيْهَا. هَؤُلَاءِ (الْمَلَاحِدَةُ) يُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْأَنْبِيَاءِ إذْ هِيَ عِنْدَهُمْ لَا تُفِيدُ العِلْمَ، وَأُولَئِكَ (أَهْلُ الْبِدَعِ) يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ وَفَهْمِهِمْ بِلَا آثَارٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا كَلَامَ أَحْمَد وَغَيْرِهِ فِي إنْكَارِ هَذَا وَجَعْلِهِ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْبِدَعِ. وَإِذَا تَدَبَّرْتَ حُجَجَهُمْ وَجَدْتَ دَعَاوَى لَا يَقُومُ عَلَيْهَا دَلِيلٌ". [177]

---

176 "مناهج اللغويين في تقرير العقيدة"، محمد الشيخ عليو، ص/67، دار المنهاج بالرياض، الطبع الأولى سنة 1427هج.

177 "مجموع الفتاوى"، 7/119.

## المُستَشرقون وتَفسيرُ القرآن وتَرجمَةُ مَعانِيه

مُعظم ترجمات المستشرقين فيها أخطاءٌ ومُغالطاتٌ وشُبهات وافتراءاتٌ تدل على حِقد واضحٍ على الإسلام، أو جهل فاضحٍ به، وعدم التزام بالمنهج العلمي في الترجمة، الذي يقتضي اطلاعَ المترجِم الواسعَ على العلوم الشرعية والعربية. [178]

وفيما يلي بعض النماذج:

◉ المستشرق الألماني غوستاف فلوجل ***Gustave Flügel*** **(1802-1870 م)** مؤلف «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» –الذي جعله كالمعجم لألفاظ القرآن الكريم، وطبع لأوّل مرة عام ١٨٤٢م– التبس عليه جذور الكلمات في مواضع كثيرة، ذكر بعضها الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (1882- 1968م) مؤلف «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» في أوّل كتابه.

◉ من ذلك: زَعْمُ "فلوجل" انّ قوله: «وَقَرْن» في قوله سبحانه مخاطباً نساء النبيّ: (وَقَرن في بُيوتكُنَّ) مأخوذ من قَرَن، مع أنّه مأخوذ من «قَرَّ» فأين القَرْن من القرّ والاستقرار؟! كما زعم انّ المرضى في قوله سبحانه: (لَيسَ عَلَى الضعَفاءِ ولَا عَلَى المَرْضَى) مأخوذ من رضي مع أنّه مأخوذ من مرض فأين الرضا من المرض؟! وقس على ذلك غيره.

وفيما يلي جدول ببعض الكلمات التي أخطأ في ردها "فلوجل" إلى موادها، كما

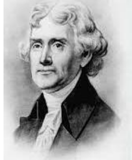
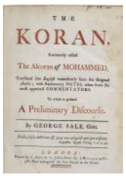
---

178 يُقر كثير من المستشرقين بأن القرآن الكريم أكثر الكتب قُرّاءً. ففي عام 1980م وجدت 296 طبعة لترجمات معاني القرآن الكريم الكاملة إلى اللغة الإنجليزية فقط، ولكن هذا الرقم تضاعف ثلاثة أضعاف خلال عشرين عاما، أي من (296) ترجمة عام 1980م إلى (890) ترجمة عام 2002م. (انظر: "مقدمة في الاتجاهات المعاصرة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية"، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، الصادرة عن: "مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة"، العدد الأول).

أوردها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي في مقدمة معجمه:

| | سورة | آية | | |
|---|---|---|---|---|
| وَأَبَارِيقَ | ٥٦ | ١٨ | وضعها في إبريق | وهي من مادة ب ر ق |
| فَأَثَرْنَ | ١٠٠ | ٤ | » أ ث ر | » » ث و ر |
| أَدُّوا | ٤٤ | ١٨ | » أ د د | » » أ د ى |
| وإِسْتَبْرَقٍ | ١٨ و٥٥ | ٣١ و٤٤ و٥٣ : ٥٤ و٧٦ : ٢١ | » إستبرق | » » ب ر ق |
| مُؤْصَدَةٌ | ٩٠ | ٢٠ و١٠٤ : ٨ | » أ ص د | » » و ص د |
| فَاسْتَبَقُوا | ٣٦ | ٦٦ | » ب ق ى | » » س ب ق |
| الأَتْقَى | ٩٢ | ١٧ | » ت ق ى | » » و ق ى |
| أَتْقَاكُمْ | ٤٩ | ١٣ | » ت ق ى | » » و ق ى |
| كَالْجَوَابِ | ٣٤ | ١٣ | » ج و ب | » » ج ب ى |
| تَحَرَّوْا | ٧٢ | ١٤ | » ح ر ر | » » ح ر ى |
| وَحُلُّوا | ٧٦ | ٢١ | » ح ل ل | » » ح ل ى |
| تَخَلَّوا | ٩ | ٥ | » خ ل ل | » » خ ل و |
| الْمَخَاضُ | ١٩ | ٢٣ | » خ و ض | » » م خ ض |
| وادَّكَرَ | ١٢ | ٤٥ | » د ك ر | » » ذ ك ر |
| فهل من مُدَّكِرٍ | ٥٤ | ١٥ الخ | » د ك ر | » » ذ ك ر |
| مَرْضَى | ٧٣ | ٢٠ | » ر ض ى | » » م ر ض |
| الْمَرْضَى | ٩ | ٩١ | » ر ض ى | » » م ر ض |

قال الدكتور محمد تقي الدين الهلالي (1893–1987م): "وليس المترجمون العربُ وحدَهم هم الذين يقعون في أخطاء الترجمة، بل يقع فيها كبارُ العلماء الأوروبيين. وقد أُحصيتُ الأخطاءُ الموجودة في ترجمة "جورج سيل" *George Sale* [179] للقرآن

179 جورج سيل (1697–1736م) مستشرق إنجليزي ومحام، مهتم باللغات الشرقية. ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية سنة 1734م. وسماه "القرآن المعروف بقرآن محمد" كما توضح صورة الغلاف. أمضى هذا المستشرق ربع قرن في جزيرة العرب تعلم خلالها العربية وبعض العادات، كما صرح به فولتير *Voltaire* في قاموسه المعجمي *(Dictionnaire Philosophique)* في مقالتِه عن القرآن، وعن هاروت وماروت..

الكريم بالإنجليزية، فوجدت في الجزء الأول وحده، وهو – حزبان بتجزئة المغاربة – ستين خطأ ! و(جورج سيل) مستشرق إنكليزي كبير، وقد تبعه مَن بعدَه من المترجمين في أخطائه حتى الأستاذ محمد "مارماديوك بكثال" *Marmaduke Pickthall* المسلم الإنكليزي (1875–1936) تبعه في أول خطأ كبير ارتكبه، وقد ناظرته في ذلك مناظرةً طويلة حتى اقتنعَ ورجعَ عن خطئه، وكان ذلك في ترجمة قوله تعالى في سورة البقرة: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) . فإنهما ترجماها بما معناه (أليسوا سُفهاء ؟) وسبب وقوعهما في هذا الخطأ عدم التمييز بين (ألا) الاستفتاحية البسيطة، و(ألا) المركبة من همزة الاستفهام ولا النافية، فإن (ألا) في قوله تعالى (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) استفتاحية خالية من النفي، يجب أن تترجم بلفظ إنكليزي يدل على التوكيد، ومثال المركبة الذي أوردته على الأستاذ المذكور، فاقتنع بوجود الفرق بين الكلمتين في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ " . [180]

◉ وترجم "سيل" قوله ﷻ "يأيها الناسُ" (البقرة/21) هكذا *"O men of Mecca"* أي: يا أهل مكة، وعلّق في تفسيره بأن الترجمة الحرفية هي *"O men "* (يا ناس، أو أيها الناس بالفصحى)، إلا أن الأمر الذي ليس بخافٍ على أي مُطّلع –على حد زعمه– هو أن محمدا ﷺ لم يقصد إلا إصلاح قومه، ولم يكن في مستوى يطمح فيه إلى مخاطبة بني آدم كلهم، فكل ما جاء في القرآن الكريم خطابا عاما موجها إلى الناس

---

180 "تقويم اللسانين"، ص/12، نشر مكتبة المعارف بالرباط الطبعة الثانية سنة 1984م.

وللعلامة الهلالي جهد مشكور في الرد على مطاعن المستشرقين، ففي سنة 1940م قدّم رسالة الدكتوراه في جامعة برلين، حيث كان طالبا ومحاضرا ومشرفا على الإذاعة العربية، فنّد في رسالته مزاعم المستشرقين أمثال: مارتن هارتمن، وكارل بروكلمان. . وكان موضوع رسالة الدكتوراه «ترجمة مقدمة كتاب الجماهر من الجواهر مع تعليقات عليها»، لمحمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠هـ)، وكان مجلس الامتحان والمناقشة من عشرة علماء، وافقوا بالإجماع على منحه شهادة الدكتوراه في الأدب العربي.

بصيغة العموم معناه "أهل مكة" ! ! .

◉ كما ترجم معنى الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: 28) هكذا " *O Prophet, We have not sent thee otherwise than unto all common men*" أي: "يا أيها الرسول ما أرسلناك إلا إلى العامة من الناس".

◉ وترجم الآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: 143) "*Thus We have placed you O* ***Arabian*** *intermediate nation.*

ولا ندري كيف سوّغ لنفسه التلاعب بترجمة النص القرآني بإقحام كلمة "عربية"؟

– وغالب الترجمات تنكر أن يكون الإسلام دينا سماويا، وتسمّيه "المحمدية" "*Muhammadanism*"، –كما فعلوا مع النصارى إذ سموهم مسيحيين *Christians*– لإيهام الناس بأن الاسلام مِن وَضع محمد ﷺ، كما فعل "ألكسندر روس" (1591–1654) *Alexander Ross* حين نقل عن الفرنسية "قرآن محمد" *The Alcoran of Mahomet* وزعم في تمهيده أن الاسلام دين الأتراك.

– ومن مغالطات المستشرقين: تسميتهم الوحيَ *inspiration* بدلا من *revelation*. المصطلح الأول يعادله لفظ "تفتق ذِهني" في العربية، والآخر يُعبر عن وحي رباني على لسان أحد البشر. فاستخدام مصطلح *inspiration* يوهم بأن القرآن الكريمَ من تأليف محمد ﷺ.

◉ ومنها: استخدام كلمة *apostle* مقابلاً لكلمة النبي أو الرسول محمد ﷺ ولكن من معانيها في الإنجليزية: أحد حواريي عيسى عليه الصلاة والسلام، أو مبشر نصراني، أو مُصْلِح كَنَسي. واستخدم هذا المصطلح عندهم لزعمهم بأن رسولنا الكريم ﷺ استقى الإسلامَ من النصرانية واليهودية، وأنه لم يكن أميا. والحق أن الكلمة المناسبة لمعنى النبيّ هي *The prophet*، وقد رد القرآن الكريم على هذه الفرية قديما عندما اتهم النبي ﷺ بهذا الاتهام فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103].

◉ ومن الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها المستشرقون في ترجماتهم: استخدام كلمة "*Verse*" (مقطع أو بيت شعري) مقابلاً لكلمة "آية" قرآنية. وهو مصطلح استشراقي مُغرض يهدف إلى وصف القرآن الكريم بالشعر، وأن محمداً ﷺ كان شاعراً، وهو ما نفاه عنه الله بقوله ﴿وما عَلمناهُ الشعرَ وما يَنبغي له﴾.

◉ ومن الأخطاء أيضا ترجمة كلمة سورة ب: *Chapter* ، وتعني جزءاً من مؤَلَّف (قصة أو حكاية أو سرد أخبار مُعَنْون من صنع الإنسان). ومعلوم أن كلَّ فصل في الكتاب يعالج عادة موضوعاً من موضوعات الكتاب، ولعلّ هذا ما حدا ببعض المستشرقين للقول بأن السورَ القرآنية تفتقرُ إلى الوحدة الموضوعية، إذ إنّ السورة الواحدة تعالج أكثر من موضوع. وبمراجعة المعاجم الإنجليزية تبينَ لنا أن كلمة *Sura* (بمعنى سورة القران) أصبحت جزءاً من المعجم الإنجليزي منذ القرن السابع عشر، فالواجب استخدام هذا اللفظ في الترجمة.

## بَعضُ المُؤلَّفات في عِلم "غَريب القرآن"

ولأجل الحفاظ على لغة الضاد منِ التحريف وبيان غريب مفردات القران أُلفت معاجم لهذا الغرض، ونسب العلماء كتبا في الغريب إلى جمهرة من القدماء منهم:

- من القرن الثاني: أبو الحسن علي بن حمزة الكِسائي المقرئ (ت/189). - وأبو فَيد مُؤَرِّج بن عَمرو السَدوسي، (ت/195) من أصحاب الخليل، له «غريب القرآن».

- ومن القرن الثالث: أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (138-202) هج. -وأبو الحسن النضر بن شميل (122-203). ابو عبيدة مَعمر بن المثنى (110-209) له كتاب "مجاز القرآن". أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأَصمعي (122-216). أبو الحسن

سَعيد بن مَسْعدة الأخْفَش الأوسط (215) . أبو عُبيد القاسم بن سلام (157-224) . أبو عبد الله محمد بن سلام الجُمَحي (150-231) . عبد الله بن محمد العدوي المعروف بابن اليزيدي (207) تلميذ الفراء . أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (213-276) . أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (200-291) .

- ومن القرن الخامس: الراغب الأصفهاني (502 هـ) صاحب "مفردات القران" وهو مرجع كل من جاء بعده من علماء الغريب. وألّف فخر الدين بن محمد بن عليٍ الطريحي (1085 هـ) «مجمع البحرين ومطلع النيرين» يعمّ غريب القرآن والحديث معا . وهذا لا يعني عدم الحاجة إلى الرجوع إلى معاجم اللغة كالعين للخليل بن احمد الفراهيدي (170هـ) -وهو من أقدمها-. و"تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري (370 هـ) . و"تاج اللغة وصحاح العربية" لإسماعيل بن حماد الجوهري (393هـ) . و"جمهرة اللغة" لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (321هـ) . و"لسان العرب" لابن منظور (707 هـ) . و"القاموس المحيط والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط"" لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي (834 هـ) . وهو أشهر معاجم اللغة العربية على الإطلاق، إذ بلغ من شهرته أن كثيرا من الناس بعده صاروا يستعملون كلمة قاموس مرادفة لكلمة معجم. ولمحمد مرتضى الزبيدي (1045-1205هج) شرح واسع لهذا الكتاب سماه "تاج العروس من جواهر القاموس". ولأحمد فارس الشدياق (1804-1887م) "الجاسُوسُ علَى القامُوس" وهو حافل بالفوَائِدِ اللّغوية، استدرك فيه ما فات الفِيروزابادي في قاموسه، وكشْفِ بعض هفواته، ورَدِ ما وَهِمَ فيه من الألفاظ إلى أصولها . . وأفضل ما يرجع اليه في معرفة المجاز في المعاني اللغوية: «معجم مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس (392 هـ) و «أساس البلاغة» للزمخشري (538 هـ) .

# المبحث الثاني

# أَهَمِّيَّةُ العَرَبِيَّة في فَهْمِ الحَدِيثِ النَّبَوي

معرفةُ العربية شرطٌ في فهم الأحاديث وضبط ألفاظها؛ وقد أورد الإمام ابن الصلاح (577 –643هـ) في كتابه "معرفة أنواع عُلوم الحديث"، المعروف بالمقدمة، –وهي عنده خمسة وستون نوعاً– أورد أقوالاً لأهل العلم تحثُّ طالب الحديث على ضبط علوم العربية، منها:

ما روي عن الْأَصْمَعِيِّ قوله: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ، إِذَا لَمْ يَعْرِفِ النَّحْوَ أَنْ يَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ [مُتَعَمّدا] فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَلْحَنُ، فَمَهْمَا رَوَيْتَ عَنْهُ وَلَحَنْتَ فِيهِ كَذَبْتَ عَلَيْهِ. [181]

قال ابن الصلاح: "فَحَقٌّ عَلَى طَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ مَا يَتَخَلَّصُ بِهِ مِنْ شَيْنِ اللَّحْنِ، وَالتَّحْرِيفِ، وَمَعَرَّتِهِمَا" . وعَنْ شُعْبَةَ قَالَ: "مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ، وَلَمْ يُبْصِرِ الْعَرَبِيَّةَ فَمَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ عَلَيْهِ بُرْنُسٌ لَيسَ لَهُ رَأْسٌ. [182] وَعَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ،

---

[181] معرفة أنواع علوم الحديث، ص/ 218 وما بعدها، المحقق: نور الدين عتر، دار الفكر بيروت، 1406هـ. وابن الصلاح هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوريّ، أحد المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال. ولد في شرخان وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان فبيت المقدس حيث درس في الصلاحية. وانتقل إلى دمشق، لتدريس دار الحديث، وتوفي فيها. من كتبه –سوى المقدمة–"الأمالي" و"الفتاوى" و"أدب المفتي والمستفتي" و"طبقات الشافعية"..

[182] شُعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي البصري، من كبار أتباع التابعين، ثقة حافظ مُتقن، كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث. روى له: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. توفي بالبصرة سنة 160هج.

(ت/167 هـ) [183] قَالَ: "مَثَلُ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَدِيثَ، وَلَا يَعْرِفُ النَّحْوَ مَثَلُ الْحِمَارِ عَلَيْهِ مِخْلَاةٌ لَا شَعِيرَ فِيهَا . . . ".

وروى الخليلي في "الإرشاد" عن العباس بن المغيرة عن أبيه قال: جاء عبد العزيز الدَّرَاوَرْدِيُّ (ت/186 هج) في جماعةٍ إلى أبي ليعرضوا عليه كتابًا، فقرأ لهم الدَّرَاوَرْدِيُّ، وكان رديء اللسان يلحن، فقال أبي: "وَيحَكَ يا دَراوَرديِ أنت كنتَ إلى إصلاح لسانكَ قبل النَّظر في هذا الشأن أحوجَ منك إلى غير ذلك".

ويقول الحافظ المِزّي (ت/742 هـ) في مقدمة تهذيبه: [184]

"ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكونَ قد حصَّل طرفًا صالحًا من علم العربية؛ نحوها ولغتِها وتصريفِها، ومن علم الأُصول والفروع، ومن عِلم الحَديث والتواريخ وأيام الناس، فإنه إذا كان كذلك، كَثُرَ انتفاعُه به، وتمكن من مَعرفة صَحيح الحديث وضعيفه، وذلك خُصوصيةُ المحدّث التي مَن نالها وقام بشَرَائطِها سادَ أهلَ زمانه في هذا العلم، وحُشر يَوم القيامةِ تحتَ اللِّواء المحمديّ إن شاء الله تعالى".

## مَعْرِفَةُ غَرِيبِ الْحَدِيث

قال الإمام الخطابي عن سبب عنايَة المسلمين بالتأليف في غريب الحديث:

"ثم إن الحديثَ لما ذهبَ أعلامُه بانقراض القرون الثلاثة، واستأخرَ به الزمانُ، فتناقلته أيدي العَجَم، وكثُرت الرواةُ وقلَّ منهم الرُّعاةُ، وفشا اللَّحنُ، ومَرَنَت عليه الألسُنُ اللُّكْنُ

[183] مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث. كان حافظا ثقة مأمونا. وهو شيخ البخاري ومسلم، قال الذهبي: كان إماما في العربية، فقيها، فصيحا مفوهاً، شديدا على المبتدعة، له تآليف. وهو أول من صنف التصانيف المرضية..

[184] "تهذيب الكمال في أسماء الرجال"، 156/1، ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبي الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1400هـ.

(غير الفصيحة)، رأى أولو البَصائرِ والعقول، والذابُّونَ عن حَرِيمِ الرَّسولِ أنَّ مِن الوَثِيقَة في أمرِ الدينِ والنصيحةِ لجماعةِ المسلمينَ: أن يُعْنوا بجمع الغرِيبِ من ألفاظه، وكَشْف المغْدَف (المرْخى) من قِناعه، وتفسيرِ المشْكِلِ من مَعانيه، وتقويمِ الأَوَدِ مِن زَيْغ ناقِلِيه، وأن يُدوِّنوه في كتب تبقى على الأبد، لتكونَ لمن بَعدَهم قدوةً وإماماً، ومن الضلال عِصْمة وَأَمانا". [185]

وجعل ابن الصلاح النَّوْعَ الثَّانِي وَالثَّلَاثِين من مقدمته لمَعْرفَة غَرِيبِ الْحَدِيثِ، وعرَّفه بأنه: "عِبَارَةٌ عَمَّا وَقَعَ فِي مُتُونِ الْأَحَادِيثِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْغَامِضَةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ الْفَهْمِ، لِقِلَّةِ اسْتِعْمَالِهَا . ثم قال: "وهَذَا فَنٌّ مُهِمٌّ، يَقْبُحُ جَهْلُهُ بِأَهْلِ الْحَدِيثِ خَاصَّةً، ثُمَّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ عَامَّةً، وَالْخَوْضُ فِيهِ لَيْسَ بِالْهَيِّنِ، وَالْخَائِضُ فِيهِ حَقِيقٌ بِالتَّحَرِّي جَدِيرٌ بِالتَّوَقِّي".

وسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ حَرْفٍ مِنْ غَرِيبِ الحَدِيثِ، فَقَال: " سَلُوا أَصْحَابَ الغَرِيبِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالظَّنِّ فَأُخْطِئَ ".

وقِيلَ للأَصْمَعِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا مَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ "الْجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِه"؟ فَقَالَ: أَنَا لَا أُفَسِّرُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ تَزْعُمُ أَنَّ السَّقَبَ اللَّزِيقُ [186]

## بَعضُ المُؤلَفات في غَريبِ الحديث

قال ابن الصلاح: ثُمَّ إِنَّ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ صَنَّفُوا فِي ذَلِكَ فَأَحْسَنُوا، وَرُوِّينَا عَنِ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحَافِظِ قَالَ: " أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الغَرِيبَ فِي الْإِسْلَامِ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ"، وَمِنْهُمْ مَنْ خَالَفَهُ فَقَالَ: "أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى"،

---

185 "غريب الحديث"، 47/1، أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، ت/ عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر بدمشق، سنة 1402 هـ.

186 "شرح السنة": والسقب، بالسين والصاد: القرب، يريد بما يليه، ويقرب منه، يقال: سقبت الدار وأسقبت: أي قربت، وليس في الحديث ذكر الشفعة، فيحتمل أن يكون المراد منه الشفعة، ويحتمل أنه أحق بالبر والمعونة، والأول أقوى.

وَكِتَابَاهُمَا صَغِيرَانِ. وَصَنَّفَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ، فَجَمَعَ وَأَجَادَ وَاسْتَقْصَى، فَوَقَعَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِمَوْقِعٍ جَلِيلٍ، وَصَارَ قُدْوَةً فِي هَذَا الشَّأْنِ. ثُمَّ تَتَبَّعَ الْقُتَيْبِيُّ مَا فَاتَ أَبَا عُبَيْدٍ، فَوَضَعَ فِيهِ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ. ثُمَّ تَتَبَّعَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ مَا فَاتَهُمَا، فَوَضَعَ فِي ذَلِكَ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ. فَهَذِهِ الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ أُمَّهَاتُ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي ذَلِكَ، وَوَرَاءَهَا مَجَامِعُ تَشْتَمِلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى زَوَائِدَ وَفَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَلَّدَ مِنْهَا إِلَّا مَا كَانَ مُصَنِّفُوهَا أَئِمَّةً جلة.

وَأَقْوَى مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ غَرِيبِ الْحَدِيثِ: أَنْ يُظْفَرَ بِهِ مُفَسَّرًا فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ، نَحْوُ مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ ابْنِ صَيَّادٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لَهُ: "قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا، فَمَا هُوَ؟ قَالَ: الدَّخُّ". فَهَذَا خَفِيَ مَعْنَاهُ وَأَعْضَلَ، وَفَسَّرَهُ قَوْمٌ بِمَا لَا يَصِحُّ. وَفِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحَدِيثِ لِلْحَاكِمِ أَنَّهُ الدَّخُّ، بِمَعْنَى الزَّخِّ الذِي هُوَ الْجِمَاعُ، وَهَذَا تَخْلِيطٌ فَاحِشٌ يَغِيظُ الْعَالِمَ وَالْمُؤْمِنَ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لَهُ: قَدْ أَضْمَرْتُ لَكَ ضَمِيرًا، فَمَا هُوَ؟ فقال: الدُّخُ، بِضَمِّ الدَّالِ، يَعْنِي الدُّخَانَ، وَالدُّخُّ هُوَ الدُّخَانُ فِي لُغَةٍ...[187]

---

187 انظر بقية الحديث في المقدمة ص/374، وانظر قصة ابن صيّاد المتنبئ الذي كان يسكن نخلاً بالمدينة، في البخاري، بَابُ: "كَيْفَ يُعْرَضُ الإِسْلاَمُ عَلَى الصَّبِيِّ"، وفي مسلم "بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ"، وغيرها من كتب الحديث.

والدخ: لغة في الدخان، وحكى صاحب النهاية فيه فتح الدال وضمها، والمشهور في كتب اللغة والحديث ضمها فقط. والجمهور على أن المراد بالدخ هنا الدخان، وأنها لغة فيه، وخالفهم الخطابي فقال: لا معنى للدخان هنا لأنه ليس مما يخبأ في كف أو كم، بل الدخ بيت موجود بين النخيل والبساتين. قال إلا أن يكون معنى خَبأتُ: "أضمَرتُ لك" اسم الدخان فيجوز. والصحيح المشهور أنه ﷺ أضمر له آية الدخان، وهي قوله تعالى ﴿فارتقبْ يوم تأتي السماءُ بدُخان مبين﴾. قال القاضي وأصح الأقوال أنه لم يهتد من الآية التي أضمرها النبي ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص، على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدْر ما يَخطف قبل أن يُدركه الشهابُ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: (اخْسأْ فلن تَعْدُوَ

# المَبحثُ الثالث

## حاجَةُ الفَقيهِ والأُصُولِيّ إلى عُلوم اللّسان

مَعرفة العَربية وعلومها مِن أهم الأدوات التي استند إليها العلماءُ في تأسيس العلوم الشرعية وتطويرها، ومن أجلّها علمُ أصول الفِقه. والمباحث اللغوية على اختلافها تحتلّ مكاناً مَلحوظًا في هذا العَلم قد يزيد على الثلث، والعلم بالعربية وفروعها يَعده الأصوليون شرطًا من شروط الاجتهاد لتوقف معرفة دلالات الألفاظ من الكتاب والسنة عليه.

قال الامام الشافعي: "لا أُسأَلُ عن مسألةٍ من مَسائل الفِقه، إلا أَجبتُ عنها من قواعدِ النحو". وقال الامام الكسائي: "من تبحَّرِ في علمِ النَّحو، اهتدى إلى سائر العلوم"، فقال له محمد بن الحسن الشيباني ما تقول فيمن سها في سُجودِ السَّهْو، هِل يَسجدُ مَرة أخرى؟ قال: لا، قال: لِمَ ذا ؟ قال: لأَنّ النحاةَ يقولون: المُصغر لا يُصغَر". [188]

وهذا العلامةُ "أحمدُ بن فارس" (ت/395هـ) أَفردَ باباً في كتابه "الصاحبي" عنوانه: "بابُ القول في حاجة أهل الفِقه والفُتيا إلى معرفة اللغة العربية"، جاء فيه:

«إن العلم بِلغة العَرب واجبٌ على كل مُتعلق من العلم بالقرآن والسنة والفُتيا بسبب، حتى لا غناء بأحدٍ منهم عنه. وذلك أن القُرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عَربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله ﷺ ،

---

قَدْرُك) أي القدر الذي يُدرك الكهانُ من الاهتداء إلى بعض الشيء وما لا يتبين منه حقيقته ولا يصل به إلى بيان وتحقيق أمور الغيب. (بتصرف من شرح محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله)

188 "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، 407/2، عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط1، 1986 م.

مِن كل كلمة غريبة أو نَظم عجيب لم يجدْ من العلم باللغة بُدّاً . ولسنا نقول: إن الذي يَلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العَرب؛ لأن ذلك غيرُ مقدور عليه، ولا يكون إلا لنبيّ، كما قلناه أولاً، بل الواجبُ علمُ أصول اللغة والسنَن التي بأكثرها نزل القرآنُ وجاءت السنة. فأمّا أن يُكلف القارئُ أو الفقيه أو المحدّث معَرفة أوصافِ الإبل وأسماء السّباع ونُعوتَ الأسلحة، وما قالته العرب في الفَلوات والفيافي، وما جاء عنهم من شواذّ الأبنية وغرائب التصريف فلا.

إنّ علم اللغة كالواجب عَلَى أهل العلم، لئلاّ يحيدوا فِي تأليفهم أَوْ فُتياهم عن سَنَن الاستواء . وكذلك الحاجة إلى علم العربية، فإن الإعراب هو الفارق بَيْنَ المعاني. ألا ترى أن القائل إذَا قال: "مَا أَحسن زيد" لَمْ يفرّق بَيْنَ التعجب والاستفهام والذمّ إلاّ بالأعراب.[189] وكذلك إذَا قال: "ضربَ أَخوكَ أَخانا" و "وَجْهُكَ وجهُ حُر" و "وجهُكَ وَجْهٌ حُرٌ"، ونحوه من الكلام المشْتَبه. هَذَا وَقَدْ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعْرِبوا القرآن».[190] وَقَدْ كانَ الناس قديماً يجتنبونِ اللحنَ فيما يكتبونه أَوْ يقرؤونه اجتنابَهم بعضَ الذنوب. فأما الآن فقد تجوزوا حَتَى أن المحدّثَ يحدّثُ

---

189 -"ما أَحسنَ زيداً !"، إن أردتَ التعجب، بفتح نون "أَحسن" على أنه فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره "هو" يعود على "ما"، ونصب "زيد" على المفعولية، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ "ما".

-"ما أَحسنُ زيدٍ ؟"، في الاستفهام، على أنه خبر للمبتدأ "ما"، وجرِّ زيد بالإضافة، والمعنى: أيُّ أجزاء زيدٍ حسنٌ؟

-"ما أَحسنَ زيدٌ"، في النفي، على أنه فعلٌ ماضٍ، ورفع "زيد" على الفاعلية، والمعنى: لم يقع من زيد إحسان.

190 روي الحديث مرفوعًا أو موقوفًا، وروي في المستدرك بلفظ: «أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ». قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى مَذْهَبِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَئِمَّتِنَا وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وعند الذهبي: انه أجمع اهل العلم على ضعفه.

فَيَلْحَن، والفقيهُ يؤلّف فيلحن. فإذا نُبها قالا: مَا ندري مَا الإعراب، وإنما نحن محدّثون وفقهاء ! فهما يُسرّان بما يُساء بِهِ اللبيبُ. "[191]

وقال الإمام الجويني (ت/ 478 هـ): [192]

«اعلمْ أن مُعظمَ الكلام في الأصولِ يتعلق بالألفاظ والمعاني، أما المعاني فستأتي في كتاب القياس –إن شاء الله تعالى– وأما الألفاظُ فلا بد من الاعتناء بها؛ فإن الشريعة عربيةٌ، ولن يستكمل المرءُ خِلال الاستقلال بالنظر في الشرع ما لم يكن ريَّانَ من النحو واللغة، ولكن لما كان هذا النوع فناً مجموعاً يُنتحى ويُقصد لم يُكثِر منه الأصوليون مع مَسيس الحاجة إليه، وأحالوا مَظانَّ الحاجة على ذلك الفن، واعتنوا في فنهم بما أغفله أئمة العربية، واشتد اعتناؤهم بذِكر ما اجتمع فيه إغفال أئمة اللسان وظهور مَقصَد الشرع، وهذا كالكلام على الأوامر والنواهي، والعموم والخصوص، وقضايا الاستثناء، وما يتصل بهذه الأبواب، ولا يذكرون ما ينصه أهل اللسان إلا على قدْر الحاجة الماسة التي لا عُدول عنها».

ويقول الإمام الغزالي (ت/ ٥٠٥ هـ) وهو يتحدث عن أَركَان الاجتهاد وَأَحْكَامِه: [193]

«أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ فَعِلْمُ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ، أَعْنِي الْقَدْرَ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ خِطَابُ الْعَرَبِ وَعَادَتُهُمْ فِي الِاسْتِعْمَالِ إلَى حَدٍّ يُمَيِّزُ بَيْنَ صَرِيحِ الْكَلَامِ وَظَاهِرِهِ وَمُجْمَلِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ وَعَامِّهِ وَخَاصِّهِ وَمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ وَمُطْلَقِهِ وَمُقَيَّدِهِ وَنَصِّهِ وَفَحْوَاهُ وَلَحْنِهِ وَمَفْهُومِهِ». ويَقول: "عِلَم اللغة سُلَّمٌ ومرقاة إلى جميع العلوم، ومَن لم يَعلَمْ اللغة فلا سبيل

---

191 "الصاحبي في فقه اللغة "، ص/ 32، ت أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ط1/ 1997م.

192 "البرهان في أصول الفقه" 43/1، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى 1997 م.

193 "المستصفى" 344/1، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ

له إلى تحصيلِ العلوم، فإنّ مَن أرادَ أن يَصْعد سَطحًا عليه تمهيدُ المِرقاة أولًا ثم يَصْعد.
وعِلمُ اللغةِ وَسيلة عظيمة ومرقاةٌ كبيرةٌ، فلا يَستغني طالبُ عِلم عن أحكامِ اللغة، فهو أصل الأُصول».

وأبو البركات عبد الرحمن ابن الأنباري (ت/٥٧٧ هـ) –وهو من أئمة اللغة– يحكي إجماع العلماء على اشتراط علم النحو في رتبة الاجتهاد، فيقول: [194]

«.. وذلك أن أئمة الأمة من السَّلَف والخَلف أَجمعوا قاطِبةً على أنه شرطٌ في رتبة الاجتهاد، وأن المجتهدَ لو جمعَ جميعَ العلوم لم يبلغْ رُتبةَ الاجتهادِ حتى يعلمَ مِن قواعد النحو ما يَعرف به المعانيَ المتعلقة معرفتها به منه، ولو لم يكنْ ذلك علمًا مُعتبرًا في الشَّرعِ لما كانت رُتبةُ الاجتهاد مُتوقّفةً عليه لا تتمُّ إلا به، ثم لم تزل الأمةُ قاطبةً مُنذ زمن الصَّدر الأولِ من الصِحابة والتّابعين والسلف الصالح ومَن بعدَهم –مع تكرُّر الأعْصار– يَدعون إليه ويحثّون عليه...».

وعن المجتهد وشروطه يقول الإمام الشوكاني (ت/1250 هـ): [195]

«الْمُجْتَهِدُ هُوَ الْفَقِيهُ الْمُسْتَفْرِغُ لِوُسْعِهِ لِتَحْصِيلِ ظَنٍّ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ، وَلَا بُدَّ أَنْ يكون بالغًا عاقِلًا، قد ثبتَ لَهُ مَلَكَةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ مِنْ مَآخِذِهَا، وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ بِشُرُوطٍ:
الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنْ قَصَّرَ فِي أَحَدِهِمَا لَمْ يَكُنْ مُجْتَهِدًا...

---

194 "لُمَع الأدلة"، ص/ 95، (الفصل الحادي عشر: في الرد على مَن أنكرَ القياسَ في النحو) مع كتاب: "الإغراب في جَدل الإعراب" لابن الأنباري نفسه، تحقيق: الأستاذ سعيد الأفغاني، دار الفكر ببيروت، الطبعة الثانية 1971م.

195 "إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول"، محمد بن علي الشوكاني، 209/2، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِمَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ، حَتَّى لَا يُفْتِيَ بِخِلَافِ مَا وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ...

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِلِسَانِ الْعَرَبِ، بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ تَفْسِيرُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْغَرِيبِ وَنَحْوِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لَهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، بَلِ الْمُعْتَبَرُ أن يكون متمكنا من استخراجها مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْأَئِمَّةِ الْمُشْتَغِلِينَ بذلك، وَقَدْ قَرَّبُوهَا أَحْسَنَ تَقْرِيبٍ، وَهَذَّبُوهَا أَبْلَغَ تَهْذِيبٍ، وَرَتَّبُوهَا عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ تَرْتِيبًا لَا يَصْعُبُ الْكَشْفُ عَنْهُ، وَلَا يَبْعُدُ الِاطِّلَاعُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهَا، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطَائِفِ الْمَزَايَا مَنْ كَانَ عَالِمًا بِعِلْمِ النَّحْوِ، وَالصَّرْفِ، وَالْمَعَانِي، وَالْبَيَانِ، حَتَّى يثبت لَهُ فِي كُلِّ فن مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ مَلَكَةٌ، يَسْتَحْضِرُ بِهَا كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عند وروده عليه، فإنه ذَلِكَ يَنْظُرُ فِي الدَّلِيلِ نَظَرًا صَحِيحًا، وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الْأَحْكَامَ اسْتِخْرَاجًا قَوِيًّا.

وَمَنْ جَعَلَ الْمِقْدَارَ الْمُحْتَاجَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ هُوَ مَعْرِفَةُ مختصر من مختصراتها، أَوْ كِتَابٍ مُتَوَسِّطٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا، فَقَدْ أَبْعَدَ، بَلِ الِاسْتِكْثَارُ مِنَ الْمُمَارَسَةِ لَهَا، وَالتَّوَسُّعُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَى مُطَوَّلَاتِهَا مِمَّا يَزِيدُ الْمُجْتَهِدَ قُوَّةً فِي الْبَحْثِ، وَبَصَرًا فِي الِاسْتِخْرَاجِ، وَبَصِيرَةً فِي حُصُولِ مَطْلُوبِهِ. وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَثْبُتَ لَهُ الْمَلَكَةُ الْقَوِيَّةُ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ، وَإِنَّمَا تَثْبُتُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِطُولِ الْمُمَارَسَةِ، وَكَثْرَةِ الْمُلَازَمَةِ لِشُيُوخِ هَذَا الفنِّ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِعِلْمِ أصول الفقه...فَإِنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ عِمَادُ فُسْطَاطِ الِاجْتِهَادِ..»

وقال الإمام بدر الدين الزَّركشي (ت/794هـ):

"وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا(اللغة) فِي أُصُولِ الْفِقْهِ لِأَنَّ مُعْظَمَ نَظَرِ الْأُصُولِيِّ فِي دَلَالَاتِ الصِّيَغِ، كَالْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، وَالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، وَأَحْكَامِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَدَلِيلِ الْخِطَابِ

وَمَفْهُومِهِ. فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي ذَلِكَ تَكْمِيلًا لِلنَّظَرِ فِي الْأُصُولِ... قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ فارس: "تَعَلُّمُ عِلمِ اللغةِ واجبٌ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ لِئَلَّا يَحِيدُوا فِي تَأْلِيفِهِمْ أَوْ فُتْيَاهُمْ عَنْ سُنَنِ الِاسْتِوَاءِ". قَالَ: وَكَذَلِكَ الحَاجَةُ إِلَى عِلمِ العَرَبِيَّةِ فَإِنَّ الإِعْرَابَ هُوَ الفَارِقُ بَيْنَ المَعَانِي، أَلَا تَرَى إِذَا قُلْتَ: مَا أَحْسَنَ زَيْدٌ لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِفْهَامِ وَالنَّفْيِ إِلَّا بِالإِعْرَابِ؟ وَنَازَعَ الإِمَامُ فخرُ الدِّينِ فِي "شَرْحِ المُفَصَّلِ" فِي كَوْنِهِمَا فَرْضَ كِفَايَةٍ، لِأَنَّ فَرْضَ الكِفَايَةِ إِذَا قَامَ بِهِ وَاحِدٌ سَقَطَ عَنْ البَاقِينَ. قَالَ: وَاللغةُ وَالنَّحْوُ لَيسَ كَذَلِكَ، بَلْ يَجِبُ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَنْ يَقُومَ بِهِ قَوْمٌ يَبْلُغُونَ حَدَّ التَّوَاتُرِ، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الشَّرْعِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِوَاسِطَةِ مَعْرِفَةِ اللغَةِ وَالنَّحْوِ، وَالعِلْمُ بِهِمَا لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ، فَإِنَّهُ لَوْ انْتَهَى النَّقْلُ فِيهِ إِلَى حَدِّ الآحَادِ لَصَارَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْعِ اسْتِدْلَالًا بِخَبَرِ الوَاحِدِ، فَحِينَئِذٍ يَصِيرُ الشَّرْعُ مَظْنُونًا لَا مَقْطُوعًا، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ...

وَالأُصُولِيُّ إِنَّمَا احْتَاجَ إِلَى مَعْرِفَةِ الأَوْضَاعِ اللغَوِيَّةِ لِيَفْهَمَ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ، وَإِلَّا فَلَا حَاجَةَ بِالأُصُولِيِّ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِالأَحْكَامِ وَالأَلْفَاظِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ افْتَقَرْنَا إِلَى تَقْدِيمِ أَمْرٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الشَّرْعَ هَلْ لَهُ تَصَرُّفٌ فِي اللغَةِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ ثَبَتَ عَدَمُ التَّصَرُّفِ اكْتَفَى الأُصُولِيُّ بِمَعْرِفَةِ وَضعِ اللغَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُقْنِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ، وَإِنْ ثَبَتَ تَصَرُّفُ الشَّرْعِ اكْتَفَى الأُصُولِيُّ بِمَعْرِفَةِ وَضعِ الشَّرْعِ لِلاسْمِ وَلَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللغَةِ فِي ذَلِكَ اللفظِ... وَلِهَذَا فَالفُقَهَاءُ قَلَّ مَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَى الأَلْفَاظِ بِاعْتِبَارِ وَضعِ اللغَةِ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ تَصَرُّفَ الشَّرْعِ فِي الأَسْمَاءِ، فَتَرَاهُمْ يَجْنَحُونَ إِلَى الإِجْمَاعِ وَغَيْرِهِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَّ عُرْفَ الشَّرْعِ مُكْتَفًى بِهِ وَمُضَافٌ إِلَيْهِ، وَعُرْفُ اللغَةِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ عِنْدَ احْتِمَالِ التَّغْيِيرِ لَا يُفِيدُ.[196]

---

196 "البحرُ المحيط في أصول الفقه"، بدر الدين الزركشي، 292/2 – دار الكتبي، الأولى، 1994م.

ولمزيد من التفصيل حول ارتباط علم أصول الفقه باللغة يُنظر المراجع التالية:

# المَبحَثُ الرابعُ
# العَربيّةُ أَفضَلُ اللُّغاتِ وأوسَعُها مَذهباً

قال الإمام الشافعي (ت/204 هـ): [197]

«لسانُ العرب أوسعُ الألسنة مَذهباً، وأكثرُها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي، ولكنه لا يذهبُ منه شيء على عامّتها، حتى لا يكون موجوداً فيها مَن يعرفه. والعلمُ به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيءٌ. فإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فُرّق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم ما كان ذهب عليه منها موجوداً عند غيره... وهكذا لسان العرب عند خاصتِها وعامتها، لا يذهبُ منه شيء عليها، ولا يُطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قَبله عنها، ولا يَشركُها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قبله منها فهو من أهل لَسانها. وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فإذا صار إليه صار من أهله. وعِلمُ أكثر اللسانِ في أكثر العَرب أعمُّ من علم أكثرِ السُّنن في العلماء.

فإن قال قائل: فقد نجد من العَجم مَن ينَطِق بالشيء من لسان العرب! فذلك يحتمِلُ ما وصفتُ مِن تعلمه منهم، فإن لم يكن ممّن تعلمَه مِنهم فلا يوجدُ يَنطقُ إلا بالقليل منه،

---

– "رَوضَةُ الإعلام بمنزلة العَربية مِن عُلوم الإسلام"، لأبي عبد الله بن الأزرق الغرناطي، من منشورات كلية الدعوة بطرابلس، تحقيق ذة. سعيدة العلمي، الطبعة الأولى1429 هج.

– "المباحث اللغوية وأثرها في أصول الفقه: دراسة في كتاب شرح (جمع الجوامع) لجلال الدين المحلي"، ذ. نشأت علي عبد الرحمن، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، 1426هج. –

– "صلة علم الأصول باللغة"، د. محمد فوزي فيض الله، مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، ع2/ 1392هج

197 "الرسالة" 1/34.

ومَن نطقَ بقليلٍ منه فهو تَبَعٌ للعرب فيه. ولا نُنكر إذ كان اللفظُ قِيل تَعلماً، أو نُطِقَ به موضوعاً: أن يوافقَ لسانُ العَجم أو بعضُها قليلاً من لسان العرب، كما يَتفِقُ القليل من ألسنة العجم المتبايِنة في أكثر كلامها، -مع تنائي ديارِها واختلاف لسانِها وبُعد الأواصِر بينها وبين مَن وافقتْ- بعضَ لسانه منها . . . وأَولى الناس بالفضل في اللّسان مَن لسانُهُ لسانُ النبي، ولا يجوز -واللهُ أعلم- أن يكونَ أهلُ لسانه أتباعاً لأهل لسانٍ غيرِ لسانه في حَرفٍ واحدٍ، بل كلُّ لسانٍ تَبَعٌ للسانه، وكلُّ أهلِ دينٍ قبلَه فعليهم اتباعُ دينه. وقدْ بيّن اللهُ ذلك في غيرِ آية من كتابه: قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء/193) وقال: ﴿وكذلك أنزلناهُ حُكْماً عَربيا﴾ (الرعد/37) وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى/7) وقال: ﴿إنا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف/3) وقال: ﴿قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون﴾ (الزمر/28) .

قال الشافعي: «فأقام حجَّته بأن كتابه عربيٌ في كل آية ذكرناها، ثم أكّد ذلك بأن نفى عنه – جل ثناؤه – كلَّ لسانٍ غيرِ لسانِ العرب في آيتين من كتابه فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل/103) وقال: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) (فصلت/44)» .

وأخبر السيوطي عن حَرمَلة بن يحيى –الفقيه المصري– قال: سمعتُ الشافعيَّ يقول: "ما جَهل الناسُ ولا اختلفوا إلاّ لتركِهم لسانَ العرب، ومَيْلهم إلى لسان "أرسطوطاليس"، ولم ينزل القرآنُ ولا أتتِ السنَّة إلاّ على مُصطلح العَرب ومَذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتِجاج والاستدلال، لا على مصطلح اليونان، ولكل قومٍ لغة واصطلاح" .

لكنَّ الأصوليين بعد الشافعي خلطوا بين الدّراسة اللُّغوية والمَنطقية، وكان هذا الخلط في البداية بمقدار المُفيد، ثم زادت نسبة المَنطق في مُناقشة القضايا الأصولية، حتّى وصل الأمر بالكُتُب المتأخرة في هذا العلم إلى درجة عالية من الغموض والإرباك.

وجاء في "الصاحبي في فقه اللغة" لابن فارس: [198]

«قال جل ثناؤه: ﴿وإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، فوصَفه جلّ ثناؤه بأبلغ مَا يوصَف بِهِ الكلام، وهو البيان. وقال جلّ ثناؤه ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فقدّم جل ثناؤه ذكر البيان عَلَى جميع مَا توحَّد بخلقه وتفرَّد بإنشائه، من شمس وقمر ونجم وشجر وغيرِ ذَلِكَ من الخلائق المحكَمة والنَّشايا (المنشآت) المُتقَنة. فلمّا خصَّ جل ثناؤه اللسانَ العربيَّ بالبيان عُلم أنَّ سائرَ اللغاتِ قاصرةٌ عنه وواقعة دونه.

فإن قال قائل: فقد يقعُ البيانُ بغير اللسان العربي، لأن كلَّ مَن أفْهَم بكلامه عَلَى شرط لغته فقد بَيَّن؛ قيل لَهُ: إن كنتَ تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قَدْ يُعربُ عن نفسه حَتَّى يَفهمَ السامعُ مُرادَه فهذا أَخسُّ مَراتب البيان، لأن الأبكَمَ قَدْ يَدل بإشاراتٍ وحركاتٍ لَهُ عَلَى أكثر مُراده ثُمَّ لا يُسمّى متكلماً، فضلا عن أن يُسمَّى بَيِّناً أَوْ بليغاً.

وإن أردتَ أنَّ سائر اللّغات تُبين إبانةَ اللغة العربية فهذا غلَط، لأنّا لو احتَجنا أن نُعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذَلِكَ إلاّ باسم واحدٍ، ونحن نذكُرُ للسيفِ بالعربية صِفاتٍ كثيرةً، وكذلك الأسدُ والفرسُ وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة. فأين هَذَا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السَّعة مَا للغة العَرب؟ هَذَا مَا لا خفاء بِهِ عَلَى ذي نُهيَة (عقل).

وَقَدْ قال بعضُ علمائنا حين ذكر مَا للعرب من الاستعارة والتمثيل والقَلب والتقديم

198 "باب القول فِي أن لغة العرب أفضلُ اللغات وأوسعُها" ص/19–20.

والتأخير وغيرها من سُنن العرب فِي القرآن، فقال: ولذلك لا يَقدر أحدٌ من التراجم عَلَى أن ينقله إِلى شيء من الألسنة كما نُقل الإنجيلُ عن السريانية إِلى الحَبشية والرُّومية، وتُرجِمتِ التوراةُ والزَّبور وسائرُ كُتب الله عزّ وجل بالعربية، لأَن العجم لَمْ تتسع فِي المجاز اتساعَ العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقُل قوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ لَمْ تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدِّية عن المعنى الذِي أَوْدِعتْه حَتّى تبسُط مجموعَها، وتصِل مقطوعَها، وتُظهِرَ مَستورَها، فتقول: إن كانَ بَيْنَك وبين قوم هُدنةٌ وعهدٌ فخِفتَ منهم خيانةً ونقضاً فأَعلِمهم أنّك قَدْ نقضتَ مَا شرطتَه لهم، وآذِنهم بالحرب لتكون أنتَ وهم فِي العلم بالنَّقض عَلَى استواء. وكذلكَ قولُه جل ثناؤه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ﴾.

فإن قال قائلٌ: فهل يوجدُ فِي سُنن العرب ونظومها مَا يجري هَذا المجرى؟ قيل لَهُ: إن كلامَ الله جل ثناؤه أعلى وأرفعُ من أن يُضاهى أَوْ يُقابَل أَوْ يُعارض بِهِ كلام، وكيف لَا يكون كذلك وهو كلامُ العليّ الأعلى خالقِ كل لغة ولسان، لكنّ الشعراء قَدْ يومئون إيماءً، ويأتون بالكلام الذِي لو أراد مُريدٌ نقلَه لاعْتَاصَ (صعُب) وَمَا أمكنَ إلاَّ بمبسوطٍ من القول وكثيرٍ من اللفظ...».

وجاء فِي "زَهر الآداب" لأبي إسحاق الحُصري القيرواني (ت/ 453 هج): [199]

«ذكرَ عُتبة بن أبي سفيان كلامَ العرب فقال: إن للعرب كلاماً هو أرقّ من الهواء، وأعذبُ من الماء، مَرق (خرج) من أفواههم مُروقَ السّهام من قِسيّها، بكلمات مُؤْتلفات، إن فُسّرتْ بغيرها عَطلت، وإن بُدّلت بسواها من الكلام استَصْعبَتْ؛ فسهولة ألفاظهم توهِمُك أنها ممكنةٌ إذا سُمِعت، وصعوبتُها تعلِمك أنها مَفقودةٌ إذا طُلِبت. هُم اللطيفُ فهمُهم، النافعُ علمُهم، بِلغتهم نزل القرآنُ، وبها يُدْرَك البيانُ، وكلّ

199 "زَهر الآداب وثمر الألباب"، 3/ 684، الناشر: دار الجيل، بيروت.

نوعٍ من معناه مُبايِنٍ لما سِواه، والناسُ إلى قولهم يصيرون، وبهُداهم يَأتمُّون، أكثرُ الناس أحلاما، وأكرمُهم أخْلاقا. وكان يقال: خير الكلام المُطمِع الممتنِع.

أنشد إبراهيمُ الصولي لخاله العباسِ بن الأَحنَف:

إليكَ أشكو رَبّ ما حَل بي مِن صَدّ هذا العاتِب المُذْنِب

إن قال لم يَفعل، وان سِيل لم يَبْذل، وإن عُوتِبَ لَم يُعْتِب

ثم قال: هذا والله الشعر الحسنُ المعنى، السَّهل اللفظ، العَذب المستَمَع، الصعب المُمْتنِع، العزيزُ النَّظير، القليل الشبيه، البعيدُ مع قُربه، الحَزْن مع سهولته. فجعل الناس يقولون: هذا الكلام أحسن من الشعر».

وقال هِشَامُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ (71 - 125 هـ) لخالد بن صَفوان (ت/130 هـ): صِف لي جَريرا والفرَزدق والأخطل، فقال: يا أميرِ المؤمنين، أما أعظمُهم فخرا، وأبعدُهم ذِكْرا، وأحسنُهم عُذرا، وأسيَرُهم مَثلا، وأقلهم غزلاً، وأحلاهم عِللا، البحرُ الطامِي إذا زخر، والحامي إذا ذعِر، والسامي إذا خَطر، الذي إذا هَدَر جال، وإذا خَطر صال، الفصيحُ اللسان، الطويل العِنان، فالفرزدق. وأما أحسنُهم نَعْتا، وأمدَحُهم بيتا، وأقلهم فَوْتا، الذي إن هجا وَضع، وإن مَدح رفع، فالأخطل. وأما أغزَرُهم بحْرا، وأرقهم شعرا، وأكثرهم ذِكرا، الأغرّ الأبْلَق، الذي إن طَلَب لم يُسبَق، وإن طِلب لم يُلحَق، فجرير. وكلهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العِماد، واري الزّناد.

قال مَسْلَمَة بنُ عَبْدِ المَلِكِ (ت/120هـ) –وكان حاضِراً– "ما سمعنا بمثلكَ يابن صفوان في الأولين ولا في الآخرين، أشهد أنك أحسنُهم وَصْفا، وأليَنَهم عِطْفا، وأخفهم مَقالا، وأكرمُهم فِعالا". فقال خالد: أتمَّ الله عليك نِعَمه، وأجزل لك قِسمَه. أنت والله أيها الأمير– ما علمتُ– كريمُ الغِراس، عالم بالناس، جوادٌ في المَحْل، بَسّامٌ عند البَذل، حليم عند الطّيش، في الذروة من قريش، فضحك هشام وقال: ما رأيت مثلك يابن صفوان لتخلصك في مدح هؤلاء، ووصفهم، حتى أرضيتهم جميعا وسلِمت منهم.

# الفصل الثالث

# العَربيّة في العَصْر الحَدِيث

## المَبحثُ الأَوَل

## حَرَكةُ الشُّعوبيَّة بين القَدِيم والحَدِيث

اللغة مُقوّم أساس لهوية الأمة وعَمودها الفقري، واللغة العربيةُ نتاج مجتمعها اليوم، وأَزمتها مرآة عاكسة لمظاهر أزمة المجتمع العربي في مختلف ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع. ولا ينبغي الانجرار وراء مقولة "أن اللغة العربية لا تساير ركب التطور العلمي والحضاري"، لأن أزمة العربية وما يصاحبها من دعوات التخلي عنها أو تعويضها بلغة بديلة ليست وليدة اليوم، بل وجدت منذ فجر الإسلام، حين ظهرتْ نِحْلة الشعوبية، وهي حركةٌ بدتْ بوادرُها في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت للعِيان في بدايات العصر العباسي، وهي نسبة غير قياسية إلى الشعوب، وهم جيل من العجم غالبهم دخل الإسلام تقيَّةً، وفي بداية الأمر انتشرت الشعوبية بين المسلمين الفرس لأنهم أول من دخل الإسلام من غير العرب، ثم ظهر شعوبيون هنود، ثم أتراك، ثم مُولدو الأندلس (الإسبان المستعربون).

وكانت النزعة الشعوبية واسعةً وقوية بين الفرس لعدة أسباب، منها: أن الفُرس في عصر الفتوحات الإسلامية كانوا أكثر تحضراً من العرب، وأكثر مَدنيَّة، فنَما لديهم شعورٌ بالاستعلاء عمَّق نزعةَ التعصب لديهم بعد أن سيطرَ المسلمون –ممثَّلون بالعرب– على بلادهم. كما أن الفرسَ دخلوا الإسلام بأعداد هائلة فتشكلتْ منهم أكثرية بين الموالي. وكان الشعوبيون في بداية أمرهم يُسمُّون دعوتهم "حركة التسوية" (التّسوية

في الحقوق بينهم وبين العرب) . ثم تحولت الشعوبية تدريجيا إلى حركة تفضيل العجم على العرب وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضَرب سُلطة الخلافة. فراحوا يَبكون مجدَ المجوس الغابر، ولم يجدوا سوى المكرِ والدَّسيسة، فشرع مثقفوهم يُعيّرون العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم، وينتقصون قَدر لغة الضاد، ويُعلون من شأن حَضارة العجم ولغتهم، وألفوا في ذلك كتباً، من أشهرها كتابٌ في "مَثالب العرب" لعلان بن الحسن الشعوبي الورّاق، وآخر لأبي عبيدة تميز بالسعة والاستقصاء، وكان أبوه يهودياً يُعيّر بذلك . . .[200]

وقد ردّ على الشعوبية من فرسان عُلماء العربية: عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت/276 هـ)، في كتابه "فَضل العَرب والتنبيهُ على علومها"، وعمرو بن بحر الجاحظ (ت/255 هـ) في باب العصا من كتابه: "البيان والتبيين" . ولعل من المفيد ان نختصر –فيما يلي– كلام هذينِ العَلَمين حولِ القضية لقربهما من عصر هذه الفتنة، ولسَعة علمهما ونضج فِكرهما وتنوّع ثقافتهما، حتى تتكشف لنا قِدمُ المؤامرة على اللسان العربي وأبعادُها .

## أولاً: ابن قُتيبة وفَضل العَرب وأَسبابُه

يفتتح ابن قتيبة الجزءَ الأول من كتابه بالتعوذ بالله من فِتنة العَصبية وحميَّة الجاهلية، وتحامل الشعوبية، ثم يتحدث عن الحسد، ويصفه بالداء العَياء، وبأنه أول ذنب عُصِيَ الله به في الأرض والسماء، مورداً شواهدَ من القرآن وغيره، ثم يقول: "ولم أرَ في هذه الشُّعوبية أرسخَ عَداوةً، ولا أشدَّ نَصَباً للعرب من السَّفَلة والحشوة (الأراذل) وأَوباش النَّبط (الأخلاط)، وأبناء أكرة القُرى (الحرّاثين)، فأما أشرافُ العَجَم وذوو الأخْطار منهم وأَهلُ الديانةِ فيَعرفون ما لهم وما عليهم، ويرونَ الشرفَ نسباً

200 لمزيد من التفصيل حول الشعوبية وأسباب ظهورها وأبرز روادها، يُرجع إلى كتاب: "الشعوبية والزندقة في العصر العباسي الاول" لحسين عطوان، ص/ 147-180، نشر دار الجيل ببيروت.

ثابتاً . . . [201]

وانما لهَجَت السفلةُ منهم بذمّ العرب، لأن منهم قوماً قُرّبوا من السلطان فدخلتهم الأَنَفَةُ لآدابهم، والغضاضة لأقدارهم مِن لؤم مَغارسهم، وخُبث عَناصرهم. فمنهم من ألحقَ نفسَه بأشراف العَجم، واعتزى (انتسب) الى ملوكهم وأساورتهم (فرسانهم)، ودخل في باب فسيح لا حجابَ عليه، ونسب واسع لا مُدافعَ عنه. ومنهم مَن أقام على خَساسةٍ يُنافح (يدافع) عن لؤمه، ويدَّعي الشرفَ للعجم كلّها، ليكونَ من ذوي الشرف، ويُظهر بُغضَ العرب يَنتقصها، ويستفرغ مجهودَه في مَشاتِمها، وإظهار مَثالِبها، وتحريف الكلِم في مَناقِبها، وبلسانها نطَق، وبآدابها تسلح عليها، فإن هو عَرفَ خيراً سَتَره، وإن ظَهَرَ حقَره، وإن احتمل التأويلاتِ صَرفه إلى أقبحها، وان سمِع سوءاً نشَره، وان لم يسمعه نفر عنه، وإن لم يجدْه تخَرَّصَه (كذب فيه)".

وفي الجزء الثاني من كتابه ذكر ابن قتيبة ما للعرب من العلوم والحكم في الشعر، والكلام المسجّع المنثور لغرض التنبيه، والدلالة، ودفع الخصم عما يَنسبُ اليه العربَ من الجفاء والغباوة. [202] ثم يقسم العلومَ الى نوعين: "أحدهما علم إسلاميٌّ نَتجَ من بين الدين واللغة: كالفقه، والنحو، ومعاني الشعر؛ وهذا للعرب خاصة، ليس للعجم فيه سببٌ إلاّ تعلمه واقتباسه. . . والآخر علمٌ مُتقادِم تتشارك فيه الأممُ لا أعلم منه فنا إلاّ وقد جَعل الله للعرب فيه حظا، ثم تنفردُ من ذلك بأشياء لا تُشارك فيه".

ومما تفرد به العربُ –حسب ابن قتيبة– عِلمُ الخيل؛ الذي لا نجد علمه عند الأمم اليونانية والفارسية والهندية والرومية، وكذلك علمُ النجوم وأسمائها وأنوائها ومطالعها

---

200 "فضل العرب والتنبيه على علومها"، ج1/ ص 35 وما بعدها. تحقيق: د. وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى سنة 1998 م.

202 المرجع نفسه، ص/129 وما بعدها.

ومَساقطها والاهتداء بها . وللعرب –فضلاً عن ذلك– عِلم الفِراسة والتَّوسُّم، وعلم في القِيافة "وهي شبيهة بالفراسة في معرفة الأشباه في الأولاد، ومعرفة الآثار" .
ومن علوم العرب في الجاهلية العِيافة (زجْر الطير)، والخط، والطَّرْق والكِهانة، "وذلك أن تعتبر بأسمائها، ومساقطها، ومجاريها وأصواتها"، والخط "أن يخط الزاجر في الرمل، ويزجر "وأما الطّرق فهو "نثْرُ الحَصى في الأرض، والاستدلالُ بوقوعه، واجتماعه، وتفرقه"، وهذه العلوم –الى الكهانة– من العلوم القديمة في الجاهلية.
وكان العربُ "أخطبَ الأمم ارتجالاً، وأذْلَقها (أفصحها) ألسنةً، وأحسنَها بياناً، وأشدَّها اختصاراً"، وفَضلُها في الشعر لا يُشركها أحدٌ من الأمم الأعاجم فيه، فهو مَعدن عِلم العرب ومَقرُّ حِكمتها، وديوانُ أخبارها، ومُستودَع أيامها، والسُّور المَضروب علي مآثرها، والخَندق المحجوز على مَفاخرها، والشاهِدُ العَدل على التّفار (الفخر)، والحُجَّة القاطعة عند الخِصام. ويورد ابن قتيبة بعد ذلك شواهدَ كثيرة من الحِكمة في شعر العرب ومَنثور كلامهم ومسجوعه.

## ثانيا: الجاحظ وموقفه من الشعوبية

يمكن القول بأن من الأسباب التي حملت الجاحظ على وضع «البيان والتبيين» هو الرد على الشعوبية التي طعنت في بلاغة العرب وموهبتهم الخطابية. وقد كرس لهذه الغاية قسما لا بأس به من الكتاب وهو باب العصا من الجزء الثالث. حيث بيَّن الجاحظ مَوقف هذه النّحلة و كشَف خَطرها بكلام طويل، ثم ردّ عليهم بمنطق بليغٍ شافٍ –كعادته– نوجزه فيما يلي. قال في "بيانه": [203]
«ونبدأ على اسم الله بذكر مَذْهب الشعوبية ومن يتحلَّى باسم التّسوية، وبمطاعنهم على خُطباء العرب بأخذ المِخصرة (العصا ونحوها مما يُمسك باليد) عند مُناقلة

[203] "البيان والتبين"، 3/ 9 وما بعدها، "باب العصا" .

الكلام (مراجعته)، ومساجلة الخصوم بالكلام الموزون المقفّى، والمنثور الذي لم يُقَفَّ، وبالأرجاز عند المتْح (الاستقاء من أعلى البئر) . . .

قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع (اللحن)، والقناة (الرمح) للبقار، والعصا للقِتال، والقوس للرمي. وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يُشغلا العقل ويصرفا الخواطر، ويعترضا على الذهن أشبه، وليس في حملهما ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ. . . وحمْل العصا بأخلاق الفدّادين (الجُفاة الكلام) أشبَه، وهو بجفاء العرب وعُنجُهية أهل البدو، ومُزاولة إقامة الإبل على الطّرق أشكل. . .

قالوا: والخطابة شيءٌ في جميع الأممِ، وبكلّ الأجيال إليه أعظَمُ الحاجة، حتى أن الزَّنج مع الغثارة (الحمق)، ومع فرط الغباوة، ومع كَلال الحدّ وغِلظ الحِس وفساد المِزاج، لتطيل الخُطَب، وتفوق في ذلك جميع العَجم، وإن كانت معانيها أجْفَى وأغلَظ، وألفاظها أخْطَل وأجهل. وقد علمنا أن أخطبَ الناس الفُرس، وأخطبَ الفرس أهل فارس. .

قالوا: ومن أحبّ أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرفَ الغريبَ، ويتبحَّر في اللغة، فليقرأْ كتاب "كارْوَنْد" [204]. ومن احتاج إلى العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعبر والمُثُلات (العقوبات)، والألفاظ الكريمة، والمعاني الشريفة، فلينظرْ في سِيَر الملوك. فهذه الفرسُ ورسائلُها وخُطَبها وألفاظها، ومعانيها. وهذه يونان ورسائلها وخُطبها، وعِللها وحِكَمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماءُ بها تَعرف السَّقَمَ من الصحة، والخطأَ من الصواب. وهذه كتب الهند في حِكَمها وأسرارها، وسيَرها وعِللها.

فمن قرأ هذه الكتب، وعرف غَوْر تلك العقول، وغرائبَ تلك الحكم، عرف أين

---

204 قال محقق "البيان والتبيين": هي كلمة مركبة من كلمتين فارسيتين: "كار" ومعناها الصناعة، ولا تزال تستعمل في العامية المصرية، وكلمة "ند" بمعنى الثناء والمديح.

البيانَ والبلاغة، وأين تكاملتْ تلك الصناعة. فكيف سَقط على جميع الأُمم من المعروفين بتدقيق المعاني، وتخيّر الألفاظ، وتمييز الأمور، أن يُشيروا بالقَنا والعِصي، والقضبان والقِسيّ؟ . . .».

ردّ الجاحظ على شُبهات الشعوبيين وتنقيص قَدر العرب

وبعد ان أورد الجاحظ شواهد كثيرة من أشعار العرب تُبين علوّ كعبهم في باب القَريظ والسجع، قال: «وجملةُ القول أنا لا نعرفُ الخطبَ إلا للعرب والفرس. فأما الهند فإنما لهم معان مُدوّنة، وكتب مخلّدة، لا تضاف إلى رجل مَعروف، ولا إلى عالم مَوصوف، وإنما هي كُتب مُتوارَثة، وآدابٌ على وجهِ الدهر سائرةٌ مذكورة.

ولليونانيين فلسفةٌ وصناعةُ مَنطق، وكان صاحبُ المنطق (أرسطو) نفسه بَكيّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن "جالينوس" كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفي الفرس خُطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجموعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علمَ الأول، وزيادة الثالث في، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خَلوة، وعن مُشاورة ومعاونة، علم الثاني، حتى اجتمعتْ ثمارُ تلك الفكر عند آخرهم. وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مُكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يَصرف همّهُ إلى الكلام، وإلى رَجَز يوم الخصام، أو حين يُمتّح على رأس بئر، أو يحْدُو ببعير، أو عند المُقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يَصرف همّه إلى جُملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يَقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتَنْثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيّده على نَفسه، ولا يُدرّسه أحداً من ولده.

وكانوا أميين لا يكتبون، ومَطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيدُ عندهم أظهرَ وأكثر،

وهم عليه أَقْدر، وله أَقْهر، وكل واحد في نفسه أَنْطَق، ومكانه من البيان أَرفع، وخطباؤهم للكلام أَوْجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقِروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمَن حفظ عِلمَ غيره، واحْتذى على كلام مَن كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علِق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب..

ونحن- أبقاك الله- إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والإرجاز، ومن المنثور والإسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير، والنبذ القليل. ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون، وابي عبيد الله، وعبد الحميد وغيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير.

فتفهّم عني -فهّمكَ الله- ما أنا قائل في هذا، ثم اعلم أنكَ لم ترَ قوماً قطّ أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشدَّ استهلاكا لِعرضه، ولا أطول نصْبا (شقاوة)، ولا أقل غُنماً من أهل هذهِ النّحْلة (الطائفة). وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جُثومِ الحَسد على أكبادِهم، وتوقّد نَار الشّنَآن في قلوبهم، وغَليان تلك المراجِل الفائرة، وتسعُّر تلك النيران المُضطرِمة...".

ونكتفي -دليلا على ما قاله الجاحظ في شأن شعراء الشعوبيين - ببيتَين لبشّار بن بُرد، أحدِ زعمائهم، يهجو فيهما أبا عمرو بن العلاء التميمي اللغوي المعروف:

ارفق بِنسْبة عَمرو حين تنسبه | فإنـهُ عَـربـيٌّ مِـن قـواريـرِ
مازال في كِير حَدّادٍ يُردّدُه | حتى بَدَا عَربيا مُظلِم النـورِ
إنْ جاز آباؤه الأنذال مِن مُضَرٍ | جازتْ فلُوسُ بخَارى في الدنانيرِ

# المبحَث الثَّاني

## الشُّعوبيَّة الجَديدَة وصُوَرها في العَصْر الحاضِر

تأكَدَ الهجومُ على العربية مرة أخرى في عصر النهضة، من خلال الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني، أو باستعمال العامية بدل الفصحى، أو تيسير قواعد النحو العربي. . .أو في الادب العربي الحديث عموماً. وقد جاءت الشعوبية الحديثة كمظهر من مظاهر التغريب والغزو الثقافي، تشكل تياراً مثراً يَستهدفُ ضرب الاصالة العربية الإسلامية وانتزاع الادب العربي من قِيَمه وأُسسه وقوانينه حتى يَنفرطَ عِقده. .[205]

قال الدكتور رمضان عبد التواب (ت/ 1422هـ) في هذا الشأن: [206]

"مُنِيَت العربية الفصحى في العصر الحديث، بخصوم حاقدين وأعداء أِلداء. وليست تلك الهجمة الضارية الشّرسة على الفصحى إلا جزءاً من الهجوم على الدين الإسلامي الحنيف، فقد فَطِن أعداءُ هذا الدين، إلى الارتباط الوثيق بينه وبين اللغة العربية الفصحى، وفي يقينهم أنهم إن أزالوها عن مكانتها الراسِخة في القلوب منذ أربعة عشَر قرناً فقد أزالوا الحِصنَ الأكبر من حصون هذا الدين الحنيف، فرَمَوها بكل ما يملكون من أَسْهُم ونِبال، واتهموها وما زالوا يتهمونَ بالصعوبة والتعقيد، وأخذوا يشككون أهلها في قدرة لغتهم على مجاراة العصر، والاتساع للتعبير عن مُستحدثات الحضارة، وبَذلوا جهدهم في إحلال العامّية محلّها، بدعوى جمود الفصحى، وانتمائها إلى عصور بادَتْ وانقرَضت، وعدمَ صلاحيتها للحياة وسْطِ هذا الخِضمِّ الهائل من النظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية التي يَمُوجُ بها القرن العِشرون".

---

205 "الشعوبية الجديدة في الادب العربي الحديث"، ص/8، أنور الجندي، دار الاعتصام بالقاهرة

206 "بحوث ومقالات في اللغة" ص/165، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الاولى 1982م.

وقد نبه الأستاذ الرافعي (ت/1937م) الى هذا المعنى من قبل، حين ردَّ على طه حسين خاصةً عند تأليف كتابه "في الشعر الجاهلي"، وعلى أنصار التغريب عموماً، في كتابه "تحت راية القرآن"، وفيه بيان شافٍ من شهادة الرافعي على تلك الأحداث، حيثُ وقف صامداً لأدعياء الأدب والثقافة، وأعداء العربية والدين، وكافح المتغربين والمنافقين حتى كتب الله له النصر المبين. يقول الأستاذ الرافعي: [207]

«إن هذه الفئة – بهذا الصنيع- تحاربُ القرآن والحديثَ وجميعَ الآثار الإسلامية، وتريد أن تتبدلَ بها من كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرَمين والمولدين، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية، وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع، ولكن قد اتفقت في الوسائل: فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته، وكونه من العربية بمنزلة القُطب من الرحى، ولكنه يدس الدسائس من طَرْف خفيّ لإقصائه عن دائرة الأدب العربي وتزهيد النَّشْءِ فيه، بحجة كونه قديما وأن كل قديم هو بال، حتى إذا تمّ لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طَعنوا الإسلام طعنة سياسية في أحشائه، على حين هم يزعمون أن الموضوع موضوعٌ لغوي لا مدخل للسياسة فيه، فيُزلقون بهذه الدعوى المِدحاض كثيرين ممن لو تفطنوا لما وراء الدعاية البارزة في زي لغوي أدبي من المآرب السياسيَة الخبيثة لكانوا منها على حَذر، بل لانقلبوا عليها وصاروا قرآنيين، ولكن الحوادث الأخيرة، لا سيما ما جرى قبيل الحرب الكبرى إلى ما بعدها قد أثبتتْ أنه ما زالتْ هناك فئةٌ تلعبُ بفئة وتسوقها إلى حيث تريد، فلا تستفيق هذه من سَكرتها إلا وقد قُضيَ الأمر الذي فيه تستفتيان. وهذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة، إن هي إلا حَلقة لغوية من سلسلة دسائسَ مقصودٌ منها الإسلام لا القرآن من حيث كونه قرآناً، ولا

207 "تحت راية القرآن" ص/ 34 وما بعدها، المكتبة العصرية، بيروت الطبعة الأولى2002 م .

الفصاحة من حيث كونها فصاحة. . .»

ويصف الرافعي المتغربين لساناً ومدنيةً، الداعين الى إصلاح العربية بغير دليل فيقول:

" إن العَجز مِطواع؛ وإن كل ما يعني أهلَ الحزْم يَهُم به العاجز ويراه سهلاً، لأن ذلك يحقق معنى عجزه؛ وما زال من يعجز عن الكتّابة هو الذي يريد أن يصلح لغتها وأساليبها، ومن يعجز عن الشعر هو الذي يقول في إصلاحه أوسع القول، وهلُمَّ إلى أن تستوعب الباب كله. فقد قالوا إننا نخاطبُ الدّهماءَ والأَجْلافَ ومن يَسفُّ إلى منازلهم بكلام أهل نجد وألفاظ أهل السَّراة (جبال)، ونَتوهَّم من سُبل الحضارة بَوادي قَيْس وتميم وأسَد، وبالجملة فنحن نضرب في حدود الفوضى التي لا وجه فيها ولا مخرَج منها، وفي ذلك مَزرأة (عيب) بالأدب ومضرَّة على الأمة.

قالوا هذا وما يجري مجراه ويذهب في نزعته، ولم يستحوا أن يَصْدَعوا به، وهم يرون إلى جانبهم من المستشرقين أعاجمَ قد فصُحوا، وأقبلوا على آدابنا وتاريخنا فوَسِعوها بما اتسع لهم من العلم، وأحاطوا بها ما أطاقوا، بل كادوا يكونون أحقَّ بها وأهلَها؛ وقد كانوا في غنى عن كل ذلك بلغاتهم وآدابهم وما أفاء الله عليهم ومكَّن لهم فيه. ثم لم يُشفق أصحابُنا أن يَبتلوا تاريخَهم بالعُقوق وهو الثُكل الذي لا عَزاء معه، فأرادونا على أن نخلع بأنفسنا هذا التاريخ لا نُعطيه طاعة، ولا نبايع له منا عن جماعة، ثم نكون كزنوج أفريقيا: إذا غابتْ عنهم الشمسُ غاب عنهم التاريخ وإذا طلعت عليهم استأنفوا تاريخاً جديداً !"

نعيبُ زماننا والعيبُ –أحياناً– فينا !

ويرى الرافعي ان الحفاظ على العربية مَنوط بنا، وأن جَهلنا وتفريطنا فيها سَببُ ضعفها، يقول:

"لقد أهملنا اللغة ثم أهملناها حتى صارتْ معنا إلى حال من الجَفْوة جَعلتها كالغريبة عنا، وجعلتنا من نَقص فَهمنا فيها بحيث نضطر إلى التماس شيء غيرها نَفهمه، فصار

إصلاح اللغة كأنه دُرْبةٌ لإفسادنا، وإفسادُها فيما نتوهمُ دُربةً لإصلاحنا، إنما هما خُطتّان لا تُفضي كلتاهما إلى شرّ مِن أُختها مُبْداً أو مُنقلبا، وإنّ أقبحَ ما ترى مِن شيئَين أن يكون أحسنَ الرأي تركهما جميعا. زعموا أنهم يريدون أن تسهُل الألفاظ وتتكشفَ المعاني، وتكون الكتابةُ في استوائها وجمالها كصَفحة السماء، فهل البلاغة العربية إلا تلك؟ وهلٍ هذا أمر عربي؟ بلى.

وهل يعرفون أن الطفلَ يرى كل ما يدور في مَسمعه من ألفاظ والديْه كأنه إنما يتفق لهما استكراهاً، إذ لا يفهم من كل ذلك شيئًا إلا بمقدار ما يعتادُ وعلى حَسب ما تبلغ حاجَتُه، وإذ هي لغة أوسع من لغته مادة، فلمَ لا يكون الرأيُ أن يَنزل الآباء إلى لغات أطفالهم، ويقتصر هذا المنطقُ الإنساني على المُترادِف المتوارد من أسماء الألعاب الصبيانية وما يلتحق بها؟" [208]

## تمْصير اللغةِ العربية بَعد أن كانت مُضرِّية!

يقول الأستاذ الرافعي: «نريد بهذا التمصير ما ذهبت إليه أوهامُ قوم فُضلاء يرون أن تكون هذه اللغة التي استحفظوا عليها مِصرية بعد أن كانت مُضرية، وأن تطّرِد لهم مع النّيل بِعدد التُرَع وعِداد القُرى حتى تُرْسَلَ الكلمةُ من الكلام فلا يجهلها في مِصرَ جاهل، ويَصدُر الكتَابُ من الكتب فيجري في أفهام القوم على طريقة واحدة، ويأخذ منهم مأخذاً مَعروفاً غير مُتباين بعضه مِن بعضه...». [209]

ثم يرد الرافعي على أصحاب هذا الاتجاه قائلا:

"ونحن فإن كنا نفهم رأياً من هذه الآراء الحاضرة فإننا لا نفهم كيف يكون إحياءُ العربية باستعمال العامية، وكيف يُرضي لغةَ القرآن التي تأبى إلا أن تتقيد بها اللهجات

---

208 "تحت راية القرآن (المعركة بين القديم والجديد)"، ص/ 34.

209 نفسه: ص/ 42 وما بعدها.

الأخرى كما مَحَت من قبلُ لغاتِ العرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطرة في أهلها وردَّتها إلى لغة واحدة هي القرشية، ثم نرضى مِن جهة أخرى هذه اللهجات العامية التي تأبى أن تتقيد بشيء، وهي أبداً دائمة التغير بالأسباب المختلفة التي تؤثر فيها، وتديرها في الألسنة حتى صارت في بعض قرى مصر كأنها مَالطية (نسبة الى دولة مالطا) "مُتمَصرة"، وصار بعض هذه القرى لا يفهم عن بعض كما ترى بين أقصى "الدلتا" وأقصى الصعيد . وإذا حاولنا مَذهب الإصلاحِ العامي فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فنَنْبذها ؟ وإذا ابتغينا بهذا الإصلاح استدراج العامة ليتابعوا الكتّاب والخطباء فيما يكتبون ويخطبون، فهل يتابعونهم على العامي وحده حتى يُنزل في الفصيح إذ يَسْتمرئونه ويُسيغونه حتى إذا عرض لهم الفصيح خالصاً أنكروه وغضوا به، أم تكون المتابعة على العامي والفصيح جميعاً ؟ ! وإذا جاز على القوم أن يتابعوا الكتّابَ والخطباء على الفصيح الممزوج بالعامي، فلمَ لا يكون ذلك إذا كان الفصيح خالصاً مأنوساً وكانت القرائن قائمة على ما فيه من جديد أو غريب، وكانت ألفاظه لا تبرا من معانيه ولا هذه تشق على تلك؟"

وعن ضرورةُ الإصْلاح اللغوي وشُروطه يضيف الرافعي:

نحن لا نماري في وجوب الإصلاح اللغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمعٌ يحوطُها ويصنع لها ولو على الأقل " كمصلحة الكُنس والرشّ" ! . ولا نقول إن هذه العربية كاملة في مفرداتها، ولا إنه ليسٍ لنا أن نتصرف فيها تصرُّف أهلها، فإن مَن يذهب إلى ذلك لا يعدو باللغة وسيلة من وسائل العَيش وأداة من أدوات الاجتماع الفِطري. . .

ألا وإن أعجبَ ما في أمرنا في المعروف والمنكر أن تختلف الأممُ في معاني الألفاظ واختراعها، وتحديدها ووجوه الانتفاع بها، ولا نختلف نحن إلا على ألفاظ هذه المعاني، وأنها عربية أو مُعربة، وهل نتقبلها أو نردها، ونُثبتها أم ننفيها، ونَنسخُها أو

نَمْسَخها . . . وقد فاتنا أن العربَ أنفسَهم لم يكونوا يعرفون شيئًا يُسمى لغة، إنما كان همُّهم استيعابُ أجزاء البيان في كل ما ينطقون به على أصول الفطرة اللغوية التي يَنشؤون عليها، وقد ضُبطتْ هذه الأصولُ فيما انتهى إلينا من قواعد اللغةِ وما نُقل من ألفاظها، فصار لنا حكمُهم إذا نحن تدبرناها ونفذنا في أسرارها . . .

## صِفاتُ اللغاتِ الراقِية

وليس عندنا –يتابع الرافعي– في وجوه الخطأ اللغوي أكبرُ ولا أعظمُ من أن يَظنَّ امرؤٌ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب، فإن اللغات المُرتقية هي تلك التي تمتاز بوجوهِ تركيبها ونَسق هذه الوجوه فيها، ولا يمكن ألبتّة أن تكون لغة من اللغات ذاتَ وَفر وثروة من الألفاظ إلا أن تدعوَ إلى ذلك وجوهُ أوضاعها وتراكيبها، ولا تجدُ عندنا من الإنكار على مَن يقول بإباحة التّصرّف في تراكيب العربية، ثم التكذيبُ له والإستعظام لما جاء به، إلا كما عندنا من الرد لقول مَن يمنع التصرفَ في مفرداتها –بالتعريب وغير التعريب– ما دامت الحاجة إلى ذلك ماسة، وما دام ذلك لا يُخرجِ اللفظ الموضوعَ عن الشَّبه العربي الذي يجريه في اللغة، ويجعله إليها، ويلحقه بمادتها. فأنت ترى أنه لا ينقصنا من اللغة شيء وهي على ما هي من إحكام الأوضاع والتراكيب والاتساع للمفردات ولو أقبلت كأعناق السَّيل، ولكن ينقص هذه اللغة رجال يعملون ويحسنون إذا عملوا، ويعرفون كيف يتأتى عَملهم إلى الإحسان، وكيف يكون عَملُهم عملاً» .

وفي موضع آخر يرد الرافعي على مروّجي المذاهب الجديدة في اللغة بزعمهم، فيقول: " . . .خَلَف مِن بعدهم خَلفٌ أضاعوا العربيةَ بعربيتَهم، وأفسدوا اللغة بلغتهم ودفعوا الأقلام في أسلوب ما أدري: أَهُو عِبراني إلى العربية أم عربي إلى العبرانية، لا يعرفون غيره ولا يُطيقون سواه، وترى أحدَهم يهوي باللغة إلى الأرض وإنه عند نفسه لطائرٌ بها في طيارة من طِراز "زِبلن" . . . ! وليتهم اقتصروا على هذا في أنفسهم وأنصفوا

منها، بل هم يدعون إلى مَذهبهم ذلك، ويعتدونه المذهب لا مَعدِل عنه، ويسمونه الجديد لا رغبة عن دونه، ويعتبرونه الصحيح لا يَصح إلا هو، وكلهم يعلم أنه ليس بصاحب لغة، ولا هو مَعني بها ولا كان ممن يتسِمون بعلومها؛ ثم ينقلهم هذا العبث إلى آراء كآراء الصغار في الأمور الكبيرة، فيحاولون أن يختلقوا في اللغة فِطرة جديدةً غير تلك الأولى التي وُضعتْ عليها جبلتها، واستقام بها أمرُها، وتحقق إعجاز الفصاحة العربية بخصائصها . ومرجع هذا البلاء كله أن "عَربية الجملة الإنجيلية" تغزو "عربية الجملة القرآنية" من حيث يدري أولئك أو لا يدرون، فما أشبه هذه الأساليب الركيكة في مَقرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن في الجسم الصحيح، يترَبّصُ غَفلةً أو عِلة أو تهاوناً، فيظهر فإذا هو مَشغلة للصحة، ثم يستشري فإذا هو مَفسَدة لها، ثم يَضرب فيتمكن فإذا هو مِزاج جديد، ثم إذا هو الموت بعد !" .

وأسبابُ ضعف الأساليب الكتابيّة عند الرافعي ثلاثة هي:

❖ مستعمرون يَهدمون الأمة في لغتها وآدابها، لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي أمةٌ به. . .

❖ النشأةُ في الأدب على مِثل مَنهج الترجمة في "الجملة الإنجيلية" وتعوج اللسان بها .

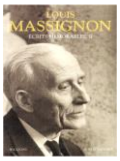
❖ الجهلُ من حيث هو الجهل، أو مِن حيث هو الضّعف، فإنه ليس كل كاتب يبلغ، ولا كل من ارتهنَ نفسَه بصناعةٍ نبغ فيها لأن هو نُسب إليها، وإن عُدّ في طبقةٍ من أهلها . والكتابة صناعة لها أدواتها، وفيها النَّمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك. أَفمِن الرأي –يقول الرافعي– أنْ نعين المستعمرينَ على خصائصنا ومقوماتنا ؟ أو نتخذ في اللغة أدياناً شتى؟ أو نجعل قياسَ العلم من الجهل في بعضه والضعف عن بعضه؟ وإلا فماذا بقي بعد هذه الثلاثة مما يَنفسح له جانبُ العُذر إن نحن قُلنا بمذهب جَديد في اللغة؟

# المبحَث الثالثُ

## دُعاةُ العامِّيةِ وشُبُهاتهم

كانت أولى محاولات الاجانب في المغرب العربي ما دعا اليه المستشرق "ماسينيون" *Louis Massignon (1883-1962)* [210] عندما قال جملته المعروفة: "ان إهمال الإعراب يُيسر تعليمَ اللغة العربية"، في حين نجد مُدرّس الرياضيات الفرنسي تحمَرّ عيناهُ غضباً إذا أخطأ الطالب في لغة المسألة وليس في حلها ! ولا يمكِن ان ننسى مقالة الفرنسيين حين احتلوا الجزائر سنة 1860م: "عليكم أن تتركوا اللغة العربية وان تحاربوها وتتجنبوها ما استطعتم لأنها لغةُ المسلمين" ! وكذلك الحال في المغرب، كان يُمنع على تلاميذ المدارس الأجنبية، حتى اليهود المغاربة منهم– التحدث بالعربية. والأنكى من ذلك أن بعض الكتّاب العَرب وجَدوا صُعوبة في تحاشي عار اللحن، فعَمدوا الى إشاعة العامية في الكتابة، والدعوة إلى نبذ التكلم بالفصحى، يَدفعهم الى ذلك إيمانهم المتزعزع بالموروث الاسلامي وتلوث دمائهم بوباء الشعوبية. وكان من آثار تلك الهجمات الاستعمارية ضَعْفُ شأن العربية في بعض البلاد العربية، وخاصة دول

---

210 

من أشهر مستشرقي فرنسا، كان مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التنصيرية الفرنسية في مصر المغرب. تعلم العربية والتركية والفارسية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة.. وخدم في الجيش الفرنسي خمس سنوات خلال الحرب العالمية الأولى. استهواه التصوف الإسلامي فدرس الحلاّج دراسة مستفيضة، ونشر "ديوان الحلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية، وكذلك "مصطلحات الصوفية" و"أخبار الحلاج" و "الطواسين"، وكتب عن "ابن سبعين" الصوفي الأندلسي...الخ.

الشمال الإفريقي، واتخاذ اللغات الأوروبية وسيلةً لدراسة العلوم والفنون الحديثة فيما يُعرف بمدارس اللغات وفي أغلب الجامعات.

والدعوة إلى العامية -كما يقول الأستاذ الجندي- طُرِحَتْ في نطاق مخططات الاستعمار والتغريب، وهي محاولةُ فرض العامية في البلادِ العربية بديلاً للغة العربية الفصحى. ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها تراثاً ولا أدباً، فقد جرتْ المحاولاتُ لتجميع أَزْجال وأمثال ونكات من هنا وهناك، في محاولة لخلق تُراثٍ يمكن الاعتمادُ عليه في خِداعِ الأمم. وترَكَّزُ هذه الدعوةُ الباطلةُ على القول بأن العامية ليست لهجةً من العربية بل لغة مستقلة.[211]

وكان محمد عبده يقول: "وارتفع صوتي بالدعوة إلى إصلاح أمرين خطيرين أو عظيمين: تحرير الفكر من التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، وإصلاح اللغة العربية".

وفي مقال "نهضة الأقطار العربية" يقول الرافعي:[212]

"والذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان: الدين الإسلامي، واللغة العربية؛ وما عداهما فعسى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن... وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يَقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباسَ التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة..."

وقد كان إصلاحُ اللغة يعني تحريرها من الجمود، وإحياء تراثها بإحياء ثقافتها من جديد، بعد أن فسدت أذواق الناس وجمدت قرائحهم، واستعجمت ألسنتهم،

---

211 "الإسلام والدعوات الهدامة" لأنور الجندي، ص/265، دار الكتّاب اللبناني، 1982م.

212 "وحي القلم"، 3/ 151– 153، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2000م.

ووقعت القطيعة بينهم وبين تاريخهم وتراثهم. ولم يفهم الناس يومئذ معنى أن تكونَ البدايةُ من اللغة هي البداية المنهجية للنهضة، بل مشوا مُكبّين على وجوههم، وظنوا أن البداية للرقي هي في اصطناع الأزياء الجديدة، واستهلاك المصنوعات الغربية الحديثة. إذ كان تصورهم للغة من السذاجة بحيث لم يتجاوز حدود الإدراك العام.

إلا أن الزمن كان كفيلا بأن يُظهر ذلك التناقض الذي ينطوي عليه واقع الأمة العربية يومئذ، إذ بعد مرور عقدين أو ثلاثة من السنين بدأ الصراع اللغوي بين أنصار الفصحى وبين أنصار العامية، بين دعاة القومية الضيقة الذين رأوا منهجَ النهضة في إحياء لغات مُندثِرة أو اصطناع عاميات مُبتذلة، وبين دُعاة اللغة العربية وحُماتها الذين رأوا ألا قومية ولا شخصية إلا في إطار الإسلام والعروبة بالمعنى اللغوي لا العرقي.

وأسهم الأجانب المستعمرون والمنصرون يومئذ في تحريك ذلك الصراع في المغرب والمشرق على حد سواء. واتخذت الدعوةُ إلى العاميات في العالم العربي شكلَ حملة مُنسّقة منذ بداية هذا القرن إلى منتصفه. وأثناء ذلك ظهرتْ الدعوة إلى إلغاء النحو العربي أو إلى تجديده، وإلى إلغاء البلاغة العربية أو تطويرها، وإلى الثورة على الأدب العربي وإلقائه في البحر. والثورة عليٍ كل ماضي الأمة العربية واعتبار الماضي العربي بالنسبة لبعض البلاد العربية مرحلة من الاستعمار والتبعية والانغلاق والسقوط في عصور الظلام. [213]

واتفقت عدةُ أسماء في المشرق العربي -في مصر والشام خاصة- على محاربة الفُصْحى وتشجيع العامية حتى تكون لغة الكتابة والخِطاب معاً كما زعموا.

---

213 بتصرف من كتاب "الصراع بين القديم والجديد في الادب العربي الحديث"،2/ 765 وما بعدها، الدكتور محمد الكتّاني، دار الثقافة، الدر البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1982م.

وأبرز الدعاة هم: [214]

1- (فلهلم سْپيتّا) *Wilhelm Spitta* (1818م – 1883 م) وهو مستشرق ألماني، عمِل مديراً للمكتبة الخديوية في القاهرة (دار الكتب المصرية اليوم)، لعشر سنوات. نشر "سبيتا" عام 1880م كتابه: "في قواعد اللغة العامية القاهرية"، وهو أول محاولةٍ للترويج للهجات العامية العربية، ودعوة صريحة لاستخدام العامية في الكتابة بديلاً عن الفصحى، ووضع طريقة لكتابتها بالحروف اللاتينية، كما ألف «لهجات المصريين العامية». وكانت محاولاتُ "سبيتا" مقدمةً لسلسلةٍ من الكتابات اضطلع بها عدد من المستشرقين الأوروبيين وموظفي إدارة الاحتلال البريطاني في مصر، وكثير من المتغربين العَرب لوضع أُسُس مَنهجية للكتابة بالعامية، كانت أكثرها تأثيراً أعمال مُهندس الري البريطاني، "ولكُوكس" الآتي ذِكره.

---

214 لمعرفة تفاصيل هذه الدعوة وتاريخها ومخاطرها ودعاتها، يُنظر المراجع التالية:
- "تحت راية القرآن" للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ص/ 34 وما بعدها .
- "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر"، د .محمد محمد حسين – دار الإرشاد – بيروت –1970م.
- "حصوننا مهددة من داخلها"، د . محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت – ط 7 1402هـ .
- "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر"، د . نفوسة زكريا – دار الثقافة بالإسكندرية – 1964م.
قال محمود شاكر: "لو كان الامر بيدي لعملتُ له مختصراً ثم لطبعت منة نسخا كثيرة ليكون في يد كل مثقف
- "الفصحى لغة القرآن" للأستاذ أنور الجندي، وخاصة فصل: (اللغة العربية في مواجهة التحديات 19-44، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة 1982م.
- "الإسلام والدعوات الهدامة" لأنور الجندي، فصلا: (الشعوبية) و(الدعوة إلى العامية)، دار الكتاب. .
- و"بحوث ومقالات في اللغة" رمضان عبد التواب، (الباب الرابع: في تاريخ العربية، الفصل الأول: الفصحى وتحديات العصر)، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة سنة 1415هـ-1995م.

2- وليم ولكوكس *William Willcocks* [215]

كان رأسَ الداعينَ وأشدَّهم وقاحةً، ترجم الإنجيلَ للهجة المصرية، وكان من أول الدعاة لتبنيها بدلاً عن العربية الفصحى في مصرٍ لغة للكتابة والقراءة، إضافة لكونها لغةً للتخاطب. ترجمَ أجزاءً من "التوراة" وعددا من مسرحيات شكسبير إلى العامية المصرية وأصدرَ كتاباً عن الصحة العامة بعنوان "الأكل والإيمان". كما ألّف كتاب "جَنَة عَدْن"، زعمَ فيه أن جنة عَدن المذكورة في الكتب المقدسة موجودةٌ في العراق حيث يلتقي نهرا دِجلة والفرات. وضمَّنَ دعوته هذه عملين مشهورين له:

الأول: محاضرة سنة 1893م بعنوان: "لماذا لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟"، ودارت حول فكرة أساسية مؤداها: أن سبب عدم وجود الاختراع لدى المصريين "هو استخدام اللغة العربية الفصحى في الكتابة والقراءة، ويَنصحهم بنَبَذ هذه اللغة الصعبة الجامدة، واتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي". والثاني: رسالة بالإنجليزية بعنوان:*(Syria, Egypt, North Africa, and Malta Speak Punic not Arabic)*

أي: "سوريا ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية".

وفي رسالته هذه التي نشرها سنة 1936م زعم أن اللغة التي يتكلمها الناس من حلب إلى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو البونية، وخص مصر بالبونية؛ لأن كلمة *Punic* تشبه كلمة *Fenic* التي كان يطلقها قدماء المصريين على الفينيقيين، كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى؛ فقد دخلت مصرَ قبل أن تدخلها العربية الفصحى بألفي سنة،

---

215  وليم ولكوكس (1852 . 1932) مهندس ري إنجليزي، وفد إلى مصر سنة 1883 في أول عهد الاحتلال البريطاني لمصر. عمل في مصر والعراق وتركيا في إنشاء قطاع الري. أنشأ في مصر سدة أسوان و في العراق سدة الهندية.

وأنها انحدرت إلينا من "الهكسوس" الذين أقاموا في مصر نحو خمسمائة سنة، وانتشرت لغتهم في أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة.

ويعود فيُهاجم العربية الفصحى بضراوة، فهي في رأيه "لُغة مُصطنعةٌ يتعلمها المصري كلغة أجنبية ثقيلة في كل شيء، وإن وصلَتْ إلى الرأس، فهي لا تصل أبدًا إلى القلب، تقف عقبة في سبيل تقدُّم المصريين، دراستها نوع من السُّخرة العَقلية، حالت بين المصريِّين وبين الابتكار، قضت على الطلبة النابهين من المصريين الذين كان يُرجى منهم كثير، وأدَّت صعوبة فهمها إلى حدوث بعضِ الكوارث التي شاهدَها أثناء إقامته في مصر. دراستُها مَضيَعة للوقت، وموتها محقَّقٌ كما ماتت اللاتينية. ويلحُّ على دعوته بأن تحل العامية مَحل الفصحى، وأن يعمَّم التعليمُ بها في كل المدارس، وحدَّد مدة هذا التعليم بعشر سنوات، رأى أنها كفيلة بتخليص المصريِّين من السُّخرة الثقيلة التي يُعانونها مكن جراء الكتابة بالعربية الفصحى. ولكي يؤكِّد دعوته بالتمكين للعامية على حساب العربية ترجم مِن الإنجليزية إلى العامية المصرية نصوصًا من بعض روايات شكسبير، كما ترجم الإنجيل إلى العامية المصرية. وألَّف بالعامية المصرية سنة 1929م كتاب "الأكل والإيمان" حاول فيه أن يُدخل العامية في نماذج عِلمية.

3- (كارل فولرز) *Karl Vollers* (1857 . 1909)

وهو مستشرق ألماني تولى إدارة المكتبة الخديوية بالقاهرة في أواخر القرن التاسع عشر. ألف كتاب "اللهجة العامية الحديثة في مصر".

4- (سلامة موسى/ 1887- 1958م)، مِصري قبطي ماركسي المذهب، وهو رائد الاشتراكية المصرية ومن أول المروّجين لأفكارها، ومعروف بتبعيته المطلقة للغرب. وكتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية"، شن فيه حملةً حاقدة على الفصحى والقيم العربية الاسلامية... فهو يشير في بداية كتابه إلى أن التأخر اللغوي في مصر أحد أسباب التأخر الاجتماعي، فاللغة حينما تحرم أبناءها كلمات الثقافة العصرية (يقصد:

الموجودة في اللغات الأوروبية المتقدمة صناعيا) إنما تحرم المجتمع من المعيشة العصرية! وكأن الدول تتقدم بمجرد احتوائها على كثرة المفردات!!

وبعدما نشر سلامة كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية" سنة 1945م أكد الأستاذ العقاد أن سلامة "أثبت شيئًا هاما؛ هو أنه غير عربي"، ثم قال عنه "إنه الكاتب الذي يكتب ليحقد، ويحقد ليكتب، ويدين بالمذاهب ليربح منها"، ثم قال: "إن العلماء يحسبونه على الأدباء والأدباء يحسبونه على العلماء، لهذا فهو "المنبَتُّ" الذي لا عِلماً قطع ولا أدباً أبقى". كما عاب الأستاذ العقاد على الماركسيين دعوتهم إلى العامية وعدَّها من رذائلهم، فردّ عليه سلامة موسى بأنهم شعبيون ومستقبليون، يحترمهم الشعب لأنهم يخاطبونهم بلغة عصرية! ويرى بأن العقاد –والغالبية العظمى من الكتاب– "سلفي الذهن في لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه، وكان عليه أن يكتب عن زعيم النهضة الصناعية "هنري فورد" بدل الحديث عن معاوية بن أبي سفيان وحسان بن ثابت رضي الله عنهما! [216]

ويرى موسى بأن المجتمع المصري مليء بالكفاءات العلمية المختلفة لكنهم غير قادرين على أن يقدموا بلغتهم سطرا واحدا للعلم، ويكتبون بدلا عن ذلك باللغة الإنجليزية، مما أسهم في توقف المجتمع عن تحقيق أي نهضة، وأصبح الشعب يؤمن فقط بالغيبيات والخرافات لأن المصريين قدسوا لغتهم ولم يجرؤوا على تغييرها أو تطويرها، وبهذا لم تعد في نظر موسى أداة اجتماعية ووسيلة للتفاهم. ولذلك يشيد بأحمد أمين وقاسم أمين اللذين طالبا بإلغاء الإعراب، وبعبد العزيز فهمي الذي نادى بكتابة العربية بالأحرف اللاتينية. [217] ورأى هو بأنها ضرورة حتمية للتقدم كما فعلت تركيا من

216 "البلاغة العصرية واللغة العربية" ص/8-12، بتصرف، دار سلامة موسى للنشر والتوزيع، 1964م

217 السابق، ص/ 117 بتصرف كبير..

قبل، حين جعلت بينها وبين الماضي قطيعة، مما سهل لها –في زعمه– طريق الرقي واللحاق بأوروبا التي يمجد كل شيء فيها، ويدعو الشرقيين –من بداية الكتاب إلى آخره– إلى وجوب تقليدها المطلق، يقول: "فلنولِ وجهنا شَطر أوروبا . ." "ليس للإنسانِ في هذا الكون ما يعتمد عليه سوى عقله، وأن يأخذ الإنسان مصيره بيده ويتسلط على القدَرِ بدلاً من أن يخضع له" . [218]

5– (لويس عوض/ 1915 – 1990) مصري قبطي، رئيس قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة سابقاً . ألف ديوان "بلوتو لاند وقصائد أخرى"، دعا فيه إلى تحطيم عمود الشعرِ العربي وكسر رقبة البلاغة، وزعم موتَ الشّعر العربي. ومن كتبه التي أثارت جدلاً واسعا "مقدمة في فقه اللغة العربية"، وقد اتهمه بعض النقاد والقراء بأنه هدف من خلال كتابه تزوير تاريخ العربية والتهجم على الإسلام، فهو يرى ان كل مسح اثنولوجي لمصر والمصريين الناطقين بالعربية يوضح بأنهم ينتمون أساسا إلى مجموعات اثنولوجية مختلفة عن المجموعات العربية بالإضافة إلى اختلافهم السلالي عن العرب. . . فسُحب الكتاب من السوق المصري بعد نشره. وناقش الأستاذ محمود شاكر آراء لويس ونقدها في كتابه "أباطيل وأسمار"، وردّ على كثير من شبهاته.

6– (أنيس فريحة/ 1903–1993)

ماروني لبناني، دكتور في الفلسفة، واستاذ سابق في الجامعة الامريكية وباحث فلكلوري. ألف كتباً عن العربية منها: "نحو عربية ميسّرة" و "في اللغة العربية ومشكلاتها" و"الخط العربي– نشأته ومشكلاته" و"تبسيط قواعد اللغة العربية". وله مقال في "مجلة الأبحاث" البيروتية عنوانه: "هذا الصرف وهذا النحو: أمَا لهذا الليل من آخر؟". ويعتبر "فريحة" أن علم اللغة الحديث لا يعترف –في المجال اللغوي–

---

[218] "اليوم والغد"، ص 241، المطبعة العصرية، القاهرة، 1927م.

بسلطةٍ سوى سلطةِ الشعب، فلا فضل لقرن على قرن، ما يقوله الناس وما يكتبه الناس هو الصحيح، وما سوى ذلك قضية تاريخية سياسية دينية. وإذا كان صرف العامية ونحوها يختلفان عن العربية، فليس معنى ذلك ان العامية خطأً أو رديئة أو لغة رديئة! ولا اعتبار عند فريحة للكتابة وقواعدها، وانما الاعتبار للفظ، لان الكتابة ليست من جوهر اللغة، بل هي عَرَض. ويرى ان الحرف العربي من أَعْقَد مشاكل اللغة. [219]

7- (أحمد لطفي السيد (1872-1963م):

عمل وزيرًا للمعارف ثم للداخلية، ورئيسًا لدار الكتب، ومديرًا للجامعة المصرية، ويعتبر من قادة التنوير في مصر في القرن العشرين، ولقب بأستاذ الجيل، كما كان رئيس المجمع اللغوي المصري لأكثر من ثلاثين عاما، وهو صاحب دعوات: تمصير القانون، وتمصير اللغة وتمصير الأدب. وهذا من أغرب العجائب أن يدعو رئيس مجمع يهتم باللغة العربية الفصحى وآدابها ويحميها إلى إحلال العامية المصرية مكانها!

8- (قاسم أمين) أعلن ضرورة ترك الإعراب وتسكين أواخر الكلمات، كما رأينا..

9- عبد العزيز فهمي (1870-1951):

وهو قاض ومُحام وشاعِرٌ مِصْري، مِنْ أَبرَز رجال الفِكْر والسّياسةِ المصريين في القَرن العِشرينٍ، ومن قادة التنويرين أيضا. توَلَى رئَاسة حِزْبِ الأَحْرَار الدُّسْتوريّين.. قدّمَ مشروعا إلى المجمع اللغوي لاستخدام الحرف اللاتيني محَل العربي. وألف كتابا سماه: "الحروف اللاتينية لكتابة العربية". وقد ظهَرَتْ فِكرَةُ استِبدَال الحُرُوفِ العَرَبِيةِ بأُخرَى لَاتِينية، عَلَى يَدِ «داود الجلبي»، غَيْرَ أنها تَبلَورَتْ بِشَكلٍ أَكْثَرَ دِقّةٍ لَدَى «عبد العزيز

219 "نظرات في اللغة"، ص/52-35، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية 1984م.

فهمي» الَّذِي بَاتَ مُقتَنِعًا بِرَأْيِهِ وَمُتَمَسِّكًا بِحَقِّ فِكرَتِهِ فِي الحَيَاةِ وَالِاستِمرَار؛ لِذَا خَاضَ العَدِيدَ مِنَ المَعَارِكِ الفِكرِيةِ مَعَ أُدَبَاءِ وَمُفَكِّرِي عَصرِهِ؛ بُغيَةَ الِانتِصَارِ لِحُرُوفِهِ اللَّاتِينية.

## وَسَائِلُ محارَبَة العَرِبية الفُصْحى

- الاستشراق ومشاريعه. فقد أقبل المستشرقون على دراسة لغة المسلمين وأعلنوا هجومهم على اللغة العربية بتلفيق الشبهات حول أصالتها فى التاريخ القديم والعصور العربية الأخرى، كما اتهموها فى العصر الحديث بأنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي. بل ادعى بعضهم ان العربية لغة ميتة، مثل اللغة اللاتينية اليوم في أوروبا، وبأنها لغة دينية أي تستخدم في المجال الدينى فقط، ولكنها لا تصلح لغة للحديث والكتابة والابتكار تشبيها لها ببعض اللغات الدينية القديمة كالسريانية وغيرها . .[220]
- الاهتمام بالمأثورات والآداب الشعبية القديمة (الفلكلور).
- بعض برامج الإذاعة والتلفزة والسينما والصحافة وهي منتشرة اليوم بكثرة.
- إزاحة الفصحى عن التعليم وفرض لغة المحتل، ثم الدعوة إلى العامية أثناء وبعيد الاستعمار.
- وفي مصر إحلال نظام "دنلوب" *Douglas Dunlop* (1861 - 1937) في التعليم وإقصاء الأزهر واحتقار لغته وقياداته. ودنلوب هذا منصر اسكتلندي، عينه اللورد كرومر *Cromer* – المراقب العام البريطاني في مصر خلال عام 1879– مستشارًا لوزارة المعارف.

---

[220] "آثار الفكر الاستشراقي فى المجتمعات الإسلامية"، ص/ 119،محمد خليفة حسن ، ط1.

وضع هذا المنصر في مصر نظامًا تعليميًا نسب اليه، خدمة لأهداف الاحتلال البريطاني، ويعد "واضع المخطط الأساسي لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام عن برامج التعليم في المدرسة المصرية، باعتبار أن التعليم والتربية لها أكبر الأثر في مخطط التغريب والشعوبية والتبشير والاستشراق إن لم تكن هي جوهر هدف الاستعمار الأساسي.

إن خلق طبقة من المتفرنجة الذين ينكرون الدين والخلق معًا (الإلحاد والإباحية) هو عمل أساسي، فعلى هؤلاء يعتمد الاستعمار مستقبلاً في تنفيذ مخططه، وتكوين ركائزه التي يعتمد عليها بعد جلاء القوات المحتلة. وقد قام دنلوب بدور كبير في تعميق مخطط التغريب وهدم مقومات الفكر الإسلامي، وكان أبرز ما عمل له: نزع اعتقاد الشباب المسلم في القرآن وكان مذهبه: "متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة" . [221]

وعدّ الوطنيون المصريون نظام "دنلوب" هذا معرقلًا لتقدم البلاد في مجال التعليم. فأطيح بصاحبه بعد سنة 1920، في أعقاب ثورة 1919.

• تشجيع حكومات الاحتلال إنشاء جرائد باللهجة الدارجة فبلغت في عام واحد سبع عشرة جريدة.

• دراسة عامية البلدان الإسلامية فظهر من الدراسات:

* دراسة عامية مصر لـ:كارلو نلّينو *Carlo Nallino* (1872. 1938م) المستشرقُ الإيطاليُّ، وهو لغويٌّ فلكيٌّ مؤرِّخٌ جغرافيٌّ، له اهتمامٌ واسعٌ باللّغة العربيَّة وعلم الفلك

---

221 "أعلام وأقزام في ميزان الإسلام"، 429/2 وما بعدها، سيد حسين العفاني، الناشر: دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة – السعودية، الطبعة: الأولى 2004 م.

العربيِّ، وتاريخ اليمن القديم ولهجاته، والمذاهب الدِّينية الإسلاميَّة. وابنته هي المستشْرقة "ماريا نلينو".

* دراسة عامية مصر والشام وفلسطين "لفيليب وولف".

* دراسة عامية المغرب وتونس لبعض الفرنسين برئاسة **Louis Machuel** (ت/1922)

* اتخاذ المجامع اللغوية بوابة لتمرير مخططات تدمير الفصحى ممن ملكوا زمامها طويلا.

وقد انتقل التغريب الثقافي إلى قلب الجزيرة العربية. يقول الدكتور محمد محمد حسين: "حين زرتُ جامعة الرياض بدعوة منها في ربيع الأول 1395 هج (إبريل 1975 م) وجدت قسم اللغة العربية يُعد لإنشاء معمل للأصوات ولدراسة اللهجات العامية، ووجدت بين منشورات الجامعة كتاباً لمستشرق بريطاني في لهجات شرق الجزيرة العربية، قامت الجامعة بترجمته ونشره بعد أن استضافت مؤلفه. وأخذتني المفاجأة حين رأيت الداء يمتد إلى مهد العربية ومنبع الإسلام. ثم تبين لي أن من وراء هذه المشاريع أحد الذين عادوا من إنجلترا مبعوثاً من قسم اللغة العربية، فوجهه أساتذته هناك لدراسة اللهجات العامية، على نحو ما حدث في مصر، وسيحدث ويتكرر فيها وفي غيرها من بلاد العرب إذا لم يتنبه المسلمون للخطر. فإذا كنا نحن العرب نعمل على دراسة اللهجات الاقليمية التي لا يجتمع عليها العرب، ونخطط بأيدينا لتطوير اللغة التي حفظها القرآن الكريم وحُفِظ فيها، وجمع عليها المسلمين وجمعتهم عليه منذ نزل به الوحي إلى يومنا هذا، فمن العبث أن نعمل على نشرها في بلاد المسلمين، لتكون اللغة الموحدة الجامعة لشملهم، والمؤكدة لوحدة أمتهم، لأننا حينذاك لا ندري على أي عربية نوحدهم، على العربية الكلاسيكية كما يحلو لبعض دعاة التطوير أن يسميها، أم على العربية العصرية التي يرون ابتداعها؟ وعلى العربية الفصحى، أم على لهجة

من لهجاتها المتعددة التي يحتفي كل بلد من بلد العرب بالعناية بها وإبراز محاسنها، والاحتفال بتراثها، بزعم أنه تراث قومي، أو أدب شعبي. . . ". [222]

وعن أصحاب الدعوات الهدامة التي تروم تبخيس منزلة العربية الفصحى وتهوينها في نفوس المتحدثين بها، وأسباب ذلك، يقول الدكتور محمد حسين: (ص/204)

" إن أصحاب هذه الدعوات خطَوا خطوة جديدة في السنوات الأخيرة، في محاولة لا تريد أن تعيد النظر في قواعد اللغة العربية، نحوها وصرفِها فحسب، ولكنها تريد أن تطوي كل ما كتبه العرب في هذا الصدد، لتطَبّق أساليب أُخرى جديدة في دراسة اللغة العربية منقولةٍ عما يحاوله بعض دارسي اللّغات الغربيين فيما يسمونه ( *General Linguistics*) أو "علم اللغة العام"، كما يَدْعون إلى إدخال الدراسات الصوتية التي يسميها الغربيون (*Phonetics*) وهي فرع من دراسات علم اللغة العام عند الغربيين. واللغة في هذه الدراسات أصوات تؤدي وظيفة اجتماعية. وهي في عُرفهم ما يتكلمه الناس في واقع حياتهم اليومية، لا ما يجب أن يتكلموه في أدبهم المدون المكتوب. وهم من أجل ذلك لا يفرّقون بين فصيح وعامي. والدراسات التي يشتمل عليها علم اللغة العام بكل فروعه، ومنها الدراسات الصوتية، دراسات ناشئة عند الغرب لم تستقر بعد . ومصطلحاتها الأساسية غير متفق عليها بين المشتغلين بها . ولا تزال مفاهيم هذه المصطلحات ومعانيها مختلفة بين بلد وآخر. والمدارس الأوربية والأمريكية لا تزال قانعة باتباع النظم التقليدية المستقرة في تعلم اللغات، لا تلقي بالاً إلى ما يقوله المشتغلون بهذه الدراسات وما يدعون إليه من مفاهيم وأساليب جديدة في دراسة اللغات. ولا تزال اللغة الأدبية الفصيحة عندهم هي المخصوصة بالدراسة، لا يلتفتون

---

222 "حصوننا مهددة من داخلها"، ص/199، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثامنة، 1983 م.

إلى ما يدعو إليه المشتغلون بعلم اللغة من التسوية بين اللغات واللهجات، وإن كانوا – على عادتهم – يفسحون المجال لكل تجربة جديدة. . . ".

## الفُصْحَى بَين الجُمُودِ والتَّحَرُّر [223]

إن للعربية الفصحى وَضعاً لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم، لارتباطها بالقرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا، ودُوّن بها التراث العربي الضخم الذي كان القرآنُ الكريم مِحْورَه في كثير من مظاهره. وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ولولا ذلك لأمست الفصحى لغة أثريّة، تشبه اللاتينية أو السَنسكريتيّة، ولسادت اللهجات العربية المختلفة، وازدادت على مر الزمان بُعداً عن الأصل الذي انسلختْ منه.

وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادي به بعض الغافلين –عن حُسن نية، أو سوئها أحيانا– مِن ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى لكي تتفاعل مع العاميات، تأخذ منها وتُعطي، كما يحدث في اللغات كلها . وهذا هو السر الذي يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى بما يحدث في اللغات الحية المعاصرة، فأقصى عُمر هذه اللغات في شكلها الحاضر لا يتعدى قرنينٍ من الزمان، فهي دائمة التطور والتغير، وعُرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة –أخْذاً وعطاءً– ولا تجد في كل ذلك حَرجا؛ لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب كريم، كما هي الحال في العربية. ولكن ليس معنى هذا أن العربية الفصحى لغة جامدة، تحجرت عبر عصور بادت، مع أن طابع الحياة التجدد والتغير في كل المجالات. .

---

[223] بتصرف من: "بحوث ومقالات في اللغة"، مرجع سابق، ص/179 وما بعدها .

إن الفصحى تحمل في طبيعة تكوينها عُنصر التجدد والحياة، إن أفاد أهلها من منهجها العظيم في القياس، والاشتقاق، والنحت، والتعريب. فلا حَجر على مستخدم الفصحى، يصوغ جملا عربية، تشبه في نظامها جمل العرب، في موقع مفرداتها، وأبنية كلماتها، ودلالة ألفاظها، وإن لم تكن تلك الجمل بعينها مما قاله العرب. وقد عقد ابن جني في "الخصائص" فصلاً ذهب فيه إلى أن "ما قِيس على كلام العَرب فهو مِن كلام العَرب". اي "الاشتقاق الأصغر.

## قضيةُ التربية والتعليم في بلادنا

والحديثُ عن اللغة وما آلت إليه يدعونا ضرورة –ولو في عُجالةٍ – إلى الحديث عن بعضِ قضايا التربية والتعليم والبحث العلمي، لأن هذه الأمور من دَعائم نهضةِ الأُمَم ومن رموز رُقيّها، فهي توليها غاية اهتمامها وتغدِق عليها بغير حِساب!

بالعِلمِ والمال يَبْني الناسُ مُلكهمُ     لم يُبْنَ مُلكٌ على جَهْلٍ وإقلال

لكنّ حال التربية والتعليم في بلادنا اليوم –بنَوعيْه العام والخاص، وبجميع مستوياتهما– لا يَسرّ ولا يُبشّر بخير، وحال المعلمينَ والمتعلمِين –على حَد سَواء– في انحدار مُستمر يشبه التردي، وسَقام يُشبه النزيفَ، وأغلبُ محاولاتِ الإصلاح التي جرَّبها الوُصاةُ على التعليم باءتْ بالفشل، لأنها مُسْتوحاةٌ من بيئاتٍ غريبَة عنا، وغيرُ نابعَة –في مجملها– من رغباتِ وملحُوظاتِ وطموح المدرسةِ والإدارة ووُلاة الأمور، ولا تراعي في كثير من نواحيها خصائصَ بلدنا ومقوماته الدينية والسكانية والجغرافية والثقافية... هذا فضلاً عن الجشع الذي يُسيطر على المسؤولين عن الكُتب المدرسية و الجامعية بحيث يُثقلون كاهل الطالب ووليّ أمره بكتب ومطبوعات لو وُزنت أحياناً بميزان الإنصاف لأُتلفَ أكثرُها، ولاكتُفي بالقليل المُفيدِ منها. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾. فالعبرةُ ليستْ بكثرة

المَطبوعات وتَنوّعها، وليستْ في تغيير شَكلها وزُخْرُفها وعُنوانها من حين لآخر، بل العبرةُ بجدوى هذه المُقرّرات الدراسية نفسها، وما يُنتظر أن تحققه على المستويين القريب والبعيد.

أما وَضعُ التعليم الخاصّ في بلادنا فتلك ثالثَةُ الأثافِيّ! لأن غايةَ أصحابه الربحُ السريعُ في أكثر الأحيان، ولا مُنكِرَ ولا رَقيب! والمُشرفون على التربية والتعليم والتسيير في هذه المؤسسات "التجارية" -في جُملتهم- لم يتخرّجوا في مراكز التكوين، أو لا صلة لهم بالتّدريس! فلو نظرنا إلى مُعلمي العربية -مثلاً- لوجدنا مَعرفتهم بمواد النَّحو والصَّرف والإملاء والتعبير تدعو إلى الرثاء لضَعفهم المُخزي فيها! وقل مثل ذلك في سائر الموادّ. وهذه قاصِمَةُ الدهر -وليس الظَّهر- فكبِّرْ على حال التعليمِ الخاص - والعام- في ديارنا أربعاً و"أَقِمْ عليه مَأْتماً وعَويلاً"!

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتقى  طبيبٌ يُداوي النّاسَ وَهْوَ عَليلُ

لذلك حينما تُطرح قضية التعليم في المنتديات الخاصة أو العامة، تتعالى الشكاوى من كل جانب، ويُشار بأصابع الاتهام إلى هذه الجهة أو إلى تلك، وتختلف وجهات النظر، وتتضارب الآراء، ويَكثُر اللغط، ولكن الناس مُجمِعون -أو يكادون- على أن الخَرْق قد اتّسع على الراقِع! وأن الآسي عاجزٌ عن تشخيص الداء ووَصْف الدواء، وأن أساس البناء على شفا جُرف، فكيف يصحّ البناءُ وأنّى يَستقر؟ بل "متى يبلغ تمامَه إذا كنا نَبنيه وغيرُنا يَهدِم"؟

متى يستقيمُ الظل والعودُ أعوجُ  وهلْ ذَهَبٌ صِرفٌ يساويهِ بَهرجُ؟
ومنْ رامَ إخراجَ الزكاةِ ولم يجدْ  نِصاباً يُزكيه، فمِنْ أينَ يُخرجُ؟

## التعليم الأولي: آلام وآمال

وهناك قضيةٌ خطيرةٌ أخرى يَنبغي التنبيه إليها، وهي تَعليمُ لغاتٍ أجنبيةٍ لأطفال "الروْض" والمستوياتِ الأولى من التعليم الابتدائي، وهم لم يستطيعوا بعدُ الحديثَ بلغتهم الأم، بَلْهَ أن يتقنوها! وإذا كان تعلّمُ اللغاتِ ضروريا، كما قال صَفِيُّ الدينِ الحِلي:

بقَدْرِ لغاتِ المَرْءِ يكْثُرُ نَفْعُه وتلكَ له عندَ الشّدائدِ أعْوانُ
فبادِرْ إلى حِفظِ اللغاتِ وفهمِها فكلُّ لِسانٍ بالحقيقةِ إنسانُ

فإنّ إجْبارَ أطفال في سن الزهور –لا يُتقنون حتى الأبجدية العربية– على مَعرفة لُغة أجنبيَةٍ جُرْم في حَقهم، لأنّ اللغة وعاءُ الفكرِ حيثُ تحملُ هوية الأمة التي تنتسبُ إليها، وهي من مقومات استقلالها وصورة وجودها بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها. وتعلمُ اللغات –وإن كان ضروريا في كل زمن– لا يصبح مفيداً إلا بعد نُضج العقل وإتقان اللغة الأصلية.

وإنّ من الظلمَ كذلكَ أن يُعامل براعمُ الأُمّة كالكبار فيُواجَهوا باختبَاراتٍ دورية، تَقذفُ في قلوبهم رُعبَ الامتحان وهمْ في عُمر البراءة! –وقد اتجهتْ كثيرٌ من الدول الراقية اليومَ إلى إلغاء الاختبارَات في مراحل التعليم الأولى كلها– والأجدر بهذه الفئة أن يُفسحَ لها في اللعب الهادف، أو التعلم بالتسلية *(Apprendre en s'amusant)*، والتدرّج في التحصيل؛ وعدم حَشو أذهانهم بمعلوماتٍ لا تجديهم نفعاً في عاجل تكوينهم على الأقل، وينبغي عوضاً عن ذلك تلوينُ طرقِ التربية والتلقين، باختيار مُربين متمرسين لهذه الغاية؛ ويُبذل لتحقيق هذا الهدف كل غال ونفيس، فاختيارُ البذور والتربة الصالحة ينتج بعون الله أحسنَ النبات، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ... ﴾. فيُركزُ في بداية هذا الطور من التكوين –في نظري– على أمرين:

۞ أولهما: النُّطق السليمُ، وتجويدُ المحادثة بالعربية الفصيحة، حتى يكتسب أبناؤنا – منذ نعومة أظفارهم– القدرة على التواصل مع المحيطين بهم، وعلى المربّينَ تزْويدهم

مَهارِاتِ التَّعبير والتَّخاطُب، وبالتَّدرُّب والمُمارسة تَغدو عندهم مَلَكَةً مُتقرِّرة، لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر- كما قيل- وغيابُ هذه الملَكة عند أبنائِنا من أسباب فشلهم في التواصُل مع غيرهم، أو في التعبير عن رَغباتهم، وينمو معهم هذا الداءُ العُضال -كما هو مُشاهد- حتى في مَراحل متقدمة من طلب العلم، بل وفي حياتهم كلها ! !

۞ ثانيهما: تعويدُ المتعلّمين أساليب الكتابة الصحيحة، مع تحسين الخَط، فهي -وان كانت غاية مُهمة نبيلة- لكنها مرحلة تالية. واليومَ تساعدُ الوسائل الحديثة كثيراً على انجاز هذه المهمة.

## التعليم الجامعي: الأهداف والنتائج

أما بالنسبة للتعليم الجامعي، فإن تجربتي في مَيدان التدريسِ والإشراف على البُحوث ومُناقشاتها -التي امتدت ثلاثة عُقود- كشفتْ لي عُيوباً في مَناهج كثيرٍ من المواد الجامعية ومُقرراتها وفي طرق تدريسها، لعلّ في مقدمتها التركيزَ على وَفرة المواد، وتكرار بعض المحاور المدروسة، وإهمال محاور أو مواد أخرى وثيقة الصلة بطبيعة المسلك وتوجهه العام (فوضى التخطيط)، هذا فضلا عن طغيان الجوانب النّظرية، والتركيز كثيراً على الحِفظ، وإغفال -أو لِنَقل نَبذ- التدرُّجَ في التّحصيل، وجانبَ التطبيق، والاهتمام بالمكتبة -التي أضحتْ خاوية على عروشها تشكو قلة الزوار- والاستفادة من أساليب البحث الحديثة، وإشراكَ الطلبةِ في البحثِ والمناقشة، وتزويدهم مَنهجية تلخيصِ الدُّروس واستخلاص العِبر والفوائد منها . .

أما التركيز على الحفظ وحده في التلقي والتعليم فداءٌ قديم فيما يبدو عند أهل المغرب، كما بيَّن ذلك العلامةُ عبد الرحمن بن خلدون (ت/808 هـ) وهو يتحدث عن مَلَكة التّعليم والتعلّم، يقول: "وأيسرُ طُرق هذه الملكة فتقُ اللّسان بالمُحاورة والمُناظرة في المسائل العلميّة، فهو الذي يُقرّب شأنها ويحصّل مَرامها . فتجدُ طالبَ العلم منهم

(أهل المغرب) بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سُكوتاً لا يَنطقون، ولا يُفاوضون، وعنايَتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يَحصلون على طائل من مَلكة التّصرّف في العلم والتّعليم. ثمّ بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصّل تجدُ مَلَكَتَه قاصرةً في عِلمه إن فاوضَ أو ناظرَ أو عَلّم، وما أتاهم القُصور إلّا من قِبل التّعليم وانقطاعِ سَنَده، وإلّا فحفظُهم أبلغ من حِفظ سواهم لِشدّة عنايتهم به، وظنّهم أنّه المقصودُ من المَلَكةِ العلميّة وليس كذلك". [224]

وإن تَعْجبْ فعَجبٌ عَدمُ إدراجِ بَعض مواد العربية في مَناهج كليةٍ تُعنى بالدراسات القرآنية كأصول الدينِ، ومنها فِقه اللغة والبلاغة! وقد أجمعَ علماءُ الأمة أنَّ وجهَ إعجاز القرآن الأَبْرزِ هو لسانه العربي المبين، ونَظْمُه الفريدُ، وبلاغتُه التي بَهرتْ العقولَ وأخْرَستْ أربابَ الفصاحة من "الإنس والجن"! وكان بعضُ طلاب "كلية أصول الدين بتطوان" يَشهدون معي دروسَ البلاغة وفقه اللغة، ومنهم أفارقةٌ يُواظِبون على حُضورها، وكنْتُ أهديتُ ثلةً مِنهم كُتباً في البلاغةِ والأدب، تقديراً لحبهم لغة القرآن، وعنايتِهم بالأدب العربي وعلوم اللسان..

إن طلابنا يَفتقرون -في المقام الأول- إلى أدواتِ الدَّرس والبَحث الأساسية النافِعة، ولا يُتدارَك ذلك بداية -في نظري- إلا بتحقيق مَطلبَين هامَّين على الأقل:

✿ أوّلهما: الاستمساك بعُرْوَة اللغة الوُثْقى التي انفِصامَ لَهَا، فهي عُدّة كل مُتعَلّم، إذْ لا يَتم تحصيل إلا بها، ولا يقوم سوق العِلم والأدَب والفِكر إلا بسَبيلها. إنها كالشّمس للدّنيا وكالماء للحياة.

✿ وثانيهما: وُجودُ نُصوص دِراسية مُنْتقَاةٍ من حِقَب مختلفة، ومَدارسَ فكرية وأدبية مُتنوعة، شريطةَ أن تكونَ وافِية بالغرض، واضحةَ الأهدافِ شكلاً ومَضموناً،

225 "مقدمة تاريخ ابن خلدون"، ص/545.

مُستجيبةً لمَدارك المتعلّمينَ، ثم يُعوّدُ الطّلابُ -بمعونة مُدرّسيهم- استدامَة النّظر في هذه النُّصوص، حِفظاً وفهماً ومُدارسَةً ومُراجعة وتحليلاً، وبحثاً عما يشاكلها في بطون الكتُب، ومحاولة النَّسج علي منوالها .

وكان جيلُنا قد عَرفَ شيئًا من ذلكَ، حيث كنّا نحفَظ كُثيراً من نصوص القراءة -في المستويات الابتدائية وبعض الإعدادية على الأقل- لكثرة مُطالعتها وقراءتها بصَوْتٍ مُرتفِعٍ في البيتِ ثم إلقائها في الفصلِ بإشرافِ المدرس (الاستفادة المثلى من مهارات التعلم) . وبَعضُ تلك النصوص لا زال عالقاً بذاكِرتنا إلى اليوم! مع حِفظ سُوَرٍ من القرآن الكريم وفهم ألفاظها ومعانيها، وبعض قواعد التجويد، وجملةٍ من الأحاديث النَّبوية الشريفة، وقِطَعٍ مختارة من الشعر (المحفوظات) . فأَحْبِبْ بها مِن دُرَرٍ، وأَكْرِمْ بها من غُرَرٍ لم تَخلَقْ على مَرّ الزمان!

كما كنا نُلْزَمُ بكتابة مواضيعَ مختلفة في "مادة الإنشاء" -أو التعبير كما تُسمى اليوم- بالعربية والفرنسية، ثم بعد تصحيح المعلم، يلقي بعضُ التلاميذ موضوعاتِهم على زملائهم، وتُناقش، وتُصحح الأخطاءُ، ونُلزم بكتابة الصواب. وقل مثل ذلك في سائِر موادّ اللغة العربية.

ومن المواد المهمة التي حُذفت من مناهج التعليم: "مادة تلخيص النصوص" بالعربية والفرنسية، وهي مَهارة لو اكتسبها الطالبُ فكأنّما حِيزَتْ له سُبل الكتابة الصحيحة بحَذافيرِها، لما تحتاجه من مَتانة اللغة، وسَعة الاطلاع، بغية محاكاة الكتاب في أساليبهم، ومجاراتهم في نهجهم. . .

تلك هي السبيل -في نظري- إلى التمَرّسِ بأساليب العُلماء الألِبّاء، والتدرّب على مَناهِج الدارسين الأكْفاء، يهتدي بها طلبتُنا في دراستهم، وينْسُجونَ على مِنوالَها في عُروضِهم وتلخيصِ مُقرراتِهم، ويَقتدونَ بها في بُحوثهم وكتابة تقاريرهم، ويَستعينون بها في اختباراتهم ومُشاركاتِهم في النَدواتِ والمناظرات. . . حتى يتمّ لهم ما أمّلوا

وعليه عوّلوا؛ فتربو بَضاعتُهم في القراءة والاطلاع -وكانتْ مِن قبلُ مُزْجاة- وتزكى ذخيرتُهم من العِلمِ والمعرفة ولو كانت يَسيرة، ويتسعُ أُفُقُ الكتَابةِ والتحليلِ لديهم ولو كان ضيقا محدودا.

وهذا حُجّة الأدب عمرو بن بحر الجاحظ (ت/255 هـ) يحدثُنا بكلام بليغ عن قيمة القراءة، وما يجنيه القارئُ من مُصاحَبةِ الكِتاب، نوردُ بعضه لنفاسته، يقول: [225]
"والكِتابُ هو الجليسُ الذي لا يُطرِيكَ، والصَّديقُ الذي لا يُغرِيكَ، والرفيقُ الذي لا يَمَلُّك، والمُسْتميحُ الذي لا يَسترِيثُك، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطيكَ، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندك بالملَق، ولا يُعامِلُك بالمكر، ولا يَخدَعُك بالنّفاق، ولا يحتالُ لكَ بالكذب. والكتّابُ هو الذي إن نظرتَ فيه أطال إمتاعَك، وشَحَذَ طِباعَك، وبَسَطَ لِسانك، وجَوَّد بَنَانك، وفخّم ألفاظَك، وبَجّحَ نفسكَ، وعَمَّر صَدْرك... ومتى كنتَ منه مُتعلقا بسبَب كان لك فيه غِنىً من غيره، ولم تَضطرَّك معه وَحْشَةَ الوَحدةِ إلى "جَليس السُّوء". ولو لم يكن مِن فضلِه عليكَ، وإحسانِه إليك، إلّا مَنْعُه لكَ من الجلوس على بابِكَ، والنَّظَر إلى المارَّة بك، مع ما في ذلكَ مِن التعرُّض للحقوق التي تَلزم، ومن فضولِ النَّظر، ومن عادة الخَوض فيما لا يَعْنيكَ، ومن مُلابَسَة صِغار الناس، وحُضورِ ألفاظهمْ الساقِطة، ومَعانِيهم الفاسِدَة، وأخلاقهم الرَّديَّة، وجَهالاتِهم المَذْمومَة، لكان في ذلك السلامةُ، ثم الغنيمَة.. ".

عُذْراً أبا عثمان! ما استوعبَ الناسُ كلامَكَ البليغَ عن "خَيْرِ جليسٍ" -كما وصفه أبو الطيب-، أو لعلّهم لم يَقبلوه! بل نَبَذوه وَراء ظُهورهم، وتنكبوا سبيلَ الهُدى

---

225 "الحيوان" 1/39، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1424 هـ.
ومعنى يُطريك في النص: يجاملك. والمستميح: طالبُ المعروف. ويَسترِيثُك: يَسْتبطئك. والملق: التملق.
وبجّح هنا معناها: فرّح. والغُرْم: الدَّيْن.

والفَلاح، كما فعلوا مع تَوْجيهِ ربّهم وإرشادِ رَسولهم ﷺ ، و جَلسوا على عَتَباتِ أبوابِهم –لا لِتقليب صَفَحاتِ الكُتب كما نَصَحْت– بل لتصفحِ مَواقِع التواصل الاجتماعي –زعَموا– والشبكة العنكبوتية (الإنترنت) –التي التفتْ على رقابهم خيوطُها فما استطاعوا منها فكاكا– يقرؤون ويكتبونَ ويشاهدونَ الضلالاتِ والأباطيلَ، ويتبادلون الرسائلَ البليدةَ والتعليقاتِ السّخيفة، ويتناقلون الأحاجيَ والنُّكت والتّفاهات بل "السفاهات"، بلُغة أشْبَهَ برَطانَة الأعاجِم، بل هي عينُها؛ لغة تمجُّها الأسماعُ، وتَنْفِر منها الفِطَرُ السليمةُ، لغة تَقتلُ الذوقَ البَديع والأدبَ الرّفيع! وتحطُّ من قدْر "خَيرِ أُمّة أُخْرِجَتْ للناس" بين الأمم! ولو قُدِّر أن تلقى مُتعلما منهم يُكثر اللّحن سيقول لك غيرَ مُكترث: "هذا عصر السرعة، المهم أن يفهم الناسُ ما تقول"! و "والعربية لغة صعبة تحتاج إلى تيسير وتطوير، فكل لغات الدنيا تتطور وهذا ينطبق على العربية أيضا! " و "الخطأ المشهور خيرٌ من الصواب المَهجور"، وأمثال هذه الحجج الواهية الفاسدة. وما علم هؤلاء الخاملون أن بعض الدول أحيتْ لغاتٍ شارفتْ على الهلاك، فهي اليوم تعيدُ لها الاعتبار وتستخدمها في كل شؤونها، ولم تُعوزها المناهج والوسائل...

نَعيبُ زمانَنا والعَيبُ فِينا وما لِزمانِنا عَيبٌ سِوانا

بل قابلتُ يوماً خطيباً لحّاناً، فلما أخبرته أن هذا لا يليق بمقام الدُّعاة والخطباء، لم يجد ما يحتج به سوى قاعدة: "المشقةُ تجلبُ التّيسير"! فقلت سبحان الله، "كلمة حقٍّ أُريد بها باطل"!

وَيَنشأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا علي ما كانَ عَوّدَهُ أَبوه
وما دانَ الفَتى بِحِجىً وَلَكِنْ يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقرَبوه

أجل، لقد استشْرى داءُ اللحنِ بين المتعلمين والمتأدبين، بل أصاب حتى المختصين! ولولا الأَمانةُ وخَشية الفَضيحةِ لعرضتُ على القراءِ نماذجَ لا تُحصى من أساليب

طَلبتنا في الاختباراتِ والعُروض والبُحوث الجامعية، تُظهِرُ فَقرَهم الشائِنَ في قَواعد اللغة الأساسية، وجهلهم الفاضِحَ بلغة الضّاد، وعجْزَهم عن الكتابة والقراءة السليمتَين –وفاقد الشيء لا يعطيه– إنه فساد استَصْحَبوه طيلة حياتهم! لكنهم أَبوا كلَّ الإباءِ –إلا القليل منهم– أن يتجاوزوه، وأن يَتداركوا ما فاتهم بإصلاحِ لسانِهم!

حُبُّ السَّلَامَةِ يُثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ عَنِ المَعَالِي وَيُغْرِي المَرْءَ بِالكَسَلِ

إنّ أمّةَ "اِقرأ"، زَهدتْ في القراءة والكتابة، بل عافتْها ولفظتْها، وتَشبّثَتْ بأذْيال الخُرافات والأساطيرِ –إلا قليلاً– واستبدلتْ بطلب المَعرفة الصحيحة، والبَحثِ العِلمي النافِع "علوماً وفنوناً دنيوية وشَعبية" أَخْلدتْ بها إلى الأرض، فقَعدتْ بها عن مُواكبة رَكب التقدم، بل رضِيتْ بأن تكونَ مع الخامِلين و"المُرجئَين"، وعَمِيَتْ عن تراثِها العلمي الرائع، صانع الحضارة الإسلامية العالمية، وأَبتْ تطبيقَه في حياتها، وتطويرَه كي تنهضَ من كبوتها. لكن هَيْهاتَ هيهاتَ!...

كالعِيسِ في البَيْداءِ يَقتُلُها الظَّمَا والماءُ فَوقَ ظُهورِهَا مَحْمُولُ

إن أُمّةً لا تَعْرِفُ تاريخها ولا تُقدّره لا تُحْسِنُ صِياغةَ مُسْتَقْبَلها! لذلك انزوتْ أُمّةُ المتخاذلين في ظِلّ الحَضارةِ العالميّةَ، تجترُّ ما توارثه الأجدادُ وتَسامَعتْ به الأجيالُ –ولو كان باطلاً أحياناً– وتتفرجُ بأعيُن غائِرة حائِرةٍ على الأحداثِ تمضي أمامَها مُتسارعة، لا تملكُ صَرْفًا ولا عَدْلًا!

لِمِثْلِ هذا يَذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ إنْ كانَ في القَلْبِ إسلامٌ وإيمَانُ

وحالُ أُمتنا اليومَ يصدقُ على بعضها قولُ أبي الطّيب ساخراً من أهل مِصر في عصره، ممن كانوا يتمسكون بالأعراض من الدين دون الجواهر:

أَغَايَةُ الدّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكم؟ يا أُمّةً ضَحِكَتْ مِن جَهلِها الأُمَمُ!

وخُلاصة القول: إن متتبعَ شأنَ التربية والتعليم في المغرب –بل في البلاد العربية قاطبة– يلحظ دون عَناء تراجعاً خطيراً في أداء الملكات اللغوية عند المتعلمين، وفي مستوى

طاقاتهم التعبيرية. ولعل من الأسباب الصريحة لهذا الوضع غيابُ التخطيط اللغوي السليم لدى الحكومات المتعاقبة (مع التسليم بوجود نوايا صادقة لمعالجة قضايا التربية والتعليم لديها) . إن الدولة هي المسؤولة الأولى عن تشخيص الآفات التي تصيب لغة الأمة وفكرها، وعليها ان تسعى صادقة إلى إيجاد الحلول الملائمة لها، من خلال وضع سياسة لغوية متكاملة، يوازيها تخطيطٌ لغوي واعٍ يستهدفُ لغةَ الأمة: رمزَ سيادتها .

وأمام الفوضى اللغوية التي تعرفها المجتمعات العربية، والدعوة إلى العامية وطغيانها، والتدريس بلغة الأجنبي، وما يصاحب ذلك من عَبث أصحاب القلوب المريضة من المتغربين، أصبح لزاما على ذوي الحَلِّ والعَقد في هذه البلاد صياغةُ تخطيط لغوي ذكي مُتطور يأخذ بأسباب التقدم، طموح ومتعدد الجوانب، جديرٍ بالحضارة العربية الإسلامية العظيمة –تمكيناً للغة الضاد وتنمية– حتى تستعيدَ مجدَها المُؤَثَّلَ وتَتَبَوَّأَ مكانتَها اللائقة بها بين لغات العالم من جديد . فالعربية –وان كانت محفوظة بحفظ القرآن الكريم– تحتاج إلى جهود كل المخلصين والغيارى.

"إنه لا ينقصُنا من اللغة شيءٌ، وهي على ما هي من إحكام الأوضاع والتراكيب والاتساعِ للمفردات ولكن يَنقصُ هذه اللغة رجالٌ يَعملون ويُحسنون إذا عمِلوا، ويَعرفون كيف يتأتى عَملُهم إلى الإحسان، وكيف يكون عَملُهم عَملاً" . [226]

ولكن يبقى الأمل –في نهضةٍ شاملة– مَعقودا على أهلِ الصَّلاح والفَضل الذين لا يخلو منهم زمانٌ ولا مكان: فما أَضيقَ العيْشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ ! أَجلْ، لأنه:

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائمُ وتأتي على قدرِ الكِرامِ المكارمُ

226 "تحت راية القرآن"، لمصطفى الرافعي، ص/34، المكتبة العصرية، بيروت، ط1/ 2002م.

# المبحَث الرابعُ

# الشُّعَراءُ واللُّغَة العَربيّة

عاصرَ كثير من الشعراء في المشرق والمغرب الحربَ البغيضة التي فُرضتْ على العربية الفُصحى، والتي بدأت -كما رأينا في المبحث السابق- بمحاولَات التشكيك في العربية، وقُدرتها على استيعاب حَضارة العصر، منذ أن حطّ الغزوُ الغربي رحاله بديار العروبة والإسلام، ثم بدأ بنشر سمومه الفكرية في عقول أبناء الأمة، بواسَطة طائفة من المنصرين والمستشرقين الذين سخّروا بعض أدعياء التغريب والتنوير معاول لهدم صروح لغة الضاد. وقد هبّ ثلّة من الأدباء والمفكرين لردّ كيد هؤلاء كما رأينا. ولم يتخلف الشعراء عن هذا الواجب، فسارع كثير منهم الَى كشف خطورة هذه الدعوات على الأمة ومستقبلها، فدبّجوا أشعاراً تبيّن خيوطَ "المؤامرة على الفصحى"، وأسبابَها ومَرَاميها . . .

وفيما يلي ثلاثُ قصائدَ تروي لنا ما حدثَ للعربية في هذا العصر.

## « العَربيّة تَنْدُب حَظّها »

### لحافظ إبراهيم (1871- 1932م)

كلنا يذكر صَرخة حافظ [227] حينما قال على لسان العربية:

---

227  محمد حافظ بن إبراهيم فهمي، "شاعر النيل"، وشاعر الوطنية والاجتماع والمناسبات، شعره سجل لأحداث قومه، صاغ منها أدبا قيما يحث النفوس ويدفعها إلى النهضة حتى طار صيته واشتهر شعره ونثره. كان من أقطابِ مَدرسةِ الإحْياءِ والبَعْثِ الشّعريةِ التي يَنتمِي إليها شُعراءُ أَمْثالُ أحمد شوقي،

رَجعْتُ لِنفسي فاتهمْتُ حَصَاتي وناديتُ قومي فاحتَسَبْتُ حَياتي
وَلَدْتُ، وَلَمّا لمْ أَجِدْ لِعَرائسِي رجَالاً وأَكْفاءً وَأَدْتُ بَناتِي
رَموني بعُقم في الشَبابِ وليْتني عَقِمتُ فلمْ أَجْزَعْ لِقول عِداتي
وَسِعتُ كِتَابَ اللهِ لفظاً وغايةً وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصْفِ آلةٍ وتنسيقِ أسماءٍ لِمُختَرَعاتِ؟
أنا البَحرُ في أحْشائه الدُّرُّ كامِنٌ فهل ساءَلوا الغوّاصَ عن صَدفاتي؟
يا وَيحَكم أَبلى وتَبْلى مَحاسِني ومنْكمْ –وإنْ عَزَّ الدّواءُ– أُساتِي
فلا تَكِلوني للزّمانِ فإنني أخافُ عليكم أن تحينَ وَفاتي
أرى لرجال الغرب عِزّا ومَنْعَةً وكم عَزَّ أقوامٌ بعِزِّ لغاتِ؟
أَتَوْا أهلَهُم بالمُعجزاتِ تَفَنُّناً فيا ليتَكُمْ تَأتونَ بالكَلِمَاتِ!
أرى كل يومٍ بالجَرائدِ مَزْلَقاً مِنَ القَبرِ يُدنيني بغيرِ أَناةِ
وأَسمَعُ للكُتّابِ في مِصرَ ضَجّةً فأَعلَمُ أَنَّ الصَّائحِين نُعاتي

## بعض مَعاني القصِيدةِ وبلاغتِها

إن عاطفة الشاعر في هذه القصيدة صادقةٌ، تَفيض حُباً وغيرةً على لغة الضاد، ورثاءً لما آلت اليه أوضاع الأمة مِن هَوان في أمورها ، وعلى رأس ذلك التفريطُ في لغة القرآن: مَصدر العزة والكرامة، ومَعدن الفصاحة، وينبوع الإعجاز. انها لغة وسعتْ كتاب الله من حيث ألفاظه ومعانيه، فهي لذلك أوسعُ اللغات وأبلغُها، والا ما اختارها الله تعالى لهذه الغاية النبيلة.

---

والبارودي. وكان قويّ الحافظة راوية، حاضرَ النكتة، جهوريّ الصوت، بديع الإلقاء، مهذّب النفس. وفي شعره إبداع في الصوغ امتاز به عن أكثر أقرانه. له (ديوان حافظ) و (البؤساء) و(ليالي سطيح) . . .
والقصيدة في ديوانه بتحقيق أحمد امين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1987، الطبعة الثالثة، ص/253-255.

وأسلوبُ القصيدة يتسم بالوضوح: فمفرداتُها مألوفة، ومعانيها سهلةٌ مترابطةٌ لا غموض فيها ولا تعقيد، ولا غَرْوَ فهو يصف حال العربية المُزري إذ تَخلَّى عنها بَنوها في هذا العصر، مع أنها أشرَفُ اللغات وأسماها، حيث كانت وعاءَ أعظمَ الكُتب السماوية وخاتمتها، ويفصّل الحديثَ عن الحملة الجائِرة التي تعرضَتْ لها، ويبين صُمودَها أمام التحديات.

- استخدم الشاعر من أساليب البلاغة أنواعَ الخَبَر (الابتدائي والإنكاري)، والإنشاء الطلبي، وزاوجَ بينهما في كل القصيدة ونوَّع، إذ غرضه حَثُّ العرب والمسلمين على تحمل مسؤوليتهم تجاه الفصحى وما يُحاك لها من مُؤامرات قد لا يفطِن لها أحياناً الا اللبيب..
- فمن أمثلة النهي قوله: "فلا تَكِلُوني للزّمان ..."، وهو يُفيد الاستعطاف.
- ومن الاستفهام: -وهو شائع في النص- قولَه: "أيطربكم ..." أيهجرني ... " وقوله: "فكيف أضيق اليوم"؟ الذي يفيد الانكار. وقوله: "فهل ساءَلوا الغوّاصَ عن صَدَفَاتي؟ الذي يفيد الإنكار مع النفي، أي أن قومه يجهلون قدر لغتهم، ولم يسألوا أهل الحَلّ والعَقد فيها ! أما قوله: "وكم عَـزَّ أقـوامٌ بعِـزّ لُغـاتِ؟" فخرج الاستفهام هنا الى التكثير أو التعظيم.
- ومن والنداء قوله: "فيا ويحَكم" وهو للتقريع والتأنيب.
- والتمني: نحو قول الشاعر: "وليتني عَقمت ..." و "يا ليتَكُمْ تأتونَ بالكَلِمَاتِ". وهما يفيدان الأسف والحسرة على شأن العربية وحالها.

<u>واستعمل الشاعر من صُور البيان:</u>

- الاستعارة المكنية، حيث بنى قصيدته كلها على أسلوب التشخيص، تقريباً للمعنى وتجسيده، فيكون ذلك أدْعى للوصول إلى غرضه من القصيدة، فشبه الشاعرُ اللغة العربية بامرأة تُحدِّث قومَها بمرارة وحسرة، فتقول "رجعتُ لنفسي فاتهمت

حصاتي. . "، أي عقلي، نلمس ذلك حين قال:"رجعتُ. . " وناديت. . " "ولدت . . . " "رموني بعقم. " فشبه اللغة بامرأة تنادي وتلد . . ثم حذف المشبه به "المرأة"، وصرح بما يدل عليه، على سبيل الاستعارة المكنية. وتخلل القصيدة بعد ذلك استعارات تصريحية، مثل:

- الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: "لعرائسي" و "صدفاتي" حيث شبه ألفاظ العربية ومعانيها في بهائها بالعرائس، ثم بالصدفات أي الدرر، وحذف المشبه وصرح بالمشبه به، ومثلها قوله: "وأدتُ بناتي"، أي أخفيت أعز ما أملك من بهاء ثروتي اللغوية، فشبه ذلك بوأد البنات زمن الجاهلية. وكذلك في قوله "رموني بعقم"، شبه عدم قدرة العربية على ابتكار المعاني والألفاظ بعقم المرأة، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به أي المستعار منه. وهذا من أبرز خصائص المجاز –والاستعارة خاصة– حيث إنها تشخص لنا المعاني كأننا نراها فلا نملك لها دفعا أو إنكارا .
- واستعمل الشاعر التشبيه البليغ في قوله:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي؟

حيث حَذف مِن أركان التشبيه الأداة والوجه، وأبقى المشبَّه والمشبَّه به فقط، وفي ذلك دعوى اتحاد الطرفين. ولعل ذلك ما حمل البلاغيين على تسمية هذا النوع من التشبيه بالبليغ، لما لحظوه من ان هذا الأسلوب يقرب من الاستعارة في قوة تشخيصها المعاني. . . اما الاستفهام في البيت فخرج إلِى النفي أو الانكار أو اليهما معاً .

- والتشبيه المجمل (محذوف وجه الشبه) المُرسل (المذكور أداته)، في قوله:

سَرتْ لَوثَةُ الإفرنج فيها كما سَرى لُعاب الأفاعي في مَسيل فُرات

وهو تشبيه طريف، غايته توضيح المعنى وتوكيده في ذهن السامعين، وأن هذه اللوثة (استخدام الإفرنجية) قوية وعواقبها وخيمة قد تقضي على الفصحى كما يقضي السم على ما دُس فيه!

- واستخدم الشاعر من ألوان البديع: الطباق، في قوله: ولَدت، وأَدْت، وبينهما جناس ناقص كذلك. . ومن جناس الاشتقاق قوله: "عَزَّ أقوامٌ بعِزّ لغات". و بينَ "عُقمٍ" و"عَقِمتُ". . .

إلى غير ذلك من أنواع البلاغة التي حفلت بها قصيدة حافظ.

## «العَربيّةُ والشَّرْق»

### لمصطفى صادق الرافعيّ

وهذه قصيدة طويلة يصف فيها الشاعر حال العربية وتنكُّر أبنائها لها اليوم، نقتطف منها ما يلي:[228]

أَنَّى يكيدُ لها مِن نَسْلِها العَقِبُ    ولا نَقيصَةَ إلا ما جَنى النسبُ
كانتْ لهمْ سَبَباً في كلِّ مَكرُمَةٍ    وهُم لنَكبتها مِن دَهْرِها سَبَبُ
لا عيبَ في العَربِ العَرباءِ إن نطقوا    بينَ الأعاجمِ إلا أنهمْ عَرَبُ
والطيرُ تَصدَحُ شَتَّى كالأنام وما    عِندَ الغرابِ يُزكّى البُلبُلُ الطَربُ!
أَتى عليها طوالَ الدَّهْرِ ناصِعَةً    كطَلعةِ الشَّمس لم تَعْلَقْ بها الرِّيَبُ
ثمَّ استفاضتْ دَياجٍ في جَوانبها    كالبَدرِ قد طَمَسَتْ من نورِهِ السُّحُبُ
سَلوا الكواكبَ كمْ جيلٍ تداولها    ولم تَزلْ نَيِّراتٍ هذهِ الشُّهُبُ؟
وسائِلوا الناسَ كمْ في الأرضِ من لغةٍ    قديمةٍ جَدَّدتْ مِن زهْوِها الحِقَبُ؟
أَنتركُ الغربَ يُلهينا بزُخْرفهِ    ومَشرقُ الشمسِ يُبكينا ويَنتحِبُ
وعندنا نَهَرٌ عَذبٌ لِشاربِهِ    فكيفَ نتركُهُ في البَحرِ يَنْسَرِبُ؟
وأَيُّما لُغةٍ تُنسي امْرأً لغةً    فإنها نَكبةٌ مِن فِيهِ تَنْسَكِبُ

---

[228] "ديوان الرافعي" 1/14-15، شرح محمد كامل الرافعي، 1904م. وقد تقدمت ترجمةُ الشاعر.

لَكَم بكى القولُ في ظلّ القُصور على	أيامِ كانتْ خِيام البيد والطُّنُبُ
أرى نفوسَ الورى شتّى و قيمتَها	عندي تأثّرها، لا العِزّ والطَّلَب
ألم ترَ الحطبَ استعلى فصار لظىً	لمّا تأثر مِن مَسّ اللّظى الحَطَبُ؟
فهل نُضيعُ ما أبقى الزمانُ لنا	وننفُضُ الكفَّ لا مجدٌ ولا حَسب؟
إنا إذاً سُبَّةٌ في الشّرق فاضِحةٌ	والشّرقُ – وإنْ كُنا به – خَربُ
هَيْهاتَ يَنفعنا هَذا الصّياحُ، فما	يُجْدي الجبانَ إذا رَوَّعته الصَّخَبُ؟
ومَنْ يكنْ عاجزاً عَن دَفْع نائبةٍ	فقَصْرُ ذلك أنْ تلْقاه يَحْتَسِبُ!
إذا اللغاتُ ازدَهَتْ يوما فقدْ ضمِنتْ	للعُرْب أيَّ فَخار بَينَها الكُتُبُ
وفي المعادنِ ما تَمْضي برونقِه	يَدُ الصَّدا غيرَ أنْ لَا يَصْدأ الذهبُ

تضمنت هذه القصيدة –فضلا عن صدق مشاعر قائلها– معاني كثيرة، دبجها الشاعر بريشة الفنان المبدع، وإنجاز الصانع المتقن، استعمل فيها صورا بلاغية شتى، وزاوج فيها بين أساليب الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، والإيجاز والإطناب. . .كما جمعت في اغراضها بين الحسرة واللوعة، والمدح والفخر، والنصح والإرشاد. . .ولا يمكن أن نتحدث عن كل هذه الأمور هنا لضيق المقام. ويحسن ان نورد –شرحاً لبعض مضامين القصيدة فقط– مقتطفات من مقالة "اللسان المرقع" للرافعي نفسه يتحدث فيها بأسلوبه الساحر الساخر عن أحد المتغربين الذين أصيبوا بعقدة "الخواجة"، ممن يذهبون إلى البلاد الأوروبية، ويعودون منها وقد لووْا ألسنتهم بلغة مُرقَّعة، يقول: [229]

"وقال صاحب سر "م" باشا: جاء "حضرة صاحب السعادة" فلان لزيارة الباشا؛ وهو رجل مصري ولد في بعض القرى، ما نعلم أن الله "تعالى" ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب. . . غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا،

[229] "وحي القلم" 261/2، اعتنى به درويش الجويدي، المطبعة العصرية، صيدا– بيروت، ب ت ط

وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولون نفسه ألوانا، فهو مصري ملون. ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهوات أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مغمى عليه كالميت بين تواريخ الأمم.

وكان حضرةُ صاحب السعادة يُكلم الباشا بالعربية التي تلعنُها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعا مُنحطا، نازلاً بها عن لغة السوقة نزولا عاليا، فكان يَرتَضِخ لكنة أعجمية، بينا هي في بعض الألفاظ جَرسٌ عالٍ يَطِنّ، إذا هي في لفظ آخر صوتُ مريض يَئِنّ، إذا هي في كلمة ثالثة نغمٌ موسيقى يَرِنُّ. ورأيته يتكلفُ نسيانَ بعض الجمل العربية ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرُّفًا ولا تملحا ولا إظهارًا لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفِي المتمكن في نفسه. فكانت وطنيةُ عقله تأبى إلا أن تُكَذّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائف على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه".

## "يا ابنةَ السابقين من قَحْطان" [230]

### للأستاذ علي الجارم (1881-1949م)

---

230 انظر القصيدة بكاملها وشرح مفرداتها في ديوانه، ص/80-84، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة.




والأستاذ علي الجارم أديب وشاعر وكاتب مصرِي، ورائد من رواد مدرسة الإحياء والبعث. سافر بعد الثانوية إلى إنكلترا لإكمال دراسته. كان شاعرا من الطراز الأول، مشرق الديباجة، رصين الأسلوب، جيد المعنى والمبنى. كما له مؤلفات نثرية متعددة المشارب مثل: "الذين قتلهم شعرهم"، "فارس بني حمدان"، "الشاعر الطموح" "الفارس الملثم"، و"السهم المسموم"، "مرح الوليد"، "سيدة القصور"، "غادة رشيد"، "هاتف من الأندلس"..

يا ابنةَ السابقين من قَحْطان    وتُراثَ الأمجادِ من عَدْنانَ
أنتِ علَّمْتِني البيانَ فما لِي    كلّما لُحْتِ حارَ فيكِ بياني
كُنْتُ أشدُو بَيْنَ الطيور بذِكرا    كِ فتعلو أَلحَانُها أَلحاني
وأصوغُ الشّعرَ الذي يَفرَعُ النّجْـــمَ وتُصْغِي لِجَرْسِه الشّعْرَيانِ
يا ابنة الضَّادِ أنتِ سرٌّ من الحُســـن تجلّى علَى بَنِي الإنسانِ
كُنتِ في القَفْرِ جَنّةً ظلّلتْها    حالِياتٌ من الغصونِ دَواني
لغةَ الفنّ أنتِ والسحْرِ والشّعْــرِ ونورُ الحِجَا ووَحْيُ الجَنانِ
وبيَانٍ بَنَى لِصاحِبِهِ الْخُلْـــدَ مُطِلاًّ مِن قِمَّةِ الأَزمانِ
وقصِيدٍ قد خَفَّ حتّى عَجِبْنا    كَيفَ نالَتْهُ كِفَّةُ الأَوْزانِ
بلغ العُرْبُ بالبلاغةِ والإسْـــلامِ أَوْجاً أَعْيَا عَلَى كَيْوانَ

على الرغم من دراسة الشاعر بإنجلترا، وتمكنه من اللغة الإنجليزية لم ينسَق وراء الاتجاه التغريبي، وظل معتزا بلغة القرآن مدافعا عنها وعمل جاهدا على نهضتها، لأنها كما يقول:

نَزَلَ القُرْآنُ بالضّادِ فَلَوْ    لَمْ يَكُنْ فِيهَا سِواهُ لَكَفَاها

وأوصى المسؤولين على التربية والتعليم بالأخذ بأسباب العلم النافع، وبإذكاء روح العربية في أبنائهم رمز وحدتهم:

بَني العُروبة مُدّوا للعلوم يَداً    فلن تُقامَ بغيرِ العلمِ أركانُ
جمعتُمُ لشَبابِ الشَّرقِ مُؤتمرا    بمثله تزدَهي الفُصحى وتزدانُ
وحبّبوا لغةَ العُرْبِ الفِصاحِ لهم    فإنّ خِذلانَها للشرق خِذلانُ
قولوا لهم إنّها عُنوانُ وَحْدتهم    وإنهم حولَها جُندٌ وأعوانُ

وقد تبحّر الأستاذ الجارم في علوم اللغة العربية بالبحث والدراسة والممارسة، فأصبح أحد رواد تعليم اللغة العربية، فعُيّن كبير مفتشي اللغة العربية في مصر، ثم وكيلاً لدار

العلومٍ وبقي فيها حتى عام 1924، كما اختير عضواً في "مجمع اللغة العربية"، وقدم عددا من الكتب الرائدة في العربية مثل: "النحو الواضح" في ثلاثة أجزاء و"البلاغة الواضحة" في جزء ودليلها في جزء آخر، بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين. وقد حظي هذا الكتاب بالقبول ، فقررته بلاد المشرق في مدارسها الثانوية إلى اليوم، حتى في البلاد الإسلامية غير العربية، وقد طبع عشرات المرات. . . [231]

## «اضطِهَادُ لغةِ القُـرآن»

لِعَلّال الفاسي الفهري (1910م -1974م) [232]

إلى مَتى لُغةُ القُرآنِ تُضطهَدُ     وَيستبيحُ حِماها الأَهْلُ والوَلَدُ
أَمَا يَروْنَ أنها في الدّهرِ عُدّتهُم     ومالهم دونهَا في الكونِ مُلتَحَدُ

---

231 كنت أحد المستفيدين من هذا الكتاب حينما عُهد إلي بتدريس مادة البلاغة لطلاب الباكلوريا، في معهدي الإمام مالك بطنجة، ومعهد الإمام الشاطبي بتطوان كلاهما للتعليم الأصيل. والحق أني لم أجد خيرا منه –على كثرة ما ألف من كتب لهذا الغرض– لأنه يعتمد أسلوبا سهلا في الشرح والتحليل، مع التركيز على رصيد كبير متنوع من التطبيقات وحلها في كتاب مستقل، وهذا هو المرجو من دروس البلاغة. . .



232 تلقى علال الفاسي تعليمه الأولي بمدينة فاس التي ولد فيها . تخرج في القرويين عام 1936م، وعُين فيها أستاذا لتاريخ الإسلام، ثم مدرسا بكليتي الحقوق والآداب بجامعة محمد الخامس، وأستاذا بمدرسة الحديث الحسنية بالرباط. كما تقلد مناصب وزارية كثيرة. وهو أحد مؤسسي "حزب الاستقلال" ومن زعماء الحركة الوطنية المغربية. . . خلّف الأستاذ الفاسي مؤلفات كثيرة في موضوعات شتى تربو على الخمسين، منها: "تاريخ التشريع الإسلامي"، "المدخل لعلوم القرآن"، "النقد الذاتي"، "مقاصد الشريعة ومكارمها"، "دفاع عن الشريعة" و"مهمة علماء الإسلام" و"الغرة في أصول الفقه" و"الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي" و"معركة اليوم والغد" و"دائما مع الشعب". . . وله ديوان شعر كبير من أربعة أجزاء اجتمعت فيه منظوماته الشعرية على امتداد حياته في المغرب وفي المُغترب . .

ولن تقومَ لهمْ في الناس قائمةٌ أو يَستقيمَ لهم في العَيش ما نَشَدوا
إن لم تتمَّ لهمْ في الضادِ مَعرفةٌ أو يَكتمل لهمْ في الضَادِ مُعتَقَدُ
وكيفَ يُصغونَ للأعداء تذكُرُهَا وأصلُ ما وصَفوهُ الحِقدُ والحسدُ
والقاذفونَ لها بالعَجزِ ما جَهلوا لأنها فوقَ ما ظَنّوا وما اعتَقدُوا
تآمروا وأَعَدّوا كلَّ مَدْرسةٍ بها قَواعدُ الاستعمارِ تُقتَعدُ

يمتاز الأستاذ علال الفاسي –في مجال عطائه الشعري– بعمق شاعريته وصدقها، وطول نفسه، يدل على ذلك ويصدقه: كثرة شعره وغزارته، واستمرار إنتاجه من صباه إلى آخر حياته. . . فهو شاعر الفكرة والمضمون، يهمه أن يبلغ غايته في شعره بعبارة واضحة مباشر، يدركها الجميع، ويستجيب لها الكثير، وبعبارة جامعة: إنه شاعر رسالة. لقد كان من الذين حملوا رسالة ضخمة منذ قال وهو صغير:

أَبَعْدَ مُرور الخمسَ عشْرَةَ ألعبُ وأَلهُو بلَذاتِ الحياةِ وأَطْرَبُ؟
ولي نظرٌ عالٍ ونفسٌ أبيةٌ مُقاماً على هام المجرة تطلبُ
ولي أمةٌ مَنكودةُ الحظ لم تجدْ سبيلا إلى العيش الذي تَتَطَلّبُ [233]

ولنستمع اليه في قصيدة أخرى يرسل صرخته منددا بالمستعمر الفرنسي، واعيا بمخططاته ومؤامراته على لغة الإسلام، ناعياً على المتقاعسين العاجزين الذين ماتت

---

233 بتصرف من مقال: "الوطنية وإنهاض همم الشباب في شعر علال الفاسي"، الأستاذ محمد الروكي، مجلة "دعوة الحق"، العدد 354 جمادى الأولى– جمادى الآخرة 1421 هج/ غشت–شتنبر، 2000 م.
– وينظر كذلك مبحث "الرسالة" من كتاب الأستاذ عبد الكريم غلاب: "ملامح من شخصية علال الفاسي"، ص/46 وما بعدها.
– وعن مشاكل التعليم وأسباب ضعف العربية وتدريسها ينظر كتاب "النقد الذاتي" لعلال الفاسي في مبحث: "مواد التعليم" ص/347– 351، المطبعة العالمية بالقاهرة، 1952م.

فيهم الغيرة على دينهم ومقدساتهم، ثم يوجه فيها خطابه إلى الحكومة، ويحملها مسؤولية حماية اللغة العربية، والدفاع عنها من ضربات العدو وأتباعه:

قل للحكومةِ والأيامُ شاهدةٌ    عودي إلى الحق لا يَصدُدكِ منتقد
عودي إلى خُطةٍ ترضى البلادُ بها    ويَستقيمُ بها للمِلّةِ الأوَد
وحرّري الضادَ حتى يستبينَ لها    مجالُها الحرُّ لا قيدٌ ولا صفَدُ
عارٌ رواسبُ الاستعمارِ نكلؤها    وعندنا الجهل والإذلال والكمَدُ
عارٌ قد استعْجمَتْ أقوالُنا وغدتْ    أفكارُنا بمعاني الخَصْم تَتّحِدُ

ولم يكن يغيبُ عن شاعرنا أن مسؤولية حماية اللغة والدفاع عنها، وجعلها لغة التعليم والتدريس والإدارة غير مقصورة على الحكومة، بل هي مسؤولية الشعب أيضا، وأمانة في عنق أبنائه، عليهم أن ينهضوا بها، ويطالبوا بحقوقهم فيها، يقول من قصيدة:

الأمرُ للشعْب فليُعْلِنْ إرادتَهُ    وكلُّنا طاعةٌ للأمرِ يُعتمَدُ
إنا بني الوطنِ الأسمى الأُساةُ لهُ    والجُندُ للضادِ نَحميها ونجتهدُ
هُبّوا بني الوطنِ الأسمى إلى عَملٍ    مِن شأنه الفوزُ للأوطانِ والرّغَدُ
وناصِروا الضادَ في كل المواقفِ إذْ    مِن فوزها غايةُ التّحْرير تمْتهدُ

ولهذا فهو يحمل المسؤولية فئة من المتغربين ممن آثروا نهج المستعمر ثقافة ومظهرا، فنراه يقول من قصيدة طويلة بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم:

قل للذين رَضوا ثقافةَ غيرهمُ    وتَصوروا الإسلامَ عَهداً قدْ خَلا
أيليقُ أن تبقى العُروبةُ بيننا    جَسداً بلا روحٍ ولفظاً عُطّلا
جرّبتمُ دعواتِ غيرِ محمدٍ    ماذا جَنَيتُم هل عَقدتم مُوصلاَ؟

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

# الفهرس

